2 (1354/55 = 1935/36)

السنة الثانية (ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — يونية سنة ١٩٣٥) الجزء الأول

صحيفة دار العلوم

م ١٩٣٤

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

المدير
ابو الفتح الفقى

رئيس التحرير
محمد على مصطفى



المراسلات تكون باسم مساعد التحرير

محمد مهدى علام
نادى دار العلوم
١١٤ شارع عماد الدين . القاهرة

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	لغير الطلبة	٢٠ قرشا
	للطلبة	١٢ »
	لمدرسى المدارس الأولية	١٢ »
خارج القطر		٥ شلنات انجليزية
ثمن العدد		٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر
بالخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

UNIV. BIBL. TÜBINGEN
15
ZE 83

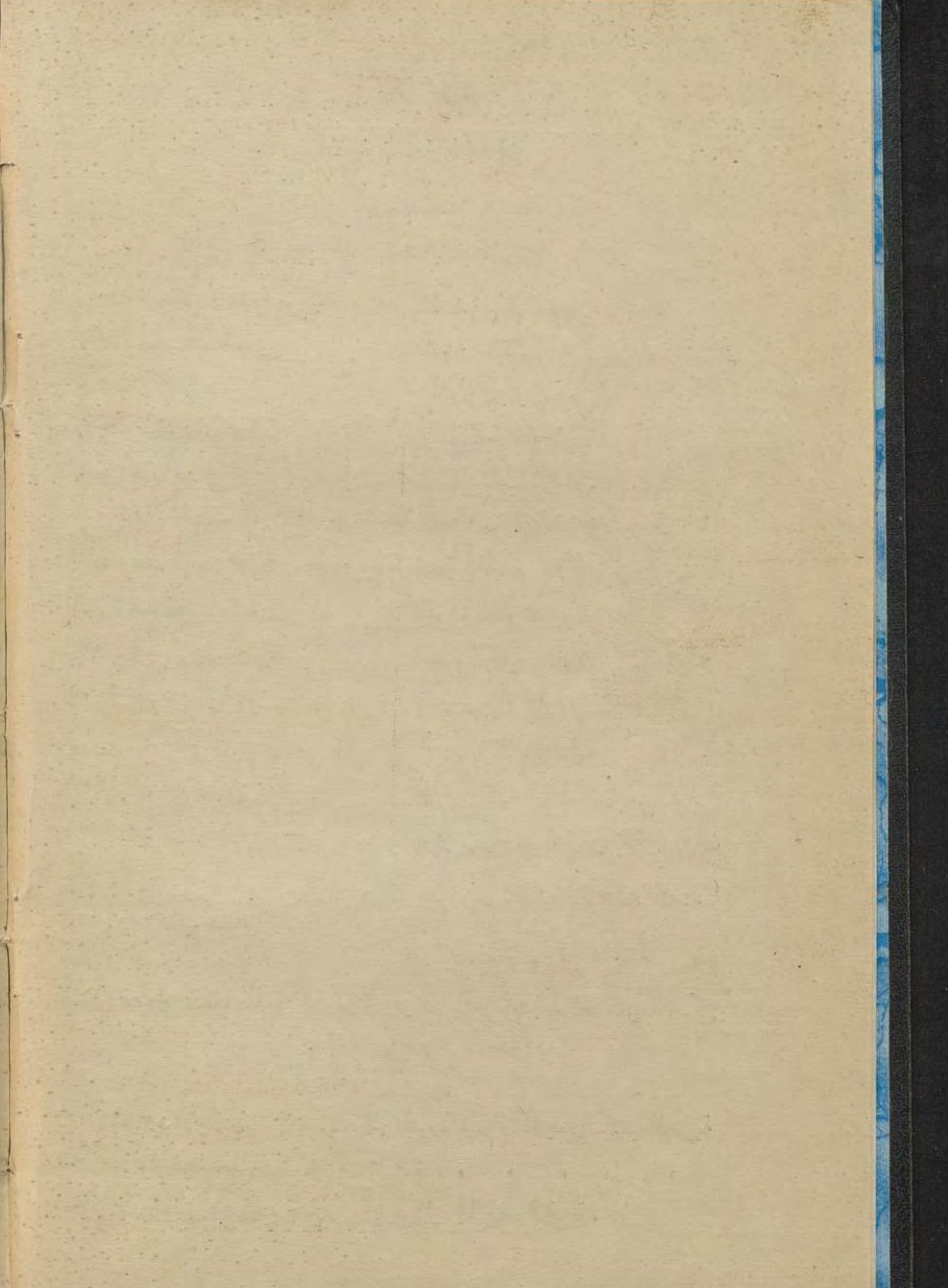
أعضاء لجنة الصحيفة

حضرات الأساتذة

الاسم	الوظيفة
(١) السباعى السباعى بيومى	المدرس بدار العلوم
(٢) حامد عبد القادر	مدرس بكلية أصول الدين والجامعة المصرية
(٣) زكى المهندس	المدرس بدار العلوم
(٤) صالح هاشم عطيه	وكيل كلية اللغة العربية
(٥) طه أحمد إبراهيم	المدرس بكلية الآداب
(٦) عبد الحميد حسن	المفتش بوزارة المعارف
(٧) عبد الرحيم محمود	المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية
(٨) عبد المغنى المنشاوى	المدرس بدار العلوم
(٩) عبد الوهاب حمودة	المدرس بكلية الحقوق
(١٠) على عبد الواحد	المدرس بدار العلوم
(١١) محمد عطية الابراشى	المفتش بوزارة المعارف
(١٢) محمد على مصطفى	المفتش بوزارة المعارف (رئيس التحرير)
(١٣) محمد مهدى علام	عضو المكتب الفنى بوزارة المعارف (مساعد التحرير)
(١٤) محمد هاشم عطيه	المدرس بدار العلوم
(١٥) محمود محمد مصطفى	المدرس بكلية اللغة العربية
(١٦) مصطفى السقا	رئيس التحرير بمجمع اللغة العربية الملكى

معاونو مساعد التحرير

الاسم	الوظيفة
(١) ابراهيم الابيارى	المحرر بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية
(٢) عبد الحفيظ شلبى	» » » » » »
(٣) عبد الخالق عبد المجيد عطيه	بوزارة الحربية والبحرية .



جماعة دار العلوم

فى السنتين الأوليين من حياتها

بقلم رئيس الجماعة الأستاذ «أبى الفتح الفقى»

تكونت جماعة دار العلوم فى يونيه سنة ١٩٣٣ اساسها حب وإخلاص، وعمل دائب، وتضحية بالوقت والمال، وإنكار للذات، وتفانى الفرد فى المجموع، وتضامن وتعاضد، وعطف الشيوخ على الشباب، وتقدير الشباب للشيوخ. على هذا الدستور قامت الجماعة، حتى أصبح شعاراً لكل فرد من أفرادها، بل عقيدة لكل أعضائها، وهذا توفيق من الله، ونعمة تتجلى فى أحسن صورها، وأبهى مظاهرها. وهى تبتدىء عامها الثالث فى يونيه سنه ١٩٣٥ وهى تكافح وتجالد، وتناضل وتجاهد، ثابتة القدم، قوية العزيمة، صادقة الارادة، موحدة الكلمة، حثيثة الخطا إلى تحقيق أغراضها، وأداء رسالتها التى تؤمن بها، وهى خدمة اللغة العربية وآدابها، والتربية والأخلاق، والثقافة العربية.

وسنأتى على ماقامت به فروع الجماعة فى عاميها الماضيين المباركين فنقول:

(١) الصحيفة: هى دعامة نهضتنا، ومرآة أعمالنا، ومظهر حياتنا، وسجل إنتاجنا، وميزان تقديرنا؛ لهذا جعلناها باكورة أعمالنا، فظهر الجزء الأول من سنتها الأولى فى يونيه سنة ١٩٣٤، مصدراً بكلمة منا جاء فيها: «وها هى ذى صحيفة دار العلوم نقدمها للقراء واثقين بمعاونتهم لنا على رفعها إلى المستوى اللائق بهم. نخرج هذه الصحيفة وثقتنا بدوام إصدارها تملأ صدورنا، غير مكترثين لما عسى أن يقال عن الاخفاق فى الماضى، لأن الاخفاق ليس عاراً، وإنما العار أن نرضى بالاخفاق، ولا نبغى عنه تحولا.

وإن نهوض الجماعات بله الأمم ، أثر لصيحات تنبه الغافلين ، وتوقظ الخاملين ، وصيحتنا اليوم وليدة إرادة قوية ، وعزيمة صادقة على تخليد صحيفتنا ، وقد تحقق — والحمد لله — أملنا ، وصدقت فراستنا ، فلبى نداءنا جميع أبناء دار العلوم . وأقبل كل يساعد بقلمه وقلبه وماله فى إخراج الصحيفة ، والعمل على نشرها ، والتدرج بها فى مدارج الرقى ، حتى أقبل الزعماء والعظماء وجمهرة المتأدبين على قراءتها ، والاشتراك فيها ، كما قررتها وزارة المعارف والأوقاف الملكية ومجالس المديريات فى مدارسها ، على اختلاف درجاتها ، وتلك نعمة استقبلناها بالشكر والاغتباط ، ومضاعفة الجهد ، فى دقة البحوث ، واختيار أنضر الأزهار وأنضج الثمار ، حتى أصبحت قمينة بالانتساب إلى أبناء دار العلوم ، جديرة بثقافتهم ، على أن عنايتنا بالمظهر العلمى لم تفوت علينا العناية بزيادة حجمها ، حتى أصبح كل جزء منها كتاباً قيما فى مجموعة من العلوم ، بل أصبحت بحق « مجلة الأدب والتربية والأخلاق والاجتماع » ، كما هو شعارها .

وقد بلغ عدد صفحات الجزء الأخير من السنة الأولى خمسين ومائتى صفحة على أن الجزء الأول لم يزد على أربع وثلاثين ومئة صفحة ، وفى طيات هذا التقدم ما يعجزنا عن إيفاء لجنة الصحيفة حقها من الثناء والتقدير.

(ب) النادى : إنشاء النادى فكرة تملكت النفوس الحساسة من أبناء دار العلوم ، وشغلت أفكارهم عامة ، وشبابهم خاصة ، والشباب فى كل أمة وطائفة مصدر النهضات ، وقوام الجماعات ، ومثير العزائم ، وموقظ الهمم ، وباعث الارادات ، وقد زاد فى الاغرام بانشاء النادى ، والحماسة فى إحيائه ، ذكريات ناديهم الأول ، تلك الذكريات التى كانت تثيرها المناسبات ، وتبعثها التطورات الاجتماعية ، وما تبعها من بحوث لغوية وأدبية وعلمية كشفت عن آثار ناديهم القديم ، الذى أسس سنه ١٩٠٧

وكان مصدر الحركة العلمية اللغوية الحديثة ، تلك الحركة التى اشترك فيها مع فطاحل أبناء الدار أعلام اللغة والأدب فى ذلك الوقت ، وعلى رأسهم المرحوم « فتحى زغلول باشا » للبحث فى حال اللغة العربية ، ووضع منهاج تسير على وفقه فى التعريب والترجمة . وقد أسفرت تلك البحوث عن وضع قواعد دلت على حصافة أبناء الدار ، وتملكهم ناصية اللغة والأدب ، ولا أدل على ذلك من أن مجمع اللغة العربية الملكى لم يحد عنها فى قراراته التى قرر السير عليها فى التعريب ، بعد أن مضى على قرارات النادى مايقرب من جيل ، وهاك نصوص القرارات .

قرار نادى دار العلوم

فى الساعة العاشرة من مساء الخميس العشرين من فبراير سنة ١٩٠٨ بعد سماع ماقاله الخطباء فى موضوع تسمية المسميات الحديثة ، قرر نادى دار العلوم أن يكون العمل على النحو الآتى :

يبحث فى اللغة العربية عن أسماء للمسميات الحديثة ، بأية طريقة من الطرق الجائزة فى اللغة ، فاذا تعذر ذلك بعد البحث الشديد ، يستعار اللفظ الأجنبى بعد صقله ووضعه على مناهج العربية ، ويستعمل فى اللغة الفصحى بعد أن يعتمده المجمع اللغوى الذى يؤلف لهذا الغرض » .

وهذا القرار يشمل قرارى التعريب والمولد من قرارات المجمع وهما :

قرار المجمع اللغوى فى المعرب

« يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ لأعجمية ـ عند الضرورة ـ على طريقة العرب فى تعريبهم » .

قرار المجمع اللغوى فى المولد

المولد هو اللفظ الذى استعمله المولدون على غير استعمال العرب ، وهو قسمان :

١ قسم جروا فيه على أقيسة كلام العرب : من مجاز ، أو اشتقاق ، أو نحوهما ، كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك. وحكمه أنه عربى سائغ.

٢ وقسم خرجوا فيه عن أقيسة كلام العرب : إما باستعمال لفظ أعجمى لم تعربه العرب ، وقد أصدر المجمع فى شأن هذا النوع قراره . وإما بتحريف فى اللفظ أو فى الدلالة لا يمكن معه التخريج على وجه صحيح . وإما بوضع اللفظ ارتجالا .

والمجمع لايجيز النوعين الأخيرين فى فصيح الكلام .

لهذا كان لزاما أن نبيِّن أن أبناء دار العلوم وإن كانوا قد تآزروا على إنشاء ناد يجمع شتاتهم ، ويوحد كلمتهم ، ويكون صلة التعارف بين قديمهم وحديثهم ، كبيرهم وصغيرهم ، ومكان لهوهم البرىء ، وسمرهم الظريف ، وتندرهم وفكاهتهم . فإن هناك غرضا أسمى ، ومقصدا أعلى ، وهو أن يكون مجمعاً علمياً أدبياً ، يتصدر بفضل الله وتعاضد أعضائه الحركة الأدبية واللغوية والتثقيفية فى مصر ، بل فى الشرق العربى ، وها هو ذا (تحقيقاً لهذه الأغراض) قد أعد حجراته لاجتماع لجان الجماعة وشعبها العلمية المختلفة ، كما نظم محاضرات الجماعة العامة التى تلقى فى مدرج دار العلوم : حفظاً للصلة بين الأم وأبنائها . وقد بدأت هذه المحاضرات منذ شهرين ، وستلقى ثلاث محاضرات فى هذا الشهر .

وإذا كان فى أيام كل شخص أيام سعادة ، وكانت لى فى حياتى أيام سعادة ، ومناظر سارة أخاذة ، فإن أسعد أيامى بلا مراء ، وأسر منظر سرى فى نفسى ، نخامر شغاف قلبى ، هو يوم عيد الأضحى : يوم افتتاح نادى دار العلوم الثانى ، إذ تسابق أبناء الدار على اختلاف طبقاتهم ،

وتباين أسنانهم ، ليجمعوا بين عيدين : عيد الأضحى وعيد افتتاح ناديهم ، حتى ازدحمت حجرات النادى ، على رحبها ، وكثرتها بهم ، وكان منظرا رائعا تتجلى فيه « ديموقراطية » العلم الصحيح ، تجمع بين الأستاذ وتلميذه ، والابن وأبيه ، والرئيس والمرءوس ، بل بعبارة أدق تجمع بين فرحة الأمل المحقق ، وغبطة المستقبل المرجو ، وكلهم فى ناديهم زملاء متحابون .

ماعرفت فى غير تلك اللحظات أن السرور يرسل الدموع ، وأن الفرح يبعث الخشوع ، حتى وجدتنى فى مكان قصى منفرد ، ساجدا لله شكرا على هذا التوفيق العظيم .

اللجنة العلمية : شرف المهنة فى شعور أفرادها بواجبهم نحوها ، ورقيها بتآزرهم على خدمتها ، وتقديسهم لحقها . وقد كان هذا الشعور سمة أبناء دار العلوم الذين اضطلعوا بأعباء لغة الضاد أكثر من نصف قرن ، شعورا بالواجب للغتهم ، وتوفرا على العمل ، ففى كل طبقة ابتكار وابتداع ، وانتاج وإثمار . وليس ذلك فى حاجة إلى دليل . وكان من أهم أغراض الجماعة منذ التأم شملها ، تأليف لجنة علمية جمعت أعلامهم ، لتوحيد جهودهم الكثيرة المفرقة .

١ — وقد بدأت هذه اللجنة عملها بقراءة القاموس المحيط للفيروزابادى لاستخراج ما فيه من ألفاظ تتعلق بشؤون الحياة العامة ، ثم بالفنون والصناعات ، لاحلالها محل الألفاظ الدخيلة والعامية ، التى يعبر بها فى الأغراض الجديدة ، وقد سارت اللجنة فى هذا المضمار خطوات موفقة وسينشر فى الأجزاء التالية من الصحيفة بعض ما اهتدت إليه من الألفاظ التى تزيد فى ثروة اللغة الفصيحة المنتشرة على الأقلام والألسنة .

٢ — ومن مقاصد هذه اللجنة العمل على إخراج كتاب الذخيرة لابن بسام ، وهو من أمهات كتب الأدب ، ولم يسبق طبعه لا فى مصر ولا فى الخارج . وبعد أن فحصت عنه اللجنة الخاصة ، رفعت مذكرة لمجلس

الادارة ، رجاء طبعه على نفقة الجماعة ، وقد وافق المجلس على ذلك ، وأخذت اللجنة فى تهيئة الجزء الأول للطبع ، معتمدة فى عملها على النسخة الخطية التى بدار الكتب المصرية .

٣ ــ قدم إلى هذه اللجنة الأستاذ محمود مصطفى الأستاذ بكلية اللغة العربية وعضو اللجنة كتابا من تأليفه ، اسمه « كتاب الأعلام » وبعد أن راجعته لجنة علمية ، رفعت تقريرها عنه إلى مجلس الادارة ، فقرر طبعه على نفقة الجماعة ، وقد أخذ فى طبعه فعلا .

هذه خلاصة وجيزة لأعمال اللجنة العلمية ، وهى باكورة تبشر بتوفيق عظيم فى تحقيق الأغراض التى وقفنا أنفسنا على خدمتها .

أعمال الجماعة لتحقيق أغراضها المادية : أدلت الجماعة عند تكوينها لحضرات مكاتبى الصحف بأغراضها، وأوضحت أن الأغراض الجوهرية للجماعة هى الأغراض العلمية والأدبية والاجتماعية ، وأن الغرض المادى غرض ثانوى ، على أن ثانويته لا تقضى بتركه أو إهماله ، وإنما يعاضده ويحققه تقدير الرأى العام وأولى الأمر لما تقوم به الجماعة من الأعمال العلمية ، وما تحققه من أغراضها الجوهرية . وقد سرنا على خطتنا وصدق تقديرنا ، فبعد أن مضى على تكوين الجماعة قرابة عامين أسندت مقاليد وزارة المعارف إلى معالى الوزير أحمد نجيب الهلالى بك ، فتقدمت الجماعة بمطالب أفرادها إليه ، لإزالة ما حاق بهم من ظلم مزمن ، فقابل ظلامتهم بقبول حسن ، وعطف على مطالبهم أشرف عطف ، وأثنى - لوفدهم - أجل الثناء على جهودهم المثمرة ، ووراءه أن يقضى بعض نوابغهم ربع قرن فى الدرجة السادسة . ثم توالت وفود أبناء الدار بتقديم ظلاماتها لمعاليه ، وعلى رأسهم أعضاء مجلس الادارة - فوفد التعليم الحر - والموظفين الكتابيين ، ومدرسى مجالس المديريات ، وقد كان معالى الوزير يقابل كل

هذه الوفود برحابة صدر ، وعظيم تقدير لما حل بهم من غبن ، وحاق بهم من حيف ، وانصب عليهم من ظلم . وقد حقق كثيرا من مطالبهم ، ووعد بتحقيق ما يمكن تحقيقه . ثم توج مآثره باختيار رئيس الجماعة عضواً فى لجنة القدر (الكدر) .

ومن الجلى أنه لم يختره لشخصه أو منصبه ، وإنما اختاره لصفة واحدة ، هى أنه يمثل أبناء دار العلوم . وهذا لا شك أثر من آثار جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة ، واتفاق الغرض ، وقد عمل أعضاء اللجنة متعاونين مخلصين على تحقيق قرار معالى الوزير ، الذى أساسه المساواة بين جميع المعلمين ، والعمل على إنصافهم ، ورفعهم إلى الدرجة اللائقة بخدام العلم ، ومربى أبناء الأمة ، التى نعتز بعزتها .

هذه خلاصة أعمال الجماعة فى سنتيها الأوليين ، أختمها بنداء حار ، أوجهه إلى مربى العاطفة ، ومهذبى الأخلاق ، ومتعهدى الوجدان ، أن اعملوا على النهوض بأنفسكم ؛ والسمو بأقداركم ، والاحتفاظ بمنزلتكم ، والمطالبة الدائبة الرشيدة المترفعة بحقوقكم ، وليس لذلك من سبيل إلا سبيل واحدة ، هى المحافظه على جماعتكم ، ولا محافظة عليها إلا بأن يفنى الفرد فى خدمة المجموع ، وأن ينسى نفسه فى ميدان الجهاد ، ولنذكر هذه الكلمة الحكيمة (ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط) .

أما الرياسة فهى تكليف يجب أن يوزع ، وتشريف يجب أن يقتسم ، وقيادة تصدق عليها كلمة نابليون : إن كل جندى يحمل فى حقيبته عصا القيادة . ويسرنى أن أقول إن كل واحد منكم يجمع فى نفسه مؤهلات الرياسة . فليتقدم إليها فى يوم ١٥ يونيو سنة ١٩٣٥ وأنا أعاهده على أن أكون كما كان خالد بن الوليد أخلص الجنود لأبى عبيدة عامر بن الجراح . ألا قد بلغت . اللهم اشهد . والسلام عليكم ورحمة الله .

أبو الفتح الفقى

التقـــديم

بقلم الأستاذ محمد على مصطفى

المفتش بوزارة المعارف ، ورئيس تحرير الصحيفة

جرى العرف الصحفى أن يكون لرئيس التحرير كلمة التقديم ، وأن تنشر تلك الكلمة — مهما كانت قيمتها — فى صدر الصحيفة التى يشرف على إصدارها ، وما كنت أعتقد أن صحيفة دار العلوم فى حاجة إلى أن يقدمها إلى جمهور القراء أحد ، فانما يقدم المجهول الذى لاعلم للناس به ، وأغلب ظنى أن زملائى أعضاء لجنة التحرير يشاركوننى فى هذا الاعتقاد ، ولكنهم —لسبب لاأفهمه — ائتمروا فيما بينهم ، وفى جلسة لم أشهدها ، واجتمع رأيهم على أن يتركوا لى ولحضرة الأستاذ مدير الصحيفة الكراسة الأولى .

ووجد مدير الصحيفة ما يكتب — وعنده دائما مدد فياض لاينضب معينه ، من حلو الكلام ، وممتع الحديث ، وشائق الأخبار ؛ ولكنه أبى إلا أن يكون عادلا فى القسمة ، فاختص نفسه بنصف الكراسة ، وترك لى نصفها الآخر ، وفكرت فى الخلاص من هذا المأزق ، الذى دفعنى إليه زملائى دفعا لارحمة فيه ، ولا لين معه ، وانتابتنى نوبة من الشجاعة ، وتناولت القلم ، أوخيل إلى أن القلم جرى إلى بنانى ، وقدم فروض الطاعة .

والآن ماذا أكتب ؟ وما البضاعة الجديدة التى أستطيع أن أعرضها على جمهرة القراء ؟ ليس عندى جديد ، ولكننى سأكرر وأعيد ، فقد ما قال الناس قد يحلو المكرر ، ويلذ المعاد .

ويذكرني موقفي هذا موقف أستاذ من أساتذتنا الأجلاء، الذين كنا نتلقى عنهم علوم التربية بانجلترا، فقد دعي مرة من قبل جماعة علمية محترمة، لها اهتمام بالحركة التعليمية في البلاد الانجليزية أن يلقي محاضرة في موضوع يهم المعلمين خاصة، والمشتغلين بشؤون التربية عامة، فلبى الدعوة، وسمع بهذه المحاضرة خلق كثير، فنفروا لاستماعها جماعات، واجتمع بمدرج المحاضرات مئات من المعلمين، الذين كانوا يمثلون مراحل التعليم المختلفة في البلاد، وغيرهم من طلاب العلم، والباحثين عن الحقيقة حبا فيها. وافتتح المحاضر كلامه بقوله ما ترجمته «أنصح الذين كلفوا أنفسهم مشقة الحضور إلى هذا المكان ليسمعوا نظرية جديدة، أو رأيا لم يسبقني إليه أحد، أن يتركوا أماكنهم، ويذهبوا إلى ديارهم، فاني أخاف عليهم لوعة اليأس، ومضض الانتظار، ومرارة الخيبة».

وأنا لابد أن أكتب، ولكني لن أسجع في القول، ولن أنمق الكلام، ولن ألجأ إلى الزخرف فيه، ولن أهيم في أودية الخيال. سأكون صريحا إلى أبعد حدود الصراحة، وسأكون منطقيا، أرتب المقدمات، وأستخلص منها النتائج، وسأرى الواقع في لونه الطبيعي، مجردا من كل صناعة.

أمامي وأنا أكتب هذه الكلمة الأجزاء الأربعة التي صدرت في العام الأول من حياة الصحيفة، يتردد فيها بصري، فينتقل من جزء إلى جزء، فأشاهد صورة رائعة من صور النمو والتدرج في مدارج الكمال، ومثلا عاليا مما ينتجه الاخلاص في العمل، والرغبة في إتقانه، والتعاون في القيام به، وما كنت أحسب ونحن نعالج إصدار الجزء الأول أن الصحيفة ستصل إلى هذا المستوى في مثل هذا الأجل القصير، فشكرا لله على توفيقه، وليهنىء أبناء دار العلوم تضافرهم، واتجاه رغباتهم جميعا نحو غرض واحد ـ هو خدمة اللغة والبلاد، بتقويم ما التوى من الألسنة، وتصفية الألفاظ

والأساليب مما شابها من عجمة ، ونشر الآداب العربية قوية صافية ، تفيض على القراء الحياة جديدة فتية ، ويتجلى لهم فيها ألوان الجمال فى العالم ، وتبعث فى الجيل الحاضر والأجيال المتتابعة - إن شاء الله - روحا طاهرة زكية باصلاح المعوج من شئون التعليم ، بما تذيع من نظريات التربية ، وأساليب التدريس ، ومبادىء الاجتماع .

تصفح الجزء الأول من الصحيفة ، ثم انتقل منه إلى الثانى والثالث والرابع ، تدرك مبلغ ذلك التضافر بين أبناء دار العلوم على اختلاف أقدارهم ، فهذا مقال طالب لا يزال بعد بين جدران المدرسة ، يرشف العلم من ذلك المعين العذب ، فان تقرأه تجد فيه الفتاء والقوة والطموح والآمال العذاب ، وأحلام الشباب ، وذاك مقال شيخ فى الستين من العمر أو يزيد ، يمتزج فيه النشاط بحكمة الدهر ، وتجربة العمر ، والفكر الصائب ، والرأى السديد ، وهنا فضل ممتع فى فنون الشعر التى تناولها الملك الضليل ، حامل لواء الشعراء وزعيمهم فى العصر الخوالى ، وهناك تحقيق تاريخى يتجلى فيه طابع أشياخ دار العلوم رواد العلم والأمناء على الحقيقة . وبعده باب فيما استحدث أهل الجيل من مذاهب الأدب تظهر فيه استقامة الفكر وسلامة الذوق ، وقوة الحجة ، وبلاغة العبارة ، والتمكن من صناعة الكتابة ، وبجانبه قصيدة جاش بها صدر شاعر ، فجرت على لسانه حكمة خالدة ، ومثلا سائرا ، ووحيا صادقا ، وعاطفة شريفة . وهناك أغنية مرحة من أغانى الربيع ، أرسلها قلب كبير ملىء بالجميل من اللحن ، يرى من فنون الجمال فى هذا الوجود ما لا يراه شيخ أثقلت ظهره أعباء الحياة ، وذلك فصل دبجته يراعة تصدر فيما تكتب عن عقل راجح متزن ، عالم بشئون التربية ، بصير بمشاكلها ، خبير بكل جديد فيها ، يعلمه ويرى أبين من رأى العين وجوه تطبيقه فى بلادنا المصرية .

هذه صحيفة دار العلوم، وتلك صورة مجملة لما، تحويه: فلا غرابة بعد هذا أن قدرها الناس قدرها، وأنزلوها منزلة رفيعة، وتعلقت بها قلوبهم، وكثر طلبهم إياها فى كل مكان، وتخطفتها الأيدى، حتى نفدت الآلاف التى طبعناها من أجزائها، واضطررنا إلى أن نضاعف العدد الذى تطبعه، إجابة لرغبة جمهور القارئين، وتلبية لنداء أهل العلم، ورجال الأدب وسواهم من المولعين بكل جديد، مما تنتج العقول الحصيفة الجبارة.

دخلت الصحيفة فى عامها الثانى، وستظل حريصة على خطتها، مستمسكة بديدنها، محافظة على المنهج الذى فصلناه فى الجزء الأول من أجزائها، أمينة على ماحملت، لا تحيد عن الحق قيد شعرة، فلا تجامل فيه أحداً، وإن علا مقامه، وعظم نفوذه.

وهأنذا أقدم هذا الجزء كما قدمت سواه فى غير ضجة ولا صخب، ولكن فى هدوء واطمئنان وثقة، مؤمناً بقول الله تعالى «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال».

محمد على مصطفى

شكر وتقدير

أرى لزاما علىّ - رئيسا لهـذه الجماعة - أن أنوه بالجهود الأدبية التى يبذلها شباب جماعة دار العلوم، فى سبيل الجماعة وصحيفتها وناديها، فأسجل الشكر الجزيل لـكل من يعاونوننـا بالعمل فى فروع الجماعة بصبر وعزيمة لايعتريها السأم. أسجل الشكر لهؤلاء الشبان الـكرام، وأخص بالذكر منهم هذه الشعبة التى قامت على إخراج الجزء الأول من السنة الثانية من صحيفتنا، وهم الأساتذة :

مصطفى السقا : رئيس التحرير بمجمع اللغة العربية الملـكى.

ابراهيم الابيارى : المحرر بالقسم الأدبى بدار الـكتب المصرية

عبد الحفيظ شلبى : » » » » » »

فعلى أيدى هؤلاء وأمثالهم من الأعوان المخلصين – وهم والحمد لله كثير – تبلغ الصحيفة نهاية ما يرجى لها من الرقى شكلا وموضوعا، حتى تعبر أصدق تعبير عن كفاية هذه الجماعة ونشاطها، واستعدادها لنشر الثقافة العلمية والأدبية، فى أعذب مناهلها، وأصفى مواردها.

أبو الفتح الفقى

أسلوب القرآن فى المحاجة والجدل وخطابة أرسطو

للأستاذ عبد الوهاب حموده

المدرس بكلية الحقوق



النصرانية فى بلاد العرب

(١) النصرانية دين من الأديان التى كانت قبل الاسلام ببلاد العرب ، وهذه اللفظة كما تدل على الدين تكون واحدة النصارى ، ومفردهم نصران منسوب – على رأى اللغويين – إلى بلدة الناصرة ، كان ينزلها عيسى عليه السلام . فنسب إليها فقيل : عيسى الناصرى[١] . والناصرة تتبع مدينة داود المعروفة ببيت لحم .

والذى جاء بهذه الديانة فى ثوبها الصحيح هو عيسى عليه السلام ، وقد ذكر اسمه فى القرآن بلفظ المسيح تارة وهو لقب له ، وبلفظ عيسى وهو اسمه العلمى ، وبكنيته ابن مريم تارة أخرى . أما لقبه فيقول بعض اللغويين إنما لقب به لكونه ماسحا فى الأرض ، أى ذاهبا فيها . ولكن الرأى الأقرب الى الصواب أن هذه الكلمة مأخوذة من الكلمة العبرية مشيح ، بمعنى ممسوح بالدهن ، أى مدهون ، فعرب فقيل مسيح . وأما عيسى فهو معرب عن العبرية ، وهو فيها يشوع ، أى المخلص ، اشارة الى أنه سبب لتخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم[٢]

(٢) دخلت النصرانية بلاد العرب قبل الاسلام بأكثر من خمسة قرون ، إما فرارا من الاضطهادات الدينية .

---

(١) القاموس والصحاح وتفسير القرطبى ح ١ .

(٢) قصص الأنبياء للاستاذ النجار .

قال جول لابوم : « أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئا فشيئا الى بلاد العرب ، هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى مملكة الرومانيين ، ولكن لم يكن فى حالهم نور يجذب البصر تألقه » (١) .

وقال جورج سيل : « ان ما ألمّ بالكنيسة الشرقية من الاضطهادات والاضطرابات فى صدر المئة الثالثة للميلاد قد اضطر الكثيرين من النصارى الى أن يلجئوا الى بلاد العرب طلبا للحرية » (٢) .

وإما عن طريق أولئك المبشرين الذين كانوا يجوبون بلاد العرب ويجوسون خلال نجودها وتهامها (٣) . جاء فى تاريخ الكنيسة « وكانت صحارى سورية والبلاد العربية مملوءة بالرهبان دعاة المسيحية فى القرن الرابع » (٤) . وقال مرجليوث : « وكان القسوس يغشون أسواقهم العامرة ، ومجتمعاتهم الحافلة ، ليسمعوهم وعظهم وتعاليمهم (٥) » .

ثم ألم يرو الرواة فى كتب الأدب أن قس بن ساعدة الإيادى أسقف نجران كان يغشى سوق عكاظ ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على جمل أورق يخطب خطبته الوعظية المشهورة . ومرجليوث يرى ان اسمه محرف عن (Kasha) . كشا باللغة السريانية بمعنى قس (٦) .

ويذكرون أيضا فى سبب تنصر أهل نجران أن رجلا يقال له فيمون وقع بين أظهرهم ، وكان رجلا صالحا زاهدا من أهل دين عيسى بن مريم ، فحمل أهلها على المسيحية (٧) .

---

(١) ص ١١٨ مقدمة التفسير للعلامة فريد وجدى .
(٢) ص ١٧ من مقدمة ترجمة القرآن لسيل .
(٣) ص ٢٧ من كتاب انتشار الاسلام لولسون كاش ، ص ٣١ فجر الاسلام .
(٤) ص ١٩٩ من كتاب تاريخ الكنيسة .
(٥) ص ٤٣ كتاب محمد لمرجليوث .
(٦) ص ٤٣ كتاب محمد لمرجليوث .
(٧) ص ٣٠ الروض الأنف ج ١

وإما عن طريق التجارة ، فكان تبادل السلع يصحبه تبادل الأفكار والمذاهب ، كما حدث ذلك فى نقل عبادة الأصنام إلى بلاد الحجاز مما سنفصله فى حينه (١) .

(٣) دخلت النصرانية بلاد العرب وقد فسدت أصولها ، وتشعبت مذاهبها ، والتوت تعاليمها ، وكثرت طقوسها ، فنكب بها أهلها عن سواء السبيل . (٢)

فانقسمت المسيحية فرقا وكنائس . أهم تلك الفرق ثلاث : النسطورية واليعقوبية والملكانية .

منشأ هذا الخلاف أن النصرانية هى إحدى الديانات التى ولدت فى الشرق ، وانتشرت فى الامبراطورية الرومانية — معهد الثقافة اليونانية — وحينئذ فهى إما أن تطغى على الفلسفة اليونانية وتكتسح أمامها جميع المذاهب الفلسفية ، وإما أن تتودد إليها وتتخذ منها سندا فى تأييد عقائدها الدينية ؛ فكان أن اتخذت لنفسها الطريق الثانى ، لأن كثيرا ممن اعتنقوا ذلك الدين كانوا فلاسفة قبل أن يكونوا مسيحيين . وبذلك أخذت الفلسفة اليونانية تدخل فى المسائل الدينية ، كتحديد ماهية الله وكنهه وطبيعة المسيح وأإله هو أم انسان اختير لتبليغ رسالة الله الى خلقه وغير ذلك من المسائل الفلسفية التى امتزجت بأصول النصرانية ولا سيما مسألة التثليث ، وأول من أثار الكلام فيها أوريجين (١٨٥ — ٢٥٤ م) .

وكانت مدرسة الاسكندرية — وهى قد ظهرت فى أواخر القرن الثانى للميلاد — أول معهد اتصلت فيه الفلسفة اليونانية بالديانة المسيحية (٣) ، ثم امتدت موجة النزاع والجدال وظهور البدع فكثرت المجامع العامة أو المسكونية ، كما

---

(١) ص ٣٧ انتشار الاسلام لولسون كاش .

(٢) ص ١٥ مجلة الجامعة المصرية القديمة محاضرات الحضارة الاسلامية لجويدى ، ص ١١٨ و ٢٢١ و ٣٢٥ من كتاب تاريخ الكنيسة طبعة أورشليم ، ص ٢٨ من المحمدية والمسيحية ، جورج هويك .

(٣) ص ١٦٣ و ١٧٤ و ١٧٥ تاريخ الفلسفة للأستاذين محمد على مصطفى وأحمد عبده خير الدين

يسمونها. فمن تلك المجامع، المجمع الثالث: وسببه أن نسطورس بطرك[١] القسطنطينية فى سنة (٤٢٨ م) - وقد تخرج فى قاليقلا (كليكيا) على يد ثيودوروس زعيم جماعة من اللاهوتيين أفرغوا الوسع فى تنزيل الكتاب المقدس الى درجة العقل البشرى حيث اعتبروه خاضعا للانتقاد والتأويل اللغوى — اعترض على تلقيب مريم بوالدة الإله — ذلك اللقب الذى جعله البعض ذريعة إلى الافراط فى احترام العذراء وإكرامها — وقال: إنما ينبغى أن تدعى والدة المسيح فقط، وأن اطلاق الإله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة والكرامة. وقال فى خطبته يوم الميلاد: «إن مريم ولدت إنسانا، وأنا لا أعتقد فى ابن شهرين وثلاثة الألوهية ولا أسجد له سجودى للإله. وكان كيرلس بطرك الاسكندرية شكس الخلق مملوءا غيرة وحسدا، من تقدم كرسى القسطنطينية على كرسيه، فاتخذ تعاليم نسطورس ذريعة إلى مبتغاه، وجعل يحرض عليه كثيرين فى القسطنطينية والمشرق وفى رومية وسائر المغرب، فكتبوا جميعهم إلى نسطورس ليرجع عن مقالته فلم يرجع، فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينة أفسس، فاجتمع بها مائتا أسقف وامتنع نسطورس من المجىء إليهم، وشد السريان وأهالى أنطاكية عضده. وهذا هو المجمع الثالث، وكان انعقاده فى سنة (٤٣١ م) فنظروا فى مقالته وحكموا عليه بالحرمان والنفى. فنفى نسطورس إلى صعيد مصر، فنزل مدينة أخميم وأقام بها سبع سنين ومات فدفن بها. وظهرت مقالته فقبلها برسوما أسقف نصيبين، ودان بها نصارى فارس والعراق والموصل والجزيرة إلى الفرات وعرفوا بالنسطورية.

ثم كان المجمع بمدينة خليقدونية — الواقعة على البوسفور قبالة القسطنطينية — لكى يتسنى للملك حضوره، وكان انعقاده فى سنة (٤٥١ م)، وكان مؤلفا من ستمئة أسقف من أساقفة المشرق، وسببه أن ديسقورس بطرك الاسكندرية قال:

---

(١) لا بطريق كما يقول بعضهم، لأن البطريق هو القائد من قواد الروم، فهو منصب سياسى. أما البطرك أو البطريرك فهو منصب دينى. (انظر القاموس وكتاب الألفاظ المعربة للسيد أدى شير. وشفاء الغليل للخفاجى. ومحاضرات الحضارة الاسلامية للمرحوم زكى باشا)

إن المسيح جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين، وطبيعة من طبيعتين، ومشيئة من مشيئتين . وكان رأى مرقيانوس ملك الروم أنه جسد ، ورأى أهل مملكته أنه جوهران وطبيعتان ومشيئتان وأقنوم واحد . فلما رأى الأساقفة أن هذا هو رأى الملك خافوه فوافقوه على رأيه ، ماخلا ديسقورس وستة أساقفة فانهم لم يوافقوا الملك ، وكتب من عداهم من الأساقفة بخطهم ما اتفقوا عليه . فغضب الملك على ديسقورس وأمر بنفيه فنفى . ومن هذا المجمع افترق النصارى وصاروا ملكانية على مذهب الملك مرقيانوس ، ويعقوبية على رأى ديسقورس . وقد اختلف فى تسمية اليعاقبة بهذا فقيل : إن ديسقورس كان يسمى قبل بطركيته يعقوب . وقيل: بل كان له تلميذ اسمه يعقوب ، وكان يرسله وهو منفى إلى أصحابه فنسبوا إليه[١] . وقيل : بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية ، وكان على رأى ديسقورس كثير العبادة والزهد يلبس خرق البراذع ، فسمى يعقوب البراذعى أو البرذعانى[٢] .

فاليعاقبة فى غسان وسائر قبائل الشام ، والنساطرة فى الموصل والعراق ، وفارس ، والملكانية فى بلاد المغرب وصقلية والأندلس[٣] .

(٤) كانت النصرانية اذن منتشرة على حدود الحجاز من مشارف الشام والجزيرة وسواحل الخليج الفارسى واليمن .

وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيىء وقضاعة وأهل نجران والحيرة[٤] .

وأهم المواطن لتلك الديانة هى الشام والحيرة ونجران ، أما الشام فقد كان بها الغساسنة ، ومن ملوكهم الذين يذكرهم التاريخ فى تحقيق وثقة : الحارث بن جبلة

---

(١) ص ٢٥٧ الى ٢٦٤ تاريخ الكنيسة طبعة أورشليم ، ص ٣٨٧ - ٣٨٩ ج ٤ خطط المقريزى .

(٢) ص٤٨ الفصل لابن حزم، ص٣٨٩ ج ٤ الخطط المقريزية. ص٢١٦ شفاء الغليل.

(٣) ص١٤٩ فجر الاسلام للاستاذ احمد أمين، ص٦٦ روح الاسلام للامير سيد على .

(٤) ص ١٧ مقدمة ترجمة القرآن لسيل ، ٣٦ ، ٣٧ - ٣٨ محمد لمرجليوث ، ص ٢٠ المعارف لابن قتيبة .

المشهور بالأعرج ، وكان هذا الملك نصرانيا على مذهب اليعاقبة (١) .

وقد عينه الأمبراطور يوستنيان سنة (٥٢٩ م) أميرا على جميع قبائل العرب فى الشام ، وكان يعد حاميا من حماة كنيستها .

وآخر ملوكهم هو جبلة بن الأيهم ، وقد جاء الاسلام وهو على ملكه، وأسلم فى عهد عمر رضى الله عنه .

أما الحيرة فقد تنصر كثير من ملوكها ومذهبهم النسطورية . وكان فيها مبشرون بالمسيحية داعون إليها . وللعباد شأن فى ذلك، وهم فى الأصل قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فى الحيرة ، وكانوا كما يقول نيكلسون يبيعون الخمر ، وفى مجالس شربها يلقون تعاليمهم المسيحية ويبشرون بدياناتهم النصرانية . وهكذا لقنوا الأعشى وعدى بن زيد مبادئهم مما سنوضحه بعد (٢)

وأول من تنصر من ملوك الحيرة النعمان الثالث بن المنذر أبو قابوس . وهو صاحب النابغة الذبيانى ، فى القرن السادس ، لا كما قال دوزى . إنه المنذر بن ماء السماء ، فان هذا كان يعبد الأصنام ويذبح الذبائح للعزّى كسائر عرب الجاهلية (٣).

ويعزو نيكلسون هذا التنصر إلى تربية النعمان الأولى ، فقد كانت تربيته على يد أسرة نصرانية نبيلة فى الحيرة ، هى الأسرة التى على رأسها زيد أبو عدى الشاعر . فقد كان النعمان تلميذا لعدى يروى شعره ويصغى الى نصائحه ووعظه، مما سنذكر طرفا منه بعد (٤) .

وأبطا ملوك الحيرة فى التنصر لسبب ، وهو أن الأكاسرة الساسانية كانوا أعداء النصارى الروم ، ولما كانت مملكة الحيرة فى طاعة الأكاسرة خافوا أن يدينوا لملة تكرهها الساسانية ؛ هذا ما كان من أمر الملوك ، أما الشعب فالنصارى فيه كثيرون،

---

(١) ص ٥١ تاريخ آداب العرب نيكلسون ، ص ١٩٢ تاريخ العرب قبل الاسلام جورجى زيدان .

(٢) ص ١٣٩ نيكلسون تاريخ آداب العرب.

(٣) ص ١٠٨ محاضرات جويدى فى الجامعة المصرية القديمة .

(٤) ص ٤٥ - ٤٧ نيكلسون تاريخ آداب العرب ، ص ١٧١ ج ٢ ابن خلدون .

وكان فى الحيرة أسقف منذ أوائل القرن الخامس الميلادى ، والكنائس والأديرة بها كثيرة ، منها كنيسة بنتها هند بنت الحارث كتبت اسمها فى كتابة فوق الكنيسة .

وبموت النعمان الثالث أبى قابوس سنة (٦٠٢ أو ٦٠٧ م) الغت الحكومة الفارسية نظام امارة اللخميين، وولت من قبلها حاكما فارسيا يخضع له أمراء العرب واستمرت الحال على ذلك حتى سنة (٦٣٣ م) حين فتحها خالد بن الوليد فى عهد أبى بكر رضى الله عنه .

وأما نجران فهى أهم مواطن للنصرانية . وأكثر المؤرخين على أن أهل نجران قد حرقهم بالنار ذو نواس المتهود الشديد التعصب لليهودية حين دعاهم الى دينه فأبوا الا البقاء على دينهم المسيحية . وكان ملك ذى نواس فى اليمن فى أوائل القرن السادس للميلاد (١)

غير ان ما يرويه بعض المؤرخين من أن هؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين نزل فيهم قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) غير سديد ومشكل . لأن المقصود من هذه السورة تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن إيذاء الكفار ، وتثبيت قلوبهم وحملهم على الصبر والمجاهدة فى سبيله ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الايمان . وهذا لا يكون إلا اذا كان من نزل بهم ذلك العذاب مؤمنين موحدين كما تنص عليه الآية . مع انه ثابت ان أهل نجران كانوا على دين النصرانية وعلى مذهب اليعاقبة ، كما يفسر لنا ذلك إنجاد الحبشة لهم ، ومحاربتهم لليمن قصاصا من ذى نواس محرقهم .

ولحل هذا الاشكال يجيب الأستاذ الامام فى تفسيره (جزء عم) بأن المؤمنين كانوا نصارى نجران عند ما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة .

---

(١) ص ١٠٤ جويدى محاضرات الجامعة المصرية القديمة ، ص ٣٦ مرجليوث كتاب محمد ص ٢٧ نيكلسون تاريخ آداب العرب ، ٤٢ ترجمة القرآن رودويل ، ص ١٧ مقدمة ترجمة القرآن نسيل

وهذا عندى لا يحل الاشكال، لأنه من الروايات التاريخية - التى يكاد يكون مجمعا عليها - أن أهل نجران حين حرقهم ذو نُواس كانوا قد فسد دينهم وظهرت فيهم الاحداث والبدع التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض (١)، ولهذا ذهبوا يستنجدون بقيصر الروم - لأنه على دينهم - من اليعقوبية فاعتذر قيصر لبعد الشقة، وكتب الى ملك الحبشة فى ذلك. هذا وقد كان بنجران بِيعة تعرف بكعبة نجران بناها بنو عبدالمدان على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة للكعبة، وكان فيها أساقفة. وهم الذين جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم، ودعاهم إلى المباهلة فى السنة التاسعة من الهجرة.

ومن يرجع إلى مناقشتهم النبى يعلم مبلغ تعصبهم لدينهم وتمسكهم بكفرهم. وليس بين هذه المناقشة وتلك الحادثة - حادثة اضطهاد ذى نواس لهم - أكثر من مئة سنة، وبينها وبين تاريخ نزول السورة أقل من تسعين سنة.

والأفضل عندى هو ما أخرجه الترمذى ومسلم فى سبب نزول السورة. ومن أراد فليرجع اليه فى معجم البلدان لياقوت (فى كلمة نجران). وفى الألوسى فى تفسير السورة وفى الروض الأنف للسهيلى (ص ٣٤ ج ١).

ومهما يكن من شىء فان النصرانية دامت فى نجران حتى ذهب وفدهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة من الهجرة، فصالحهم على الجزية (٢)، ثم استمروا على دينهم إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأجلاهم عن نجران وذهب أكثرهم إلى العراق.

(٥) أما أثر النصرانية فى العرب قبل الاسلام فهو ضئيل من حيث العقيدة والبحوث اللاهوتية؛ وذلك لأن الديانة المسيحية فى صورتها التى استمدتها من الفلسفة اليونانية عسير فهمها على العقل العربى، صعب تمازجها بالذهن البدوى.

يقول دوزى: «وكانت مسيحية ذلك العصر فى عمومها - بما تحويه من الخوارق والأسرار، وما فيها من عقيدة التثليث، وما يتصل بذلك من إله مصلوب -

---

(١) ص ٣٠ ابن هشام على هامش الروض الأنف و ٣٢ كذلك.

(٢) ص ٧٢ زاد المعاد ج ٥ على هامش شرح المواهب اللدنية. ٤١ ج ٤ شرح المواهب

قليلة الجاذبية، يعز أن تسود فى شعب حسى كالشعب العربى (١) .

ويقول مرجليوث بصدد ضعف أثر المسيحية فى بلاد العرب : « من الحقائق المدهشة أن هؤلاء المسيحيين من الأعراب لهم قسوس ورهبان وكنائس وصوامع، وفيهم هراطقه ومبتدعون ، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن أن نستدل بما لدينا من المصادر على أن الكتب المقدسة أ كانت بأيدى العرب مترجمة إلى لغتهم الأصلية المحلية ، أم أن القساوسة اكتفوا بأن يكون لهم كتب دينية ، ثم يأخذون فى التعليم منها فى لغة يفهمها الأعراب . والأرجح عندى هو الرأى الثانى » (٢)

أما الذى يمكن أن يشاهد من الأثر بوضوح ويلمس فى جلاء ، فهو تأثر فريق منهم بالرهبنة ، والميل إلى الزهد ، وتذكر البعث والحساب والجنة والنار ، والميل إلى النظر فى الكون ، والاعتبار بحوادثه ؛ وقد كثر ذلك فى شعرهم حتى ليحس القارىء وهو يقرأ شعراً لشاعر ، كعدى بن زيد أو أمية بن أبى الصلت أو قس بن ساعدة أو الأعشى ، أنه يسمع نغمات تعاليم المسيح عليه السلام من التزهيد فى الدنيا والاستخفاف بنعيمها ، والاحتراس من غرورها ، وترقب الموت فيها .

ولنكتف هنا بمثال واحد شعرى لعدى بن زيد :

جاء فى الأغانى (ج ٢ ص ١٣٤ طبع دار الكتب المصرية) أن النعمان بن المنذر خرج يتنزه بظهر الحيرة ومعه عدى بن زيد ، فمر على المقابر من ظهر الحيرة ونهرها ، فقال له عدى ابن زيد : أبيت اللعن . أتدرى ماتقول هذه المقابر ؟ قال : لا ؛ فقال له : هى تقول :

أيها الركب المخبو ... ن على الأرض المجدون

كما أنتم كنا ... وكما نحن تكونون

ثم خرج خرجة أخرى فمر على تلك المقابر ومعه عدى ؛ فقال له : أبيت اللعن أتدرى ما تقول هذه المقابر ؟ قال لا ؛ قال : فانها تقول :

من رآنا فليحدث نفسه ... أنه موف على قرن زوال

وصروف الدهر لا يبقى لها ... ولما تأتى به صم الجبال

(١) ص ١١٧ مقدمة التفسير للعلامة فريد وجدى

(٢) ص ٣٥ كتاب محمد .

رب ركب قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليهـــا فدم وجياد الخيل تردى فى الجلال
عمروا دهراً بعيش حسن آمنى دهرهم غير عجـــال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم وكذاك الدهر يودى بالرجال
وكذاك الدهر يرمى بالفتى فى طلاب العيش حالا بعد حال

يقول فون كرامر والسير شارل ليال، وولهوسن، تعليقاً على هذه القطعة: «إن كثيراً من هذه الاحساسات الدينية لم تكن اسلامية فى نغمتها، وإن عباراتها التى صيغت فيها لم تكن إسلامية فى أصلها. وهذا أثر طبيعى — ولو أنه ضئيل — ونتيجة حتمية لانتشار اليهودية وبخاصة النصرانية [١] ».

على أن من أثر النصرانية أيضا ظهور طبقة الموحدين الذين استنكروا عبادة الأوثان ونفروا من الخضوع للاصنام، كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة.

وهناك أثر بين فى الألفاظ والتراكيب لولا طول الكلام واستطراد البحث لسقنا أمثلة كثيرة، ولنكتف بالبعض، من ذلك: بيعة، واسقف، وقناديل، وصومعة، ودير، ورهبنة، وغير ذلك.

(٦) بقيت لدينا مسألتان لهما اتصال وثيق بالنصرانية من الخير أن نبحثهما ونعرج على دراستهما.

المسألة الأولى — لماذا اختار النبى صلى الله عليه وسلم الحبشة مهاجراً لأصحابه فى الهجرة الأولى؟

والمسألة الثانية — ما السر فى تعليق صورة المسيح وأمه بالكعبة، وقد أنزلت عند دخوله صلى الله عليه وسلم مكة مع الصور الأخرى، مع أن مكة ليست مركزا للنصرانية، ولا من البلاد التى عرفت فى التاريخ بانتشارها فيها؟

المسألة الأولى: عند ما اشتد عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما

(١) ص ١٤٠ نيكلسون.

هو فيه من العافية لمكانه من الله وعمه أبى طالب قال لاصحابه : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه» .

ولم يذكر أحد من كتاب السيرة حتى المحدثين علة هذا الاختيار ، ومن أين أتى للنبى صلى الله عليه وسلم حسن ظنه بالنجاشى . والسبب فى رأينا هو :

أولا — : أن النبى صلى الله عليه وسلم لا بد أن يكون بلغه عن ذلك الملك حديث عدل وأخبار إنصاف . ولكن كيف انتهى إليه ذلك وهو لم يسافر إلى الحبشة بل كل أسفاره كانت إلى الشام . فالمعقول أنه سمع ذلك من التجار الذين يذهبون ويجيئون بين مكة والحبشة . إذ العلاقات التجارية بين البلدين وثيقة العرى متينة الأسباب . يدلنا على ذلك ماروى فى ذيل الأمالى من ذهاب رؤساء قريش إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس ، لأخذ العهود من ملوكها وتأمين السبل لتجار قريش فليس ببعيد أن يحمل هؤلاء معهم حديث صلاح النجاشى وحسن عدله ويسمعه النبى صلى الله عليه وسلم (١).

ثانيا — أن بمكة نفرا من الموالى الأحباش ومن فر من جيش أبرهة وفلوله ، فلا يبعد أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع منهم ماحسّن ظنه بالنجاشى ؛ فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس » (٢).

وقد ورد أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم ورث عن أبيه مولى يسمى شقران، وكان حبشيا، وورث عن أمه أم أيمن بركة الحبشية حاضنته (٣) .

ثالثا — لم يجعل الرسول مهاجرهم يثرب لأنه يعلم أن العلاقات التجارية بين مكة ويثرب أقوى منها فى الحبشة ؛ فمن السهل إذن أن يتأثر اليهود والأوس والخزرج

---

(١) ص ٢٠٤ ذيل الأمالى للقالى ، ٢٩ روح الاسلام .

(٢) ص ٢٣٦ تفسير جزء عم للالوسى . ص ٦٨٤ الفخر الرازى . ٤٦ و ٤٨ ابن هشام حـ ١ . ٩١ الازرقى .

(٣) ص ٣٠٧ حـ ٣ شرح المواهب ، ٤٨ المعارف لابن قتيبة .

سكان يثرب بهـذه العلاقة فلا يحمون أصحابه ولا يدافعون عنهم ، كما صنع النجاشى برده هدايا قريش وتخييب آمالهم .

رابعا — كانت يثرب فى السنة الخامسة ، وهى التى حدثت فيها هجرة الحبشة فى هرج واضطراب ، وكانت ميدان حروب وقتال .

خامسا — أن يهود يثرب أظهروا معاضدتهم لقريش على النبى صلى الله عليه وسلم وعداءهم وحسدهم للاسـلام عند ما أرسلت إليهم قريش يسألونهم رأيهم فى الرسول، اذهم أعلم به منهم لانهم أهل كتاب ، فكان جوابهم أسئلة ثلاثة ليجيب الرسول عنها ، وحدث ذلك قبل هجرة الحبشة فبانت أمارات الشر فى وجوههم وبشائر اللؤم فى طباعهم . (لتجدن أشـد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

سادسا — لم تـكن الهجرة إلى قوم آخرين من عرب قلب الجزيرة ، لهيبة قريش وسلطانهم وارتباطهم تجاريا ودينيا .

سابعا — لم تـكن الهجرة إلى الحيرة، لأنها كانت إذ ذاك خاضعة للفرس، ودولة الفرس فى ذلك الزمن فى دور الانحلال والاضمحلال .

ثامنا — لم تـكن الهجرة إلى الشام ، لأنها تابعة للروم ، والدولة الرومانية فى ضعف واحتضار .

وبعد ـ فالحبشة إذا هى البلاد الفذة التى ملـكها مستقل ، وله شهرة بالصلاح والعدل . وقد صدق ظن النبى صلى الله عليه وسلم فى النجاشى ، وبرهنت الأيام على حسن اختياره وسمو عقله وسعة اطلاعه على ما يدور حوله ويكتنف بلاده . هذا فى رأينا هو التعليل ، لا ماذكره الدكتور هيكل فى كتابه (حياة محمد) من أن نصرانية الحبشة قـد اندس اليها من شوائب الخلاف ، مالا يخشى معه على أولئك المسلمين ، فقد كان هذا حال كل بلد فيها نصرانية .

المسألة الثانية : وهى وجود صورة عيسى وأمه فى الـكعبة، فقد ذكر هـذا الخبر الأزرقى والزرقانى والحلبى [١] ونقله دوزى ومرجليوث فى كتابيهما ،

---

(١) ص ١٠٤ و ١٠٦ ، ١٠٧ أخبار مكة ، ٣٣٦ حـ ٢ الزرقانى شرح المواهب اللدنية ، ص ٨٧ جـ ٣ السيرة الحلبية .

وقد أغفل هذا الخبر فى كتابه الدكتور هيكل ولم ندر سر هذا الاغفال مع أنه نقل شطره، وهو صورة إبراهيم الخليل يستقسم الأزلام.

أما تعليل هذا الأمر فهو يسير وطبيعى، وذلك:

أن قريشا كانت أمة تجارية مغرقة فى التجارة حتى قال بعض اللغويين: إنما سميت قريشاً من التقرش، والتقرش التجارة والاكتساب [١]. حياتها قائمة على التجارة وما تربحه من زيارة الحجيج للبيت (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم).

فنظرتهم إلى الكعبة هى نظرة تجارية [٢]. وفى وصية أبى طالب عند موته مايفيد أنهم كانوا يعتبرون الكعبة سببا لجلب الخير لهم، وعاملا فى أنماء ثروتهم [٣] فعاطفتهم الدينية ضعيفة، وتمسكهم بدينهم هو فى الغالب تمسك المقلد لآبائه المحتفظ بمنبع يدر عليه الرزق الواسع والخير العميم؛ فعبادتهم للاصنام لتقربهم إلى الله زلفى (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)، وهى فكرة تجارية أيضا. ثم أليس فى مقابلة عبدالمطاب لأبرهة، وطلبه منه ماله، وجعل همه هو تخليص بعرانه ما يؤيد هذا الرأى، ولذا دهش أبرهة لهذا الطلب وعجب من هذه الرغبة دهشة الرجل الذى لا يعدل بالاحساس الدينى إحساساً. فقال أبرهة لعبد المطلب: «أتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه؟» [٤]

وأجلى مظهر لضعف العاطفة الدينية عندهم أنهم لم يكونوا على أمر جامع من عقائدهم، شأن الذين لا عراقة لهم فى الدين، وليست لاصنامهم هيئة ممتازة تسيطر على عقائدهم وتمدهم بالتعاليم التى تذكى نار العاطفه فى نفوسهم، بل كانت وثنيتهم وثنية ساذجة لا تتجاوز تقليد الآباء واتباع الأسلاف. قال تعالى:

---

(١) ص ٧٠ ابن هشام - ٦١ الأزرقى.

(٢) ص ٤٥ الاصنام لابن الكلبى

(٣) ص ٣٢٨ ج ١ بلوغ الأرب.

(٤) ص ٤٤ ابن هشام، ٨٩ الأزرقى. والكشاف للزمخشرى تفسير سورة الفيل.

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون » . « قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » . « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » .

لهذا كله كان فى الكعبة وحولها جميع أصنام العرب التى كانوا يعبدونها ، فدخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت (٣٦٠) صنما ، مع أن أصنام قريش ـ وهم سكان مكة وسدنة البيت وزعماء التجارة ـ فيها لا تعدو أصابع اليد وأعظمها (هُبَلَ) (١)

ولكنهم سمحوا بتعليق كل هذه الأصنام لأن الكعبة ليست لهم وحدهم . بل هى بيت الأمة العربية جمعاء ؛ فلا بد من البحث عما يرضى كل قبيل فى الأمة وإلا غاض رزقهم . وخسرت تجارتهم .

ذكر الأزرقى أنه كان يدفع لسادن (هبل) مئة درهم ومئة جزور ليضرب قداحه ويستقسم بأزلامه (٢) ، فالكعبة إذن كانت فى نظرهم بمنزلة (البنتيون Pantheon) عند قدماء اليونان ، فهى مجمع آلهتهم ، وهيكل أربابهم . (٣) فلا غرابة إذن إذا كنا نرى صورة المسيح عليه السلام وأمه فى الكعبة ، طلبا لرضا القبائل المتنصرة . والبطون المسيحية كالغساسنة واللخميين وغيرهم .

وهذه النظرة إلى قريش تفسر لنا كثرة ورود كلمة التجارة والبيع والشراء فى القرآن فى أكثر من موضع .

قال تعالى فى تصوير المثل الأعلى للرجال المخلصين لدينهم ، الحراص على رضا ربهم : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) .

---

(١) ص ٢٧ إلى ٢٩ الأصنام للكلبى .
(٢) ص ٦٨ و ٦٩ اخبار مكة للأزرقى .
(٣) ص ٣٩ سديو .

وقد لازمت هذه الصفة أهل مكة حتى بعد هجرتهم إلى المدينة . قال تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً) . وقال تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) هذا ما استطعنا أن نتحدث به عن النصرانية فى بلاد العرب . وموعدنا إن شاء الله العدد القادم : « اليهودية فى بلاد العرب » .

عبد الوهاب حموده

— ١ —

* شكا رجل إلى قاض من قضاة المسلمين ، فقال له : إن لى جيراناً يسرقون إوزى . فنادى القاضى : الصلاة جامعة ، ثم خطبهم فقال فى خطبته : وأحدكم يسرق إوز جاره ، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه . فمسح رجل رأسه . فقال القاضى : خذوه فانه صاحبكم .

— ٢ —

* قال معاوية لعبد الله بن عامر . إن لى اليك حاجة أتقضيها ؟ قال : نعم ، ولى اليك حاجة أتقضيها ؟ قال : نعم ، قال : سَلْ حاجتك ؛ قال : أريد أن تَهَبَ لى دورك وضياعك بالطائف ؛ قال : قد فعلت ، قال : وَصَلَتْك رحم ، فسَلْ حاجتك ، قال : أن تردّها علىّ ؛ قال : قد فعلت .

---

* هاتان الطرفتان وغيرهما مما سيراه القراء فى هذا العدد من نسخة مخطوطة من كتاب الظراف والمتماجنين لابن الجوزى — اختارها الأستاذان : ابراهيم الأبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى .

حول إعجاز القرآن

١

الفاصلة وبداعة الأسلوب

للأستاذ السباعى السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

ما الفاصلة ؟ تكلمت العرب الشعر والنثر فجاء فى شعرها الرجز والقصيد ، وفى نثرها المسجوع والمزدوج والمنثور ؛ وبدهى أن القرآن جاء نثرا لا شعرا ، ولكنه لم ينضو تحت أقسام النثر السالفة لا مجموعة ولا فرادى ، فما هو باللفظ المنثور يرسل كله إرسالا خاليا من كل قيد يراه القارئ . ويلحظه السامع فى التقفية والوزن ؛ ولا هو بالمتزاوج الجمل والعبارات بحيث ترى كل اثنتين منهما أو أكثر ، على خلوهما من التقفية ، متعادلتين تقريبا فى الأقيسة والموازين ، كما أنه ليس بذى التقفية التى تراها فى الأسجاع ؛ إنما هو كلام أحكمه الله ثم فصله آيات كما قال جل شأنه : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فجاء آيات متلاحقات تختم فى كل سورة غالباً بمقاطع متشابهات ذات ايذان بالانتهاء ، دون أن تتقيد بحرفية السجع أو موازنة الازدواج ، ودون أن تخلو كل الخلو من مظاهر التقييد، فلم يقبل لذلك أن يطلق عليه اسم من تلكم الأسماء ، وعرف وحده باسم المفصل أخذا من الفاصلة ، التى هى مقطع الآية فيه ، كالقرينة فى السجع والقافية فى الشعر . نعم قد جاء فيه يشبه المتزاوج والمسجوع ، وكان يصح أن يسمى بهما لولا أنه قد خرج فى كثير منهما بالطول خروجاً لم تك تألفه العرب فيهما ، وتقرب بذلك من التفصيل الذى وسع الطويل ولم يأب القصير ، فقصرت التسمية فى القرآن عليه دون المعروف من أقسام المنثور كما تعارف العلماء .

اتصال الفاصلة بمعنى آيتها — ولقد كان القرآن يمهد للفاصلة بمعنى آيتها تمهيداً تقع به مستقرة فى مقرها ، وتأتى متعلقاً معنى الكلام بمدلولها . انظر قوله تعالى: « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » كيف وقع « اللطيف» كالعلة لصدر الآية ، و« الخبير» كالعلة لعجزها . وانظر قوله على لسان قوم شعيب لشعيب : « قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد » كيف جاءت الفاصلة على سبيل التهكم ، من الحلم المناسب لترك معبوداتهم ، والرشد الملائم لما تلاذلك من عدم التصرف فى أقوالهم . وكذا قوله تعالى : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فإنه ختم الآية الأولى بالسمع المعنوى ، لأنها معنوية ليس فيها ما يحس . وختم الثانية بالإبصار الحسى لأنها من مشاهدات الحس .

ارشاد الآية الى فاصلتها — ولوثاقة العلاقة بين معنى الآية والفاصلة كانت الآية ترشد إلى فاصلتها كل ذى قلب مفكر ، ولسان معبر . قال زيد بن ثابت : أملى علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر » فعند ذلك قال معاذ بن جبل : « فتبارك الله أحسن الخالقين » فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له معاذ : لم ضحكت يارسول الله ؟ قال : بها ختمت . وكانت الفاصلة لذلك إذا غيرت أمام من تلك صفته ، ولو لم يك حافظا للقرآن أبى ذلك التغيير على محدثه . روى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ : « فان زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » ولكنه جعل الفاصلة « غفور رحيم » ولم يك الأعرابى يحفظ القرآن ؛ فقال : أما إن كان هذا كلام الله فلا ، إن الحكيم لايذكر الغفران عند الزلل بعد البينات ، لأنه إغراء عليه .

اختلاف الفاصلة باختلاف الألفاظ أو السياق — ومن الفواصل ما كانت تختلف لتغير لفظة واحدة فى آيتين، قال الله تعالى: « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ». فجعلها بعد الشعر من الايمان لأن مخالفة القرآن له، تدعو إلى سرعة التصديق. وبعد قول الكاهن من التذكير، لأن مخالفة القرآن له تدعو - لوجود المشابهة ظاهرة - إلى بعض التدبر والتفكير. بل كانت تختلف الفاصلة فى الآية الواحدة تأتى فى موضعين لاعتبارين. قال تعالى فى سورة إبراهيم: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار»، وقال فى سورة النحل: « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ». فأتى بها فى الآية الأولى من صفات المنعم عليه، وفى الثانية من صفات المنعم، وكلتاهما مناسبة للآية فى ذاتها لأنها متعلقة بالله والانسان؛ ولكن الحديث فى سورة ابراهيم كان مسوقا قبلها فى صفات الناس وعدم شكرهم على تعدد نعم الله، ولذلك يقول: « وآتاكم من كل ما سألتموه »، فأتى بها من الظلم والكفر المناسبين للسياق من صفات الانسان. وفى النحل كان الحديث فى ذكر صفات الله، ألا تراه قبل الآية يقول: « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون »، فأتى بها من المغفرة والرحمة، وهما من صفات الله الملائمة لما تعوده سبحانه إزاء طغيان الانسان من الكرم والغفران. ومن هذا النوع ماجاء فى ثلاثة مواضع كقوله تعالى فى سورة المائدة: « ومن لم يحكم بما أنزل الله ». فقد ختمها بثلاث فواصل فى ثلاثة مواضع هى قوله: «فأولئك هم الكافرون»، وقوله: «فأولئك هم الظالمون» وقوله: «فأولئك هم الفاسقون». وذلك لأنه يقصد فى الأولى من جحد ما أنزل الله وهم الكافرون. وفى الثانية من خالف ما أنزل عن علم وهم الظالمون؛ وفى الثالثة من خالفه عن جهل وهم الفاسقون. ولذلك كانت الفاصلة تتحد فى الآيتين متى بقيت المناسبة. كما فى آيتى الاستئذان بسورة النور وهما: « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم، بعضكم على بعض، كذلك يبين الله

لكم آياته والله عليم حكيم وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » . فالفاصلة فيهما واحدة إلا أنه أضاف الآيات فى الأولى إلى ضميره سبحانه ، وفى الثانية أناب عن هذا الضمير (أل) اعتمادا على سبقه إياها .

مجىء بعض الفواصل على خلاف مقتضى الظاهر — وقد يفيد ظاهر الفاصلة عدم ملاءمتها للآية ، ولكن تدبرا قليلا فى المعنى يدفع هذا الظاهر ويكشف عن ملاءمة وثيقة الصلة شديدة الارتباط ، من ذلك مثلا قوله تعالى على لسان عيسى عن قومه : « إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » ، فان قوله : « وإن تغفر لهم » يقتضى ظاهره مجىء الفاصلة من الغفران ، غير أن من يعلم أنه لا يغفر لمستحق العذاب فى نظر الناس إلا ذو العزة الذى ليس فوقه عزيز ، وهو الله . ثم يعلم مع ذلك أن الله يرى إذا فعل هذا مالا يرى الخلق من حكمة يجهلونها ، لا يتردد فى أمر الفاصلة تأتى من العزة والحكمة كما أتت من المغفرة والرحمة كما اقتضى ظاهرها . وآيات هذا النوع كثيرة وكل واحدة منها توصى لمن يتدبرها أنها بفاصلتها ، وفاصلتها بها ، أحق وأولى من غيرها .

هداية الآية إلى فاصلتها باللفظ مع المعنى — وفى القرآن فواصل كثيرة كانت الآية تمهد لها فوق تمهيد المعنى بالألفاظ نفسها أو بلازم معنى الألفاظ ، فمن النوع الأول ما توافق فيه الفاصلة أول الآية . ويسمى رد العجز على الصدر كقوله تعالى : « وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » . ومنه ما توافق فيه آخرها كقوله : « أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا » . ومنه ما توافق فيه الوسط كقوله : « قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » . والنوع الثانى كثير ، ومنه قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون » ، فان انسلاخ النهار من الليل يستلزم الظلمة ولذا جاءت الفاصلة منها .

التصرف للفاصلة مع المحافظة على المعنى — ولقد تصرف القرآن فى تهيئة التراكيب للفاصلة تصرفا واسع المدى ، وكان مع ذلك محتفظا أيما احتفاظ بتبعية اللفظ للمعنى ، بل كثيرا ما آتاه هذا التصرف مآرب أخرى ، وهذا شىء امتاز به على سائر الكلام .

فمن ذلك تقديم المعمول على العامل فى قوله تعالى : « أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » ، وقوله « إياك نعبد وإياك نستعين » والمزية الزائدة هنا فوق تحقيق الفاصلة بهذا التقديم إفادة التخصيص والحصر .

ومنه إيراد الجملة اسمية لا فعلية فى قوله تعالى: « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » . ولا تخفى مزية الاسمية على الفعلية فى نفى الايمان عنهم هنا ، وبخاصة الفعلية الماضوية التى كان يقتضيها ظاهر السياق مشاكلة لأول الآية .

ومنه إيثار المفرد على الجملة كما فى قوله تعالى « وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » . واسم الفاعل هنا له على الماضى فضل الاستمرار والثبوت .

ومنه الاتيان بالظاهر بدلا من الضمير كما فى قوله : « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين » والفضل الزائد هنا بمجىء الظاهر تعريفنا من المصلحون فى نظر الدين .

ومنه الاتيان بصيغة الفاعل مكان صيغة المفعول فى قوله تعالى: « من ماء دافق » . وفى إسناد التدفق الى الماء نفسه دلالة على أن قوة الدفق من طبيعته .

ومنه عكس ذلك كما فى قوله تعالى : « حجابا مستورا » . ولأن يتناول الستر الحجاب نفسه مع المستور خلفه أبلغ فى قوة الستر واختفاء المستور .

ومنه حذف المفعول كما فى قوله تعالى: « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى » . وفيه بيان أن المراد مطلق الاتصاف بالاعطاء والاتقاء لا بيان المعطى والمتقى .

ومنه الاتيان بهاء السكت فى قوله تعالى : « ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه » وفيه تحقيق فوق الفاصلة بمشاكلة تاءات التأنيث قبل مد هذا المتفجع النادب بما يتناسب فى الايقاع مع حال المتأوه المفجوع .

ومنه غير ذلك كثير مما تظهر فيه مع تحقيق الفاصلة مزية جديدة على نحو ما ذكرنا ، فاذا لم تظهر لأفهامنا تلك المزية وقد تكون خافية علينا . فلا أقل من ألا نجد لما لم يحقق الفاصلة فضلا ما على ما يحققها ، وإذن يكون لما يحققها فضل هذا التحقيق .

ومن ذلك تذكير الصفة أو تأنيثها سواء أكانت هى الفاصلة كما فى قوله تعالى : « أعجاز نخل منقعر » أو قوله : « أعجاز نخل خاوية » . أم ممهدة للفاصلة كما فى قوله : « وكل صغير وكبير مستطر » وقوله : « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »

ومنه مجىء صيغة مكان أخرى كما فى قوله تعالى : « إن هذا لشىء عجاب » بدلا من عجيب ؛ أو مراد فى مكان آخر كما فى قوله : « سأصليه سقر » بدلا من لظى مثلا ، أو حركة مكان غيرها كما فى قوله : « فأولئك تحروا رشدا » إيثارا لفتح الشين هنا على سكونها فى « رشْدا » وهكذا .

التناظر بين فاصلة وفاصلة — ولقد راعى القرآن الكريم فى معظم فواصله انتهاء الكلمات الأخيرة فيها بحروف المد واللين أو هاء السكت لأنها تمكن القارىء من الترنم والترتيل ، كما راعى فى حروف هذه الكلمات وأوزانها بين كل فاصلتين أو أكثر التماثل أو التقارب ، وافتن فى ذلك افتنانا بعيدا بديعا .

فكان من ذلك الفاصلتان المتفقتا الآخر وزنا لا تقفية ، مع مقابله غير تامة فيما قبله كما فى قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ومع مقابلة تامة كما فى قوله : « وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم » .

والفاصلتان المتفقتان تقفية لا وزناً مع مقابلة غير تامة كما فى قوله » إلا حميما وغساقاً جزاء وفاقا » . ومع مقابلة تامة كما فى قوله : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس » والفاصلتان المتفقان وزناً وتقفية مع مقابلة غير تامة كما فى قوله : « فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة » . ومع مقابلة تامة وهو كثير كما فى قوله : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » وقوله : « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم » .

ومن الفواصل ماكانت تجمع فوق اتحاد الحرف الأخير اتحاد حرف أو اثنين أو ثلاثة قبله غيره، ومع ذلك لايشعر القارىء بشيء من التكلف مطلقاً بل لا يكاد يشعر أن هنالك اتحادا. مثال الحرف قوله: «فاما اليتيم فلاتقهر وأما السائل فلاتنهر» وقوله: «ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك» ومثال الحرفين قوله: «والطور وكتاب مسطور» وقوله: «ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون». ومثال الثلاثة قوله: «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون» وبهذا وقع الاتحاد فى حرفين وثلاثة وأربعة.

هذا بعض ما أردنا إثباته عن الفاصلة فى القرآن وهى ناحية فريدة بذ فيها كلام العرب، فكانت أدل شىء على بدع الأسلوب وقوة الإعجاز، على أنه بذهم فى كل ناحية أخرى مما يتفاضل فيه الكلام، فبذهم فى الفصاحة بمهداتها ودرجاتها، كما بذهم فى البلاغة على تعدد ألوانها. وإن لنا لجولات فى ذلك إن شاء الله تعالى.

السباعى السباعى بيومى

٣

سئل العباس: أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو أكبر منى وأنا ولدت قبله.

٤

كان بين يدى معاوية ثريد كثير السمن ورجل يؤاكله نخرقه إليه؛ فقال له معاوية: أخرقتها لتغرق أهلها؟ فقال: سقناه إلى بلد ميت.

اتجاهات الأدب وأهم حواضره فى العصر العباسى

للأستاذ محمود البشبيشى

المدرس بدار العلوم

١

إن الأدباء كسائر النـاس يسعون للحياة ، وأروج سلعهم الأدب يعرضونه ، ويتوفرون عليه حيث يهنأ لهم العيش ، وتحوطهم رعاية الخلفاء ومن إليهم من الأمراء والعظماء ، فليس عجيبا أن يتحول الأدب إلى حيث تستقر السيادة ، وأن يؤم الأدباء حواضر الملك ، ويتزاحموا على أندية الخلافة ، ودور الأمارة ماوجدوا لبضاعتهم نفاقا ، ولآدابهم تقديرا :

تسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء

البصرة والكوفة(١) — قامت الدولة العباسية وقد كانت حواضر الثقافة العربية منتثرة فى أنحاء الدولة العربية ، وكانت ألوية الزعامة الأدبية معقودة للبصرة والكوفة ، وفيهما أثمرت قرائح العلماء ، وأينعت رياض الأدب ، واشتهرت مدرستاهما ومهدتا طريق العلوم الدينية واللسانية ، وكان لرجالهما الصيت الذائع ، والأثر البالغ فى خدمة اللغة وإنضاج علومها ، وطالما احتدم الجدال بين فرسان هاتين الحلبتين ، وكانت البصرة لوقوعها بجانب (المِربد) عكاظِ الأسلام ، وقربها من البادية تعتمد على الرواية ، ولا تميل إلى الأخذ بالقياس إلا حين يعوزها السماع ، وعلى العكس من ذلك كانت الكوفة لبعدها عن البادية تجنح إلى القياس ، وتؤثره كثيرا على السماع ، وكان الخلفاء العباسيون يشجعون علماء الكوفة ، ويؤثرون آراءهم لأنهم شيعتهم وأقرب إليهم من أهل البصرة ، ولأن البيعة تمت لآل العباس

(١) روى (ياقوت) فى معجم البلدان أن تمصير البصرة كان سنة ١٤ هـ قبل الكوفة بستة أشهر .

بالكوفة ، ولقد كان لعلماء المصرين أثر ظاهر فى قواعد النحو والصرف ألف العلماء فيه كتبا واسعة ، ومن أجمع هذه الكتب كتاب « الأشباه والنظائر » لجلال الدين السيوطى الذى أحصى مسائل الخلاف فى مائة مسألة وثنتين ، وقد سبقه إلى التأليف فى هذا الموضوع كمال الدين الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ فى كتابه « الإنصاف فى مسائل الخلاف » وتلك المسائل مشهورة مذكورة فى أمهات كتب اللغة والنحو والصرف وإليك بعضا منها : —

(١) يرى البصريون أن الفعل مشتق من المصدر ، ويذهب الكوفيون إلى أن المصدر مشتق من الفعل .

(٢) يمنع البصريون أن يجمع نحو طلحة بالواو والنون ، ويجيز الكوفيون ذلك فيقولون (طلحون) رفعا ، و (طلحين) نصبا وجرا .

(٣) نعم وبئس فعلان جامدان عند البصريين واسمان عند الكوفيين .

(٤) إذا وقع المصدر نعتا نحو (هذا رجل عدل) فالبصريون لا يؤولون المصدر بل يعتبرون الكلام من قبيل المبالغة حتى كأن الرجل هو العدل نفسه ، وأما الكوفيون فيؤولونه بالمشتق فكأن الكلام (هذا رجل عادل) .

ولكل من الفريقين أدلته المبسوطة فى مظانها ، على أنه من الثابت أن البصرة أسبق اشتغالا بعلم النحو من الكوفة .

وقد نبغ فى البصرة والكوفة أكثر الأدباء والرواة ، وبناة النهضة فى العلوم الشرعية واللسانية ، وحسب (البصرة) أن يكون من علمائها نابغة العرب : (الخليل بن أحمد) واضع العروض ، و (سيبويه) شيخ النحاة وصاحب (الكتاب) الذى وضعه فى النحو ولم يسبق بمثله ، والذى اشتهر أمره بين العلماء فى القديم والحديث حتى إذا قيل (قرأ فلان الكتاب) كان المعنى كتاب سيبويه وكان (المبرد) إذا طلب منه أحد أن يقرأ عليه (الكتاب) يقول له : (هل ركبت البحر ؟ !) تعظيما لأمر الكتاب وتبيانا لفضله .

وحسب (الكوفة) أن يكون من علمائها . شيخ الفقهاء الإمام (أبو حنيفة النعمان) وإماما اللغة الجليلان : على بن حمزة (الكسائى) . وأبو زكريا (الفراء)

وهما اللذان قال فيهما أبو بكر الأنبارى : « لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائى والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس » .

ولقد كان بين مدرستى البصرة والكوفة تحاسد وتنافس شديد وكانت كل منهما تحاول أن تظهر على الأخرى . فتقوم بينهما حروب جدلية طويلة ، تخرج منها اللغة ظافرة على كل حال ، ويحدثنا التاريخ عن كثير من مظاهر هذه المنافسة ، وفى كثير منها طرافة ونوع من اللذة الروحية . وإليك بعض هذه المظاهر :

(١) روى أن سيبويه والكسائى اجتمعا فى مجلس (يحيى بن خالد) وتناظرا فسأل الكسائى سيبويه : ما تقول فى قول العرب :

« كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هى (أو) فإذا هو إياها » ؟ فقال سيبويه :

(فاذا هو هى ، ولا يجوز النصب) ، فقال الكسائى : العرب ترفع الضمير وتنصبه . (أى تقول فاذا هو هى (و) فاذا هو إياها) ثم اتفق الطرفان على أن يتحاكما إلى الأعراب ، وكان بعضهم بباب (يحيى) فسئلوا فوافقوا الكسائى ، واستكان سيبويه ، على أن الكسائى ترفق بسيبويه واستعطف له (يحيى بن خالد) وقال له : (وفد عليك مؤملا فلا ترده خائباً) فأعطاه (يحيى) عشرة آلاف درهم ولم يمر علماء البصرة بهذه المسألة بلا معارضة ؛ وقد التمس النحاة لجواز النصب وجوها شتى تراها مبسوطة فى كتاب المغنى لابن هشام .

(٢) روى أن (بشار بن برد) البصرى . شهد مجلس الخليفة (المهدى) وهو حافل بالشعراء ، ومنهم . أشجع السُّلَمى وأبو العتاهية ، فسمع (بشار) كلام أبى العتاهية ، فقال لأشجع : يا أخا سليم أهذا ذلك الكوفى الملقب ؟ قال نعم . قال بشار لاجزى الله خيراً من جمعنا معه ، ثم قام أبو العتاهية ينشد الخليفة قصيدته التى مطلعها :

ألا ما لسيدتى مالها أدَلاً فأحملَ إدلالها ؟
وإلا ففيم تجنت وما جنيت ؟ سقى الله أطلالها

فاستزدها (بشار) ثم اندفع أبو العتاهية فى انشاده حتى قال :

أتته الخلافة منقادةً إليه تجرّر أذيالهـــا
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لهـا
ولو رامها أحد غيْره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنَات القلوبِ لمـا قبل الله أعمالها

فهنالك لم يطق (بشار) صبرا على كتْـم إعجابه وحسده، فقال لمن بجانبه: أترى أمير المؤمنين لم يَطرْ عن فراشه طربا لما يأتى به هذا الكوفى؟! وهكذا ظل المصران العظيمان يتنافسان فى خدمة الأدب، ويتباريان فى انضاج علوم اللغة، وظلت لهما الزعامة على سائر الحواضر الأدبية. حتى نبُه شأن (بغداد) وهبت أعاصير فتنتى الزنج والقرامطة الذين عاثوا فى الأرض فسادا، بما خرّبوا ودمروا وبما نشروا من أباطيل، فجلا من بقى من المصرَيْن إلى (دار السلام).

المدينة المنورة والفسطاط — ولقد كان إلى جانب مدرستى البصرة والكوفة فى أوائل العصر العباسى مدرستا المدينة المنورة والفسطاط بمصر، وكان لكل منهما شأن، فى خدمة اللغة ونشر العلوم الدينية والأدبية، وما زال التاريخ يعرف لهما ذلك الفضل كلما ذكر من علماء الحجاز (مالكَ بنَ أنس) فقيه الحجاز، وإمامَ دار الهجرة، وصاحبَ الموطأ، وحجةَ الله فى أرضه، أو عَرَض لأخبار (أبى تمام) الناشىء فى جامع عمرو بالفسطاط، أو تحدث عن عالم قريش وحَبْرها (الامام محمد بن إدريس الشافعى) الذى ألقى بمصر عصا التسيار، وأملى فى جامعها مذهبه الجديد. أو الامام (الليث بن سعد) صاحب الامام مالك. أو العلامة (أبى يعقوب يوسف بن يحيى المصرى البوَيطى) الذى أجلّه الامام الشافعى، واستخلفه على التدريس والفُتْيا الى غير أولئك من الأفاضل الأعلام.

بغداد[1] — أما (دار السلام) فحدث عنها ولا حرج. فقد انتقلت الزعامة الأدبية إليها بعد المصرَيْنِ، واضطلعت بأعباء الثقافه، وازدانت بأبهة الخلافة،

(١) اختطها أبو العباس السفاح قرب الكوفة سنة ١٤٥ هـ ونزلها سنة ١٤٩ ومصرها وجعلها مدينة (أبو جعفر المنصور) - معجم البلدان لياقوت.

وحفلت بالعلم والعلماء ، وزخرت بالأدب والأدباء ، وأصبحت ملتقى الأجناس والثقافات ، ومجتمع العلوم والحضارات ، ثم امتزجت فى مكتباتها وأنديتها ومدارسها ، ثقافة العرب بثقافات الفرس واليونان والسريان والرومان والهند والصين ، وفى رعاية خلفائها وأمرائها التقت الحضارتان السامية والآرية ، واطردت النهضة الأدبية والعلمية ، حتى تألق نورها ، فعم أرجاء الدولة العربية ، وحسب هذه النهضة أن يكون مذكى نارها (أبا جعفر المنصور) ذلك الخليفة الذى كان واحد عصره علما وفقها ، وكان على حرصه لايضن بشىء من المال فى سبيل العلم.

وحسبك أن تعرف أن (الرشيد) ألحق بكل مسجد فى بغداد مدرسة لتعليم العلوم المختلفة ؛ وحرص على أن يكون مجلسه حافلا بالأدباء والعلماء ، حتى إذا ما أراد الحج صحبه منهم مائة عالم .

ولقد تتشعب بنا مناهج القول إذا ما حاولنا أن نلم فى هذه العجالة بكل مظاهر الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية فى (دار السلام) ، فحسبنا أن نوجه النظر إلى (دار الحكمة) التى أنشأها (المأمون) ، وحشد إليها أئمة اللغة ، وقادة الفكر من أقطار البلاد ، وجمع فيها ما ألف فى العلم والأدب لذلك العهد ، من كتب عربية أو يونانية ، وأجاز على ترجمة الكتاب النفيس إلى العربية بوزنه ذهبا ، واتخذ من (دار الحكمة) ندوة علمية أدبية ، وأشرف بنفسه على بحوثها ، وشارك العلماء فيها ، حتى قامت بالنصيب الأوفر فى ترجمة العلوم إلى اللغة العربية ، وقد روى التاريخ أنه كان من شروط صلح (المأمون) مع (ميشيل الثالث) ملك الروم أن يأخذ المسلمون مكتبة من مكتبات (الآستانة) ، وليس بعد هذا عناية بالعلم واهتمام بنشره ، فليس عجيبا أن تكون (بغداد) فى عهد (الرشيد والمأمون) مثابة للعلم ، وملجأ للأدباء ، وندوة للبحث . ومجالا للمناظرة ، يقصدها كل أديب أو عالم من مشارق الأرض ومغاربها ، فيجد فيها قادة الأدب ضالتهم ، ورادة العلم غايتهم ، والحق أنه قد أتيحت (لبغداد) كل أسباب المجد ، فموقعها وسط بلاد الدولة جعلها ملتقى كل مشرق ومغرب من الأجناس المختلفة . وأرباب البيان وقادة العلم ، وصيرها مجتمع الحضارات التى يغذى بعضها بعضا ، واجتذب إليها أئمة اللغة من أطراف الدولة ، ومراكز الثقافة الاسلامية كالبصرة والكوفة

والمدينة المنورة وغيرها، وقيام الخلافة بين ربوعها ، جعلهامهبط الوفود ، ومقصد كل ذى حاجة ؛ ووجود الخلفاء الأماجد (كالمنصور وأولاده وأحفاده) أذكى فيها شعلة العلم والعرفان ، وغَذَّى بين جنباتها رياض العلوم من قديمة وحديثة إسلامية كانت أو دخيلة ، وساعد على كل ذلك ما قام بها من بيوت الامارة والعلم والأدب ، تلك التى تعاونت مع دور الخلافة على إنهاض المعارف ، وتقوية الحركة العلمية ، وماظنك بالبرامكة ومنهم أهل البيان ، وفحول البلاغة ؟ ! بل ماظنك بآل (وَهب) وهم قرة عين الأدب وواسطة عقد الزمان؟ وإذا أغفلنا هنا الافاضة فى شأن البرامكة فما ذلك إلا لاستفاضة أخبارهم ، ونباهة شأنهم حتى لايحتاج أمرهم إلى إطناب وفضلهم إلى أطراء ، ويكفى أن يكون منهم شيوخ الكتاب وأساطين الوزارة يحيى بن خالد ، وولداه (جعفر والفضل) ومهما تكن أسباب نكبتهم ، فان لهم فضلا على العلم والأدب ، لا يستطيع انكاره الزمان. ونحن هنا انما ننظر اليهم من ناحية الأدب لا من ناحية السياسة ، فحسبنا فى شأن البرامكة ما تقدم ، ولكنا نرى لزاما أن ننوه بآل (وهب) فلقد كانت الكتابة والأدب من المزايا العريقة فى هذا البيت ، كتب أفراده للخلفاء الأمويين من لدن معاوية ، ثم كتبوا لبنى العباس فخدموا المنصور والمهدى وآل برمك والفضل بن سهل (ذا الرياستين) ، وهو الذى يقول (عجبت لمن كان معه وهب كيف تهمه نفسه !) ولما مات (وهب بن سعيد) فى إحدى سفراته ، كان ولداه (الحسن وسليمان) فى كفالة ثقة سرى من أهل (واسط) يتحرف بالجزارة وكان لهما مال خلفه أبوهما ، فأراد الوصى أن يسلك بهما ما يحبان من سبل الحياة ، وخَيَّرهما بين أن يشترى لهما ضياعا وأن يعلمهما الجزارة ، ولكن طموحا إلى المجد أنطقهما بما بهره وأعجبه ، فقالا : مالنا ولحرف العوام ؟ ! انما صناعتنا جَزْر أعناق الرجال فى القراطيس (يريدان الكتابة) ، فضمهما إلى من يؤدبهما ، ثم رأيا أن (واسط) لا تقوم بما يؤملان من علم ومنزلة فجهزهما إلى (بغداد) فنبه فيها شأنهما ، واتصلا بالمأمون ، وكتبا معاً فى ديوان الرسائل عنده. وما زال أمرهما فى صعود حتى أدركا ما تطلعا اليه ، فوزر (سليمان) للمهتدى ، ثم للمعتمد على الله. وكتب (الحسن) لمحمد ابن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل.

وكان (سليمان والحسن) من أقدر كتاب الرسائل ، ومن أعيان عصرهما علما وأدبا ، وكرما ونبلا وقد سمح لهما أدبهما ومكانهما فى الدولة أن يبسطا يد الجود والنوال ، ويمهدا سبل الرخاء أمام كثير من الأدباء والشعراء . فكانا من دعائم الأدب فى ذلك الزمان ، وحسبك دليلا على ذلك أن يكون من مداحهما (أبو تمام والبحترى) ومن فى طبقتهما من الشعراء :

هذا أبو تمام يقول فى سليمان بن وهب :

كل شِعْبٍ كنتم به آلَ وهب ... فهو شِعْبى وشِعْبُ كل أديب

إن قلبى لكم لكالكبد الحر ... ى وقلبى لغيركم كالقلوب

وهذا أبو عبادة (البحترى) يقول فيه :

كأن آراءه والحزم يتبعها ... تُريه كلّ خفى وهو إعلان

ماغاب عن عينه فالقلب يكلؤه ... وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وروى أن (ابن يزيد بن محمد المهلبى) وفد على (سليمان) فى وزارته ، وأنشد :

وهبتم لنا يا آل وهب مودةً ... فأبقت لنا مالا ومجداً يؤثّل

فمن كان للآثام والذل أرضُه ... فأرضكم للأجر والعزّ موئل

رأى الناس فوق المجد مقدار فضلكم ... فقد سألوكم فوق ما كان يسأل

يُقَصِّر عن مسعاتكم كل آخرٍ ... وما فاتكم ممن تقدم أول

فقطع عليه سليمان إنشاده وقال : لا تقل ذلك . أصلحك الله ، إنما أنت عندى كما قال عمارة بن عقيل :

أقهقه مسروراً إذا أنت سالم ... وأبكى من الأشواق حين تغيب

ثم قضى جميع حاجاته ، وقال لو لم أفد مما نالنى من أمير المؤمنين إلا شكرك لرأيت بذلك جنابى مُمْرِعا وزرعى مُرْتعاً ؛ كان الحسن وسليمان أريحين يهتزان للندى ، كما كانا أديبين ؛ فلسليمان ديوان رسائل ، وللحسن شعر حسن ، وكلاهما كاتب بليغ مترسل ، ومن شعر الحسن فى رثاء أبى تمام :

سقى بالموصل القبر الغريبا ... سحائب ينتحبن له نحيبا

فان تراب ذاك القبر يحوى ... حبيبا كان يدعى لى حبيبا

(يتبع) « محمود البشبيشى »

فردريك شولهتس وأمية بن أبى الصلت

للأستاذ محمد هاشم عطية
المدرس بدار العلوم

فردريك شولهتس عالم ألمانى شرح أشعار أمية بن أبى الصلت ، وطبع ديوانه سنة ١٩١١ وإليه رجع أكثر الفضل فى إحياء التاريخ الأدبى لهذا الشاعر المشهور. وقد كنا نشعر فى أنفسنا بدافع خفى ينهانا دائما عن الاستسلام لآراء كثير من المستشرقين فيما توفروا على دراسته من الأدب العربى ، وكنا نهم بالاتهام لعنايتهم المبذولة لآثار المشارقة لأنها ربما كانت ستاراً لدسيس كمين من العصبية المذهبية ، حتى صح لنا القول بأن كثيراً من الناس يخدعهم أولئك المستشرقون باتخاذ هذه المباحث الأدبية وسيلة للطعن فى عقائد الشرقيين وشرائعهم ، لغلبة هذه النزعة العدائية على شعورهم الدينى الذى يغريهم بالإسراف والتمويه والافساد للحقائق . ويكفى فى الاستدلال على هذه الظاهرة من التعصب أن نعرض لرأى هذا العالم فى الموازنة بين أمية بن أبى الصلت وبين محمد رسول الله . وبين أشعار أمية والقرآن.

يقول ذلك العالم : « إن اخراج موازنة صادقة بين أمية ومحمد يتوقف على إيجاد ديوان عربى قديم يكون جامعاً لمقدار وافر من الأشعار العربية الصحيحة ، وبفرض العجز عن تحصيل هذه الوثيقة فهو مطمئن إلى القول بأن ستمئة بيت لأمية لا يعقل أن تكون كلها منحولة أو غير صحيحة . وينكر رأى « كليمان هوار » فى أن محمداً استعان بشعر أمية بن أبى الصلت . ولكنه يرى أنهما جميعاً اشتركا فى ثقافة واحدة ونقلا عن مصدر واحد . ويرفض عقيدة المسلمين فى أمية محمد وعدم اتصال القرآن على هذا بأساطير أدبية قديمة ، ويجعل خلاصة آرائه فى هذه الموازنة أن أمية كان أشد ذكاء وأبلغ أداء من محمد فى هذه الرسالة ، ويتخذ القصص فى شعر أمية وفى القرآن دليلا على حظ أمية من الدقة والذكاء دون محمد ، بناء على أنه أمثلة كاملة من التاريخ أجاد الشاعر نظم فصولها ورتبها على نمط يحقق الصلة بينها وبين ما نقلت عنه من الأساطير » .

ومن العجب أن يكون هذا البحث العقيم مذهبا لغير واحد من علماء الأجانب الذين لا سبيل إلى انكار مالهم من الجهد الفاضل على الأدب والعلم لولا هذه الآفة المذمومة. وظاهر أن هذا العالم قد بدأ موازنته بالاطمئنان إلى صحة الشعر المنسوب إلى أمية فى الجملة، وأنه لايعقل أن تكون ستمائة بيت لأمية كلها منحولة أو غير صحيحة. وهى النظرية التى يضعها العلماء والمستشرقون خاصة موضع التهمة، وكثير من علمائهم لا يميلون إلى الاعتراف بهذا العصر الجاهلى بأسره، ولا يقرون ما ينسب إلى شعرائه من الشعر ويزعمون أن هذه الكثرة المطلقة من أسماء الشعراء والسادة والفرسان والملوك والقبائل والأماكن والأيام كلها شبيهة بالأساطير التى لاتمثل شيئاً ولاتتصل من الواقع الصحيح فى شىء. ولكن هذا العالم لحاجته إلى استخدام هذه الموازنة فيما يخفيه من الغرض يعترف هنا بما ينكره فى غير هذا الموضع، ومع غير هذا الشاعر فهو يصحح نسبة أكثر الشعر المنسوب إلى أمية، وينزهه عن الاختلاق والدس لأن الغاية كما يقولون تبرر الوسيلة. فأمية إذاً شاعر صحيح النسب معروف المولد والمنشأ والحياة والشعر، وليس ذلك مستمدا من البحث الصادق ولا مستنداً إلى الدليل الصحيح، وإنما هو أثر ما أسلفناه من الميل العصبى والغرض الدخيل. ثم يضع نفسه بعد ذلك موضع المرافع عن محمد والمحامى عنه فى مهاجمة خصم آخر من خصوم الإسلام يزعم أن شعر أمية كان مرجعا من المراجع التى استعان بها محمد على تأليف القرآن، فينكر هذا الرأى وكأنه يستقله فى الطعن على محمد ليعود من جديد فيقول: «إن محمداً وأمية كانا تلميذين فى مدرسة واحده واشتركا فى ثقافة واحدة ونظم أمية شعره وألف محمد كتابه اعتماداً على أساطير أدبية واحدة» فيصير دفاعه على هذه الشاكلة نوعا من السخرية وأسلوبا من التهكم فى الاستدلال على نفى الهفوة بالاثبات للخطيئه. ويقول: إن أمّية محمد عقيدة فاسدة وأنه لابد أن يكون حاذقا بالقراءة والكتابة لعجزه عن إدراك الأسباب التى أدت إلى أن يقوم دين وتنشر رسالة ويتأسس ملك وفتح ودولة وتاريخ بالاعتماد على فطرة رجل أمى لايقرأ ولا يكتب، مع أن كثيراً من أفذاذ الدنيا ومن آحاد الرجال فى التاريخ كان ينقصهم الاتصال

بكثير من العلوم والفنون والآداب ولم يمنعهم ذلك من بناء مابنوه لأنفسهم على عاتق الزمن من المجد والشهرة . وهـذا مؤسس مصر الحديثة وباعث هذه النهضة العلمية فى مصر وجاراتها « محمد على » والى مصر الكبير كان أميا حاول أن يتعلم الكتابة بعـد سن الأربعين ، وهو قد ملأ الشرق فى أيامه مجداً وعظمة، وأزعجت جيوشه وأساطيله كثيرا من الأمم الكبرى على شواطىء البحر الأبيض ولم تقف هـذه الأمية فى سبيل نبوغه الفطرى وصفاته الخارقة للعادة . وإذاً يكون موقف هذا العالم من أمّية محمد صلى الله عليه وسلم أكثر حظـاً من السخافة والخطأ من موقفه فى شعر أمية .

أما ماذكره عن القصص فى القرآن وأن أمية كان أبلغ فيه أداء من محمد : فنحن نخصه بمزيد تحقيق وبسط لاحتمال خفاء الصواب فى هـذا البحث على كثير من غير المحققين من العلماء ، ولأن ماعداه من رأيه غير جدير بالنظر لظهور بطلانه ولتجرده من أثر التعقل الصحيح . ومن المعلوم أن القصص فى القرآن وإن وجد منه شىء فى الشعر أو كان متفقا مع ما وردت به شرائع المتقدمين إنما يجىء دائما على نمط يخالف مذاهب المؤرخين فى توخيهم لسرد الحوادث ، كما هى من غير محاولة لزيادة أو نقص ، فهو يرمى إلى اتخاذ الماضى وسيلة للعبرة وطريقا إلى تقرير قواعـد النظام والتنبيه إلى مواطن الانتفاع بأدق أساليب الاجتماع . وانظر إلى ذلك فى قصة ابراهيم مع أبيه وقومه حيث يقول الله تعـالى (وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضـلال مبين وكـذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليـه الليل رأى كوكبا قال هذاربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين) وقوله (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وحيث يقول فى سورة مريم : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) الآيات ، ومثل هذا النوع من المحاورة والجدل فى سورة الشعراء بين موسى وفرعون . وستعلم من هذا وأشباهه أن الغاية من نظم هذه القصص فى القرآن لم تـكن تأليف تاريخ ولا حكاية حال كما يفعل شعراء القصص وكتب الأساطير

وإنما الغرض هو إثارة النظر فى حقائق الأديان وتوجيه الفكر إلى نشأة العقيدة والتأمل فى كيفية تطورها فى الأجيال الماضية والاشارة إلى تأليه الانسان القديم لكثير من الظواهر الكونية ؛ بسبب ماكانت تثيره فى نفسه من القلق والرعب، حتى تبين له من تغيرها وطروء الفساد عليها عدم استحقاقها للعبادة . وهو مسلك المنطق السليم فى بلاغة الاستدلال وإلزام الحجة ، ويتكرر القصص ليتكرر معه مايتصل به من العظة وليحكى من جديد ناحية أخرى من الحكمة مع الترقى إلى الاحسان والخروج عن طوق البشر بوجوه الإعجاز « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » . ثم انظر إلى مثل هذا الصنع فى قصة سليمان وبلقيس وما تتضمنه من الدلالة الدقيقة على أصح ما يصل إليه الفكر من فلسفة التشريع والاشارة الصريحة إلى أخطار الاستعمار وإذلاله لعزة الشعوب حين يحكى القرآن استشارتها للملأ من قومها بعد ما جاءها كتاب سليمان بالدعوة إلى الاسلام إذ تقول : « يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين » فترى كيف وصف القرآن قيمة الأثر الناشىء من تقدير الملك لشعبه باحترام رأى الملأ من قومه وما يثيره من عواطف الطاعة المنطوية على أكمل صور المحبة من الرعية لحاكمها بما يترتب عليه طبيعة مثل هذا الجواب الحكيم فيما وصفوا به أنفسهم من القوة وشدة البأس وأخذ الأهبة الكاملة لامتثال ما يؤمرون به فى خلوص نية ومضاء عزم . ذلك هو دستور الحياة التى تتسابق الأمم إلى صيانته واختيار الأصلح للبقاء من أوضاعه . وجاء بعد هذا البيان البليغ بذكر بشاعة الاستعمار ووصف جرائره على حياة الأمم فى قوله : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » . وحسبك أن تكون لك عين ترى وأذن تسمع لتدرك فظائع المستعمرين فى استهلاكهم لثمرات الأمم واسرافهم فى الجناية عليهم بما تقشعر منه الجلود وترتعد الفرائص له . ثم يختم هذا المقطع البليغ بقوله « وكذلك يفعلون » تقريراً لشمول هذا الحكم لطبقات البشر على الزمان كله مما لا يعقل صدوره إلا

عن العالم بما كان ومالم يكن ، مما تتقلب فيه صور الحياة وطبائع الأمم . ولقد كنا فى غنى عن الاستدلال على فساد هذا الوهم لولا إشفاقنا أن يتأثر به نفر من المخدوعين بمباحث هؤلاء العلماء الذين يقلدونهم فى نشر هذه السخافات من غير كبير نظر ، كمن لا يعلم عن نشأة الاسلام شيئاً ، ولا يعرف عن صاحب الدعوة قليلا ولا كثيراً . وكأنهم لايشعرون بآثار الثقافة الاسلامية فى مدنية العالم الحديث .

وقد اخترنا أن نذكر قصيدتين من أشعار أمية بن أبى الصلت القصصية ، ونضع إلى جانبهما مااشتمل على معناهما من القرآن لنحقق الدليل على ماأضافه هذا العالم إلى نفسه أو على ماتصف به من فساد الذوق وخطأ البحث . والقصيدة الأولى تتضمن قصة إبراهيم ونذره لله أن يذبح أحد ولديه إسحاق أو إسماعيل قال :

ولإبراهيم الموفى بالنذ ر احتساباً وحامل الأجزال
بكره لم يكن ليصبر عنه أو يراه فى معشر الأقتال
يابنى : إنى نذرتك لله شحيطا فاصبر فداً لك خالى
فأجاب الغلام أن قال فوه كل شىء لله غير انتحال
أبتى : إنى جزيتك بالله تقياً به على كل حال
فاقض ماقد نذرت لله وا كفف عن دمى أن يمسه سربالى
واشدد الصفد أن أحيد عن السكين حيد الأسير ذى الأغلال
بينما يخلع السرابيل عنه فكه ربه بكبش جلال
قال : خذه وأرسل ابنك إنى للذى قد فعلتما غير قالى

وظاهر من هذه الركاكة فى نظم القصة وما اشتملت عليه من الكلمات النابية والقوافى القلقة الفرق البعيد بينها وبين ماتضمنها من القرآن . فمثل قوله « وحامل الأجزال » و « أن قال فوه » و « فداً لك خالى » وغير ذلك مما أعرضنا عن ذكره بالغ كما ترى إلى الغاية فى الرداءة والنفور من صفات البلاغة والدقة المزعومة . ونحن نسوق نص الآية ونجعله وحده بمثابة التعليق والرد على هذه الدعوة الكاذبة ، قال الله تعالى فى الحكاية عن هذه القصة من سورة الصافات : « وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه

السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى : قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم) .

وهذه القصيدة الثانية يذكر فيها قصة مريم وعيسى يقول :

وفى دينكم من رب مريم آية	منبئة والعبدِ عيسى بن مريم
تدلى عليها بعد ما نام أهلها	رسول فلم يحصر ولم يترمرم
فقال ألا لا تجزعى وتكذبى	ملائكة من رب عاد وجرهم
نبى وأعطى ما سئلت فإننى	رسول من الرحمن يأتيك بابنم
فقالت له : أنى يكون ولم أكن	بغيا ولا حبلى ولا ذات قيم ؟
أأحرج بالرحمن إن كنت مسلما	كلامى فاقعد ما بدالك أوقم
فسبح ثم اغترها فالتقت به	غلاما سوى الخلق ليس بتوأم
بنفخته فى الصدر من جيب درعها	وما يصرم الرحمن ملأمر يصرم
فقال لها : إنى من الله آية	وعلمنى واللهُ خير معلم
وأرسلتُ لم أرسل غوياً ولم أكن	شقيا ولم أبعث بفحش ومأثم

ومع أننا نظن أنه حكى فى هذه القصة صورتها فى القرآن فأنه تخلف فى أدائها وقوافيها إلى ما يجعلها غير جديرة بأن تقابل بكلام أهون الناس شأنا فضلا عن القرآن . فقوله « والعبد عيسى بن مريم » و « رب عاد وجرهم » و « يأتيك بابنم » و لاذات قيم » مع ركاكة الأسلوب وظهور القلق والضعف ، كل ذلك كاف لوضع هذا الكلام مع الانواع الرديئة من كلام ضعفاء البلاغة . ولا نجد فى الرد على ماينسب الى هذا الكلام من الدقة فى الأداء عن القرآن أبلغ من سياقة نص الآيات المشتملة على هذه القصة وهى من سورة مريم .

« واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا . قالت أنى

يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً . فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

وبعد فأين الذين استجابوا لأمية بن أبى الصلت أو سواه حتى يقاس برسول الله أو يضاف شعره إلى القرآن وهو لم يسلم حتى من عقوق أبنائه ، وقد شكا ذلك فى شعره . والله قد جعل لمحمد رسوله من صفاء الروحانية وقوة النفس ماكان به يحول طبائع الناس ويبدل ما فى جبلاتهم من الإباء إلى الطاعة ومن البغض إلى المحبة ومن الكفر إلى الإيمان ، حتى بلغ بأتباعه أنهم كانوا يحبونه أكثر من محبتهم لأنفسهم وأبنائهم ، ولقد عذبوا فى سبيله وأوذوا وقاتلوا وقتلوا وأخرجوا من ديارهم ولم يزدهم ذلك إلا استمساكا به وإيمانا بشريعته ومضيا على الجهاد معه حتى بلغ الكتاب أجله ، وضرب الدين بجرانه ، وخفقت أعلام المسلمين على آفاق البلاد ، وأصبحوا قادة العالم وسادة الأرض . وما ترى الأمم الأجنبية تشجى بشىء الآن أكثر مما تراه من تطلع الأمم الإسلامية إلى مجدهم الذاهب ، وشعورهم بالحاجة إلى استرداد عظمتهم الماضية ؟

محمد هاشم عطية

صفحة من العاطفـــة

بكاء العرب للشباب

بقلم الأستاذ عبد اللطيف المغربى
المدرس بمعهد التربية للبنات

الشباب من الحياة : بسمتها الواضحة . وخفقتها اللائحة ، وربيعها الموشى . وأماها المرجى . وكوكبها اللامع . ونورها الساطع . وزهرتها الناضره . وحليتها الساحره . ورمزها الصادق . وقلبها الخافق . وتحيتها للوجود . ونغمتها العذبة فى أذن كل موجود . ورداؤها الضافى . ومعينها الصافى . وعبقتها العطرة . وغايتها المدخرة . ووثبتها الفتيه . وأنشودتها الشجيه . به تَجُمّ الأحلام . وتحلو الآلام . وتهون الصعاب . وتحفل الرغاب . وتمرح النفس وتطرب . وينشط الجسم ويخصب . وإن شئت فقل هو الحياة . أو ليست الحياة شيئا سواه !

عرف العرب ذلك منذ عصورهم الأولى فرحوا فى ظلال الشباب . ونعموا بأيامه . وتضوه حلما رائعا حافلا بمالهم من أحلام وآمال . وسعدوا به عصراً متدفقا بما عندهم من حقيقة وخيال . حتى إذا انحسرت بشاشته . وتقلصت ظلاله . وأفلت نجومه . ودرست أعلامه . أشرفوا بعده على مطلع هائل . يملأ النفس حسرة ويذكى فى القلب ضرام الأسى واللوعة . مطلع وراءه قرب المصير . وطى صفحة الحياة . مطلع تنشب فيه الحرب قوية عاتية بين الرجاء واليأس . والقوة والضعف . والعزيمة والخور . والحياة والفناء — حتى يأذن ربك بأن تضع الحرب أوزارها فى نهاية الحياة وأول مراتب الفناء — ذلك المطلع الرائع « هو المشيب »

عرف ذلك كله العرب فتأثرت به نفوسهم . وخفقت له قلوبهم . واضطرب له وجدانهم وشعورهم . فراحو يبكون الشباب بأصدق ما يبكى به عزيز .

ويودعونه بأجمل مايودع به راحل. وترا كضوا فى ميدان ذكرياته. يتهالكون أسفا ووجداً عليه. وتشوقاً وحنينا إليه. وجادوا بأقوال خالدة فى بكائه لاتحسبها إلا ذوب العاطفة. أو مهج القلب. أو نسيج الشعور. أو ذماء النفوس. وإذا سمعت باكيهم على الشباب أو متفجعهم سرت فى نفسك هزة تخامر منك شغاف القلب، وتجرى فى مسالك الروح. فلا تتقيها إلا بدمعة مسفوحة. أو أنة مرسلة. وأشرفت معه على الماضى المحبب ملتاع النفس. مضطرب الفؤاد. جم الأسى — ولا بدع فى ذلك فأنت أحد رجلين: رجل لقى المشيب كما لقيه الباكى فشركه فى مصابه، فكأنه يصوغ خلجات قلبه، وينظم فيض عاطفته. ويبكى بعينه. وينطق بلسانه. ورجل تخب به الأيام. فهو يتوقع مصير صاحبه. فالنفس منه قلقة. والقلب واجف.

ولقد غنى الأدب العربى من بكاء الشباب بأقوال كثيرة ممتعة يصعب جمعها، ولعل هذه الناحية العاطفية أحفل نواحى العاطفة بالقول. وفى هذا الرأى نستأنس بقول الأصمعى «ما بكت العرب شيئا كما بكت الشباب»، ونسوق إلى القارئ الكريم بعض صور تمثل هذه العاطفة ونبدأ بها هينة هادئة متزنة ثم نصعد بها فى القوة والعنف.

(١) قال عدى بن زيد:

بان الشباب فما له مردود   وعلى من سمة الكبير شهود
شيب برأسى واضح أعقبته   من بعد آخر بات وهو حميد
ولقد بكيت على الشباب لو انه   كان البكاء به علىّ يعود
ليس الشباب وإن جزعت براجع   أبداً وليس له عليك معيد

ترى الشاعر فى قوله فزع على الشباب ولم يطل فى الفزع حتى ذكر أنه لامرد له. ثم عرض للشيب فأبان أنه أضحى بديلا من الشباب المحمود. وذكر أن البكاء غير مجد وأن الجزع لايفيد ولا يعيد الشباب على فاقده معيد. وذلك نوع من التأسى واليأس المريح.

(٢) ويقول الأحوص :

بان الشباب فما له تحويل ومضى الشباب فما إليه سبيل
ولقد أرانى والشباب يقودنى ورداؤه حسن على جميل
وعلى من ورق الشباب وظله غصن تفرع فى الغصون ظليل
بشر يكون من الحرير ولمة مثل الجناح وعارض مصقول
فاليوم ودعنى الشباب كأننى سيف تقادم عهده مفلول

وهذه قطعة عذبة رائعة تموج بذكريات الشباب المرحة . وتفتر عن ألفاظ رائعة تتسلسل فيها عاطفة هادئة مؤثرة . وتنتهى ببيت رائع التشبيه محكمه صادقه .

(٣) وترقى العاطفة قليلا فى قول كعب بن زهير :

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ولا أرى لشباب ذاهب خلفا
عاد السواد بياضا فى مفارقه لا مرحباها بذا الشيب الذى أزفا
فى كل يوم أرى فيه مبينة تكاد تسقط نفسى عندها أسفا
ليت الشباب حليف لايزايلنا بل ليته ارتد منه بعض ماسلفا

وقد وصف الشاعر ذهاب الشباب واقبال الشيب وهو لايرى خلفا من الشباب فلهذا لايرحب بالشيب الذى خلفه والذى يرى كل يوم منه ظاهرة تكاد نفسه تسقط لرؤيتها أسفا وجزعا . وتمنى أن لوكان الشباب حليفا له وكأن رأى أن هذا مطلب عسر فتمنى أن يعود بعض الشباب إليه ، وهذه العاطفة تشعرك برحمة قوية لهذا الشاعر المحزون .

(٤) ثم يأتى خشرم بن زيد البلوى فيقول :

ذهب الشباب وليته لم يذهب ونعى الشباب مخبر لم يكذب
فاندب عشيات الشباب ولا أرى مثل الشباب مفارقا لم يندب
إن الشباب أخ متى لا تلقه تنزل بساحتك الهموم وتنصب
بينا الشباب تسرنا أيامه ونشوب لذته بعيش معجب
نزل المشيب وقال حانت عقبتى وأخال أنى سائق بك فاركب

وقد قويت عاطفة الشاعر فى هذه القطعة ففزع على الشباب وذكر أن مخبرا صادقا قد نعاه فلا شك فى فراقه . فدعا إلى ندبه . وذكر أن الناس غفلت عن ندب

الشباب وأنه لم ير مفارقا مظلوما لم ينل حظه من النـدبة مثل الشباب . وصوره أخا إذا فارق الانسان حلت بساحته الهموم والآلام . وبينا الانسان معجب بالشباب ممتع به إذ حل المشيب وقال : هذه عاقبتى فاركب فأنى سائق بك الى وادى الفناء . وهذه المعانى تشع منها عاطفة جزع وحزن عميقة — ولا نريد أن نسترسل فى ميدان بكاء الشباب ، فذلك مالا سبيل اليه فى كلمة موجزة . ولهذا نسمعك صوتا للعاطفة المتقدة فى بكاء الشباب ، فأرهف لها سمعك واشدد على قلبك .

(٥) قال تميم بن مقبل العامرى :

ياحر أصبحت شيخا قد وهى بصرى	والتاث ما دون يوم الوقت من عمرى
يا حر من يعتذر من أن يلم به	ريب الزمان فانى غير معتذر
يا حر أمسى سواد الليل خالطه	شيب القذال اختلاط الصفو بالكدر
يا حر أمست تليات الصبا انقطعت	فلست منها على عين ولا أثر
قد كنت أهدى ولا أهدى فعلمنى	حسن المقادة أنى فاتنى بصرى
كان الشباب لحاجات وكن له	فقد فزعت إلى حاجاتى الأخر
راميت شيبى كلانا قائما حججا	ستين ثم انتضينا أقرب القتر
أرمى النجوم فأشويها وتثلمنى	ثلم الاناء فأغدو غير منتصر
قالت سليمى بجنب القاع من مرخ	لا خير فى العيش بعد الشيب والكبر

فانظر إلى مافى هذه القطعة الخالدة التى تعج عجيجا بالألم والحسرة وتضطرب فيها العاطفة بألوان من الأسى والذكريات الجميلة وكأنها صادرة من وحى نفسك معبرة عن أصدق تفجعك على الشباب . وانظر الى الشاعر حيث انتهى فيها الى قول سليمى : « لا خير فى العيش بعد الشيب والكبر » تحس الكثير مما انطوت عليه نفس الشاعر من ألم وتفجع .

عبد اللطيف المغربى

الوقائع المصرية

للأستاذ محمود مصطفى

المدرس بكلية اللغة العربية

صحبت هذه الصحيفة « الوقائع المصرية » نهضتنا الحديثة منذ بزوغ فجرها أيام محمد على باشا ، وقدر لها أن تعيش إلى اليوم . فكانت وقد طال عمرها على غير ما نعهد فى الصحف ، صورة للحياة المصرية ، والأدب العربى فى هذه المدة الطويلة وهى قرن وتزيد .

يلذ الباحث فى الحياة المصرية أن يقلب صفحات هذه الصحيفة ليرى كيف كانت علاقة الحاكم بالمحكوم ، وصلة الولاة بالرعية . وليعرف تلك الروح التى كانت تسرى فى الحياة إذ ذاك ، من جد وصراحة وحزم وتدبير ، وليطلع على تلك الأوامر التى لا تفتر فى شأن « معامل الحرير » و « مزارع التوت » و « مصانع الغزل » ، وليرى المراسلات المتصلة بين رياسة الجيش ومديرى هذه المصانع فى كل ما يتعلق بمطالب الجيش : من أردية وأحذية للجند ، وسروج ولجم للخيل .

صفحات الوقائع المصرية على قلتها فى بدء حياتها ، بحر زاخر بما كان يجرى فى الحياة المصرية من أمور ، وما كان فيها من تدبير ، وفى كل ذلك على كثرته ترى روح الوالى حاكم البلاد مطلة فى كل تصرف ، ظاهرة فى كل حادث . يعرض على مسامعه الكريمة ما يكون من أحوال الموظفين حتى صغار الكتبة . فهذا يستحق أن يزاد فى راتبه مئة قرش لجده . وذاك يقتطع منه منجما ما يكون قد بدا من عجز فيما تحت يده من مال الدولة . وذلك يقصى عن منصبه لفتور فى الخدمة وتقصير فى الواجب ، وغيره تدل الأيام على عظيم كفايته فيسند إليه عمل أجل مما كان يتصرف فيه . وهذا الأجير بالمياومة يشكو فتحل شكواه من عناية ولى الأمر محلا لائقاً ويرى ضرورة إنصافه فيبلغ به غاية الرضا .

وفى هذه الصحيفة ترى أقدار الناس فى مصر ظاهرة واضحة ، يدلك على ذلك خبر سيق فى الصحيفة عرضاً ولكنه يحمل فى نفسه ما كان يحمله ذلك العصر

لطائفة من الناس من التجلة والأكبار ، فيكون ذلك الحادث أو الخبر الصغير فى نظر المؤرخ مادة يبنى عليها آراءه ويشيد قواعد أحكامه على تلك الفترة من الزمن

ومن ذلك ماورد فى أحد أعداد سنة ١٢٤٩ ﻫ تحت عنوان «حوادث المشورة الملكية » وهو : « حضرة نجل الشيخ المهدى قدم تقريراً للديوان الخديوى وأحيل على المشورة الملكية ذكر فيه أن ملتزم كمرك بولاق حجر على أشياء من ماله ليأخذ الكمرك منها ولما كان أخذ الكمرك من الأشياء التى تأتى بيوت أهل العلم من ملبوس ومأكول غير مسبوق به طلب أن يصدر أمر للملتزم المرسوم بتسريح الأشياء المذكورة وحيث أن مساعدة أمثال هؤلاء العلماء العظام من مقتضيات الإرادة السنية حرر إشعار إلى ملتزم الكمرك بأطلاق الأشياء التى عنده المتعلقة بالشيخ المومى إليه وأشعر جنابه بذلك » .

وفى هذا الخبر بيان لمقدار علماء ذاك الزمان فى نظر الحكومة وما لهم من كرامة جعلت لهم هذه الميزة التى لا يتمتع بها الآن إلا الوزراء المفوضون تكرم الحكومة المصرية فى شخصهم حكوماتهم التى يتبعونها وتلك منزلة سامية لعلمائنا تدل أوضح دلالة على مقدار الرعاية والعناية التى تبعثها فى نفس الحكام مكانة هؤلاء العلماء بين عامة الشعب.

الغرض من اصدار الوقائع المصرية

هو الغرض الذى تقصده اليوم أرقى الشعوب من إصدار الصحف . وقد حاولت إدارة الوقائع أن تحقق ذلك الغرض ولكن كان على حسب ماسمح به الوقت وأمكنت الأسباب .

والذى يدلنا على أن تلك الأغراض قامت فى نفس أولى الشأن يوم أصدروا الوقائع ، ماتراه فى أول عدد من أعدادها وهو الذى صدر فى يوم الثلاثاء ٢٥ من جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ ﻫ الموافق ٣ من ديسمبر سنة ١٨٢٨ م . ففى كلمة الافتتاح تبين الحكومة السبب فى إصدار الوقائع المصرية . ولهذه الكلمة أهميتها فهى أول قطعة أدبية أو نموذج إنشائى فى لغة الصحافة العربية عامة ؛ إذ قد ظلت الوقائع إلى سنة ١٨٥٨ وليس فى العالم العربى كله صحيفة سواها .

وتلك هى الكلمة (١) :

الحمد لله بارئ الأمم ، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم . وبعد فإن تحرير الأمور الواقعة من اجتماع جنس بنى آدم المندمجين فى صحيفة هذا العالم ، ومن اختلافهم فى حركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم ، التى حصلت من احتياج بعضهم بعضا ، هى نتيجة الانتباه والتبصر والتدبير والإيقان وإظهار الغيرة العمومية ، وسبب فعال منه يطلعون على كيفية الحال والزمان . وهذا واضح لدى أولى الألباب . ومن حيث أن الأمور الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقى أنواع الصنايع التى باستعمالها يتأتى الرخاء والتيسير ، هى أسباب للحصول على الرفاهية وعلى الاجتناب والاحتراز مما ينتج منه الضرر والأذا (كذا) خصوصا فى مصر ، بل هى أساس نظام البلدان وتدبير راحة أهلها . ففكر حضرت (كذا) أفندينا ولى النعم فى ترتيب أحوال البلاد وتمهيدها واعتدال أمور أهلها وتوطيدها وفى نظام القرى والبلدان ورفاهية سكانها وراحتهم ، ووضع ديوان الجرنال قاصدا من وضعه أن ترد الأمور الحادثة الناتج منها النفع والضرر إلى الديوان المذكور . وأن ينتخب وينقح فيه منها ما منه ينتج النفع والإفادة ، حتى إذا ظهر عند المأمورين نوعا النفع والضرر ينتخب ما منه تصدر المنفعة ويتجنب عنه ما منه يحصل الضرر . وهذه الإرادة الصالحة الصادرة من حضرة سعادة ولى النعم وإن كانت قد جرت فى ديوان الجرنال إلى الآن إلا أنها لم تكن عمومية . إنما الآن فأراد ولى النعم أن الأخبار التى ترد إلى الديوان المذكور تتنقح ، وينتخب منها ما هو مفيد ، وتنشر عموماً مع بعض الأمور التى ترد من مجلس المذاكرة السامى . والأمور المنظور بها فى ديوان الخديوى ، والأخبار التى تأتى من أقطار الحجاز والسودان ، ومن بعض جهات أخرى . وذلك ليكون كله نتيجة للحصول على الفوائد الحسنة التى هى مقصود ولى النعم ، وتقويماً لممارسة المأمورين الفخام

---

(١) يلاحظ أن كتابة ذلك العهد ظلت بلا ترقيم ولا تنسيق ، ولكننا لم نرد أن نعرض على القارىء صورة لم يألفها حتى لا يعنت بقراءتها ، فأدخلنا على هذا القطعة الترقيم الذى هو حسنة من حسنات الكتابة فى عصرنا الأخير .

وباقى الحكام الكرام المقلدين تدبير الأمور والمصالح. ومن كون هذا الشىء قد لاح فى ضمير الذات السنية ولى النعم صدر أمره الشريف بطبع الأمور المذكورة وانتشارها عموما مستعينا بالله. وقد سميت واشتهرت بالوقائع المصرية، وبالله حسن النية.

بعض أغراض الوقائع المصرية

كان من بين أغراض الوقائع المصرية تقيد الأخبار الغريبة عن عجائب المخلوقات وما قصدوا من إيرادها إلا تذكير الناس بقدرة الله سبحانه وتعالى وسيطرته على هذا الوجود بخلق مايشاء كما يشاء. إنه على كل شىء قدير. ومن ذلك ماورد تحت عنوان «غريبة» من أن رجلا من أهالى بولاق لما حان وقت نتاج بقرته وتعسر ذلك عليها شق بطنها فخرج عجل له رأسان وأربع عيون وأربع آذان ولكنه لم يبق إلا ساعات ثم مات فقدده الرجل وعلقه فى محل مشهور عبرة للناظر. قالت الصحيفة: (واذ بلغ ذلك مسامع عزيز مأمور الوقائع المصرية قيد ذكر ذلك بها فسبحان من تحير ذاته وقدرته سواه).

مثال فى جرائمهم

وقد ورد ببعض الأعداد أن قدرى أغا أخا حسن بك القبرصى بعد أن تزوج بابنة حسن أفندى الدمنهورى زعم (بخفة عقله) أن لها مالا موروثا لم تطلعه على دخيلته فطالبها به فأنكرت فمثل بها بأن جدع أنفها مرة ثم استمرت منكرة فقطع أذنها وفى مرة ثالثة قطع شفتها السفلى وبدىء التحقيق فاعترف المجرم بجريمته قائلا (قد اقتديت بالشيطان وفعلت هذا) فألقى فى السجن ثم صدر الأمر العالى بأن ينفى الى نواحى بلاد الروم بعد أن طلقت زوجه منه.

المن على الأهالى

هذا غرض جسيم من أغراض الصحيفة وإن لم يذكر فى ثَبْت أغراضها التى وردت فى الكلمة السابقة. فإنك تراه ماثلا فى كل خبر يرد بها حتى حركات

الوالى وانتقاله من جهة إلى أخرى يحمل فيها الأهالى عبء المنة عليهم بأن ذلك كان من أجل توفير السعادة لهم .

فأذا ذكروا أن قصر المحلة المخصص لنزول الخديو محمد على باشا محتاج إلى بعض الحجارة لبنائه قدموا لذلك بقولهم :

« إنه من حيث إن الارادة السنية هى بلا شك حصول الراحة والرفاهية للعباد ، واعتدال أمور القرى والبلدان ونظامها اقتضى السير والجولان من الذات الكريمة الى القرى الكائنة فى الأقاليم التى يمكن أن يتشرف بعضها بقدومه . فمن هذه الحيثية لزم أن تبنى قصور ومحلات لتشريفه . . » وإذا ذكروا أن الكراءات (سفن الطين كما كانوا يسمونها) التى تعمل فى ترعة المحمودية محتاجة إلى الاصلاح . قدموا لذلك بهذه المقدمة :

« إن ترعة المحمودية التى أنشتها الهمة العلية السنية نعما مترادفة لأجل راحة أهالى الاسكندرية ورفاهيتهم ، ولأجل تسهيل بضائع التجار الواردة والشاردة ، ولأجل تيسير أمور الحجاج فى دخولهم وخروجهم ، قد يلتصق ويتمسك بأرضها عند زيادة النيل طين ووحل كثير . . . . »

واذا احتاج مصنع الغزل الى زجاج لنوافذه ورد فى الصحيفة التبليغ الآتى :

« إنه لتيسير أسباب التجارة وتحصيل معايش الأهالى أنشىء فبرقة الغزل فى ناحية ملوى . وقد اقتضى إلى شرايح شبابيك المحلات الكائن فيها التشغيل إرسال ثمانمائة آلاف زجاجة (أى قزازة) واتضح ذلك من مامورها الى عيد افندى ناظر الأبنية . فمن ثم أرسل له من ديوان الأبنية ثمانمائة آلاف زجاجة كما هو معلوم . . . »

وأرى أن هذا المن أحلى فى ذوقى من المن وأبرد وقعا على كبدى من البارد العذب . فهو مَنٌّ بخير محقق ، وتسجيل لنعمة جليلة الأثر ، فأين هذا من منّ بعض الناس بما لا خير فيه بل بما فيه الضرر البالغ ، والعقوق للمروءة والأمانة . على أن فى طبيعة الناس إنكار الجميل وجحود الفضل أفلا نبيح لأهل الاصلاح

الحق والنعمة الثابتة أن يسجلوا علينا نضالهم ويعرضوا على المنصفين ولو من غير جيلهم ماقدموا من إحسان

هذا إلى أن شأن مصر مع محيي مواتها ومجدد شبابها محمد على باشا هو شأن غير بقية الشؤون فأنه إن سكت تكامت أعماله ولكنه ككل المصلحين يريد (كما غرس شجرة القطن بأرض مصر) أن يغرس محبته فى قلوب المصريين . فلا بأس إذا مهد لذلك بالأعمال الطيبة وتفهيم الناس ناحية الخير فيها والنبات الصالحة التى تقدمتها ودعت إليها .

وإننى لأفهم فى هذا المن معنى آخر غير كونه منا وتذكيرا بالنعمة وتسجيلا لها ، فهو قبل أن يكون منا بالنعمة كان بيانا لقيمتها وتوضيحاً للغرض منها. يشرح ذلك لقوم غلبهم الجهل على أمورهم ورزحوا من الماضى البشع تحت أطباق تتراكب فيها الظلمات فلا يدرك أحد ما تحت قدمه لطول ما أثرت الظلمة فى إضعافه . وظنى أن المصريين على عهد محمد على باشا لو لم تشرح لهم قيمة القناطر الخيرية وميزة ترعة المحمودية لظنوها طلسما ولم يفقهوا لها غاية .

الوقائع المصرية فى نظر مؤرخ الأدب

هذا جانب آخر من الجوانب التى يستجليها متصفح هذه الصحيفة وهو جانب يطول فيه القول ويحسن التفصيل لتثبت لدارس تاريخ الأدب حقائق ترجع إلى الدراسة الممعنة فى هذا الأثر الجليل .

والحق أن الذى نقرؤه إلى الآن فى كتب الأدب عن هذه الصحيفة لا تؤيده شواهدها ولا يدل على أن قائليه والحاكين به صدروا فى حكمهم عن اطلاع ذاتى على هذه الصحيفة وتقليب النظر فيما وقع بأيدينا من مجموعاتها .

قرأت فى بعض الكتب التى تحدثت عن هذه الصحيفة أنها كانت تصدر أولا بالتركية ثم صارت تصدر بالعربية . وهذا قول لعلهم استنبطوه استنباطا من كون التركية كانت فى أول عصرنا الحاضر هى ذات الشأن والسيطرة فى الحكومة المصرية . وقد يكون لهذا الحكم العام نصيب من الصحة تمثل فى نواح

أخرى غير الوقائع المصرية فإنها منذ أول صدورها كانت تصدر بالتركية والعربية : كانت الصفحة الواحدة تجعل نهرين فالأيمن بالتركية والأيسر بالعربية . والذى فى هذا هو معنى مافى ذاك . وهذا متجل ظاهر لأول نظرة فى أول عدد . فلو أن مصدر هذا الحكم كلف نفسه الذهاب إلى دار الكتب المصرية واطلع على مجموعة الوقائع هناك ما كان منه هذا الحدس الخاطىء

كذلك يذكرون تطبيقا للقاعدة العامة وهى أن لغة الكتابة كانت مسجوعة محشوة بأنواع البديع وإن لغة الوقائع المصرية كانت بهذه المثابة حتى حررها من هذا الأسر الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده حين تولى الكتابة فيها وهذا أيضا حكم خاطىء طبقت فيه النظرية العامة تطبيقا لم يراع فيه نصيب الحقيقة والواقع . والذى يراه المطلع على الوقائع المصرية فى نصف القرن الأول من صدورها أن لغتها ليس فيها شيء من التكلف الذى يبدو فى لغة الرسائل أو الأدب الفنى (كما يقولون) فى ذلك العصر . فهى عبارة ساذجة خالية من كل تحسين لا يراد منها إلا أداء المعنى وإقراره فى نفس القراء ، وإن كان يحول دون ذلك ضعف الكتاب وركة أسلوبهم حتى يلتوى عليهم القصد فى حين ، ولا يستطيعوا أن يكشفوا عن كل غرضهم فى كثير من الأحيان . فأنت إذا قرأت عباراتهم خيل اليك أنك أمام عيي يحاول أن يفهمك مافى نفسه ولكنه غير مستطيع الوصول إلى هذا برغم اجتهاده . ولما بدأ يكتب فيها الأستاذ الامام يحس المتتبع لهذه الصحيفة أن هذا العيي قد يسر الله له القول وحل عقدة لسانه فصار يبسط لسانه فى كل مايريد ويصل فى الأفهام الى قرارات النفوس لا يترك فى نفسه أو فى نفس القارىء حاجة إلا أتى عليها

ذلك ما أردنا التنبيه إليه وهو أن يعتمد مؤرخ الأدب على حكم نفسه بعد أن يكون قد تذرع بكل الوسائل لهذا الحكم من أدلة وشواهد ، فان الله سيفتح عليه بالصواب فى حكمه إن كان قد وهب له من الجدارة وحسن التقدير ما يجعله أهلا للاستنباط .

وفى سبيل الاستدلال على أن السجع لم يكن ظاهرة التعبير فى لغة الوقائع

المصرية منذ نشأتها ننقل هذا الخبر الذى حاول فيه الكاتب أن يحلى عبارته ويزينها ويجعلها مثالا للكتابة الفنية ، ولكنه لم يخطر على باله السجع . وذلك فى عدد ١٠ شوال سنة ١٢٤٨ ﻫ تحت العنوان الآتى :

حوادث المشورة العسكرية

لما كانت نواحى كردفان منذ ألحقت بالحكومة المصرية ودخلت تحت رعايتها قد صار أهلوها مرهفين الحال منعمين البال فى ساحة ظل سعادة الخديوى وكان حواليها جبال خالية من السكان قد توطن بها جماعة من الخلق اتخذوا سلوك سبيل الشقاوة ديدنا وانطووا على نية إيصال الضرر إلى الذين هم تحت الطاعة ورفعت مضرتهم واقتلعت عروقهم . ثم بعد ذلك أخذ بعض أشقيائهم يسلك سبيل الضلال وبعضهم يرتكب قطع الطريق وكانت قبيلة حلال ممن سكن هذه الجبال وخرج من دائرة الطاعة وخلع ربقة الانقياد وبرز فى حومة العصيان وهم لم يقصدوا مع ذلك بالضرر ، أرسل رستم بك أمير الآلاى الأول من المشاة المقيم بكردفان إلى كبراء القبائل بترك هذه الأفعال القبيحة إذ هى طريق لا يسلك وفهمهم أن يشتغلوا بالطاعة والأدب حيث كان ذلك موجبا للفلاح فأصروا على عصيانهم ولم يستمعوا للوصايا الواقعة منه . فرجع الأمير المومى إليه إلى طبيعته الرسمية وجهز سليم أغا البكباشى الثانى من الآلاى المذكور بنحو سبعمائة رجل من عسكر الجهادية أصحاب الفوز والظفر وأرسله على هؤلاء الأشقياء فسار إليهم البيكباشى المومى إليه بمن معه من العسكر الموعود بالنصر متوكلا على الله ومستنداً لتوفيقه ولما أن حصلت الملاقاة تصدى للمحاربة وعلى مقتضى مظهر طالع النصر الباهر لحضرة الخديوى بامداد الله الملك القاهر وإعانته لجيوش الجهادية ذوى الظفر ظهر نور طالع النصر الزاهر . ولما لم يكن لهؤلاء الأشقياء طاقة على نار العسكر المنصور ارتفعت إلى السماء زلازل فرارهم وسلك بعضهم مسلك الفرار وصار أكثرهم فى قيد الأسار ، اعتبر رئيس هؤلاء الأشقياء وفرغ باله من الفعل المكروه الذى ارتكبه وأرسل عمه طالبا محو سيئاته من دفاتر عصيانه

مخبرا بادخال رقبته فى ربقة الانقياد والطاعة وأنه يبذل مائتى عين ممن يصلح لعسكرية الجهادية والتعليمات الحربية وأربعة آلاف مقطع من القماش . ولما كان كل من تشبث بأذيال العفو كائنا من كان تقبل منه توبته . . . فقد خلعت عليه خلعة إكراما له وتأمينا وتأليفا ودخل بعون الله فى زمرة الرعية .

نعم انه بعد سنة ١٢٨٥ ﻫ حين طغى الأدب على الوقائع المصرية كما قلنا ظهر السجع الى جانب الشعر . وإن كانت الوقائع لم تصبح ميدانه الواسع المجال كما كانت روضة المدارس ترفل فى حلله فى كل ما يكتب فيها .

ومما جاء من سجع الوقائع ماورد بالعدد الصادر يوم ٥ من المحرم سنة ١٢٩٠ ﻫ بشأن التهنئة بالسنة الهجرية الجديدة وهو :

فى يوم الجمعة الماضى الذى هو افتتاح سنة ١٢٩٠ الجديدة الهجرية بادر كثيرون من حضرات العلماء الاعلام والأمراء الفخام والمعتبرين الكرام الى سراية عابدين البهية ، بالصفة غير الرسمية ، وتشرفوا بالدخول فى حضور الحضرة الكريمة والخديوية بناء على الرخصة السنية وأدوا الرسوم الحسنة فى التهنئة بدخول تلك السنة ثم عادوا مسرورين ، ومن تلك الحضرة الفخيمة ممنونين . أبقاه الله الى كل عام ، بمزيد الإجلال والإعظام . وفى ذلك ورد ممن يعجز اللسان عنه أن يفشى محاسن شمائله لأنه يقف لديها كل منشى من أصبحت درر منظومه كالقلادة لجيد هذا العام أو الوشاح للخصر ، حضرة الجناب الأكرم السيد على أبى النصر . هذه التهنئة السنوية المتشرفة بمحامد الحضرة الخديوية قال :

أراك أراك الحى تحمل غردا فهل كلما غنتك تذكر خردا

اجتماعيات العصر الماضى

ولا يفوتنا وقد وصفنا قلم الشيخ محمد عبده فى الوقائع المصرية أن نذكر مثالا من كتابته ، ورد بالعدد ١١١٦ بتاريخ مايو سنة ١٨٨١ تحت عنوان : « عوائد الأفراح »

* * *

إن أبوى البعل هما اللذان يختاران فى الغالب زوجة لولدهما غير ملاحظين فى فى شروط اقتنائها غالبا إلا أن تكون من عشيرة تعادلهم فى الثروة والصيت أو تزيد عنهم فيهما، فاذا ظفروا بذلك سارعوا إلى خطبتها، وإن كانت خبيثة الذات قبيحة التربية، وأكرهوا الولد على قبولها إن لم يتحد معهما مقصدا . ولا يخفى ما فى ذلك من النتائج المضرة بالزوجين معا . ويدفعان من الصداق ما يرضى أبويها ولو حملهما دينا باهظا وكلفهما حملا ثقيلا .

إذا أتى وقت الدخول بها توجهت نسوة ورجال عديدون من أقرباء الزوجة الى منزل الزوج وأخذوا ما يكفيهم من السمن والعسل والقمح والدقيق وغيره (من غير أن تأخذهم شفقة على عويل أهل المنزل وصراخهم) ليعدوه طعاما ليلة الزفاف . وبعد ذلك إذا أراد آل الزوج أن يأتوا إليه بمخطوبته تبعتهم جموع كثيرة : فئة تضرب بالسلاح، وقوم يلعبون بالحطب، وجماعة تتسابق على ظهور الخيل، ولفيف من النسوة والفتيات يترنمن بأصوات يخالها السامع أنها منبعثة عن متوحشات إفريقية الجنوبية . هذا مع اختلاط الذكور بالإناث والصغار بالكبار ، حتى اذا جاءوا بيت الزوجة وأرادوا حملها على الهودج المعد لزفافها ؛ كان دون فتح القاعة التى هى فيها، صعوبات أخفها تمنّع أخيها وخادمها عن فتحها حتى ينقده والد الزوج ما يرضيه من النقود، وكذا يرضى جميع خدم أبيها وحاشيته، وهذا هو المسمى عندهم (باصة) وأما والدة الزوجة فإن كسوتها يبعثها إليها الزوج قبل الزفاف بنحو شهر، على شرط أن تكون مضارعة لكسوة العروسة وإلا ردت اليه وطولب بأثمن منها .

والمقال طويل فيه كما ترى عادات لم نعد نراها بل لم نكن سمعنا بها . ولكن المقام يضيق عن نشره .

مجموعة الوقائع المصرية

إن الأسف ليخالط نفوسنا حين نذكر أن مجموعة هذه الصحيفة فى دار الكتب المصرية غير تامة، بعد ما علمت من كونها مصدر حكم صادق لمؤرخ الحوادث، والآداب، ودارس أحوال الشعوب .

على أن هذه المجموعة مع نقصها أوفى مجاميع تلك الصحيفة فى جميع المكاتب التى عنيت بجمعها، فهى أوفى من مجموعة المكتبة الملكية بقصر عابدين، ومكتبة الدفترخانة بالقلعة.

والموجود بدار الكتب المصرية من سنى هذه الصحيفة هو من سنة ١٢٤٤ﻫ إلى سنة ١٢٤٩ﻫ.

وفى هذه الفترة ترى التركية إلى جانب العربية فى عدد واحد كما وصفنا.

ثم من سنة ١٢٦٢ إلى سنة ١٢٦٤. وفى هذه المدة كانت التركية تنفصل عن العربية فيصدر من العدد الواحد صورتان: إحداهما بالتركية والأخرى بالعربية.

ثم من سنة ١٢٨٥ إلى الآن.

ومن سنة ١٢٨٥ تفاجئنا الوقائع المصرية بمظهر جديد. وهو الصورة التى نراها عليها الآن. وقد كتب فى صدرها كلمة «الوقائع المصرية» بخط الثلث الجميل، ودخلتها العنوانات، ولم تكن بها من قبل فصرنا نجد فيها عنوان «الحوادث الداخلية» و«الحوادث الخارجية». كما طغى فيها الأدب والشعر طغيانا ظاهرا يتمثل خاصة فى المواسم من الأعياد العامة وأعياد الميلاد، ومناسبات الزواج والسفر والقدوم وغيرها من كل ما تحسن فيه التهنئة.

كما صارت تطبع بمطبعة بُلاق بعد أن كانت تطبع بمطبعة القلعة.

الأدب العربى فى الوقائع المصرية

قدمنا لك وصفا عاما لعبارة الإنشاء بالوقائع المصرية. وهى عبارة لم يكن يستطيع أهل هذا العصر أكثر منها فى الدلالة على مرادهم، ولا أقوى فى التعبير عن خلجات نفوسهم. وقلنا إنها عبارة قاصرة ضيقة حرجة يضيق بها صدر القارىء منا حين يرى معانى كثيرة جالت فى نفس الكاتب ولكنها لم تجد من ألفاظه منفذا تطل منه على الوجود. وكم يرثى أحدنا لهذا البكم الذى يعانيه أهل ذاك العصر! ولعلهم فى أنفسهم كانوا مختبطين بإنشائهم مدلين بقوة بيانهم تترنح أعطافهم حين يرددون تلك الأساليب الخربة المتهدمة التى تختنق تحت ردمها تلك المعانى المظلومة التى لم يستطيعوا أن ينفسوا عنها خناقها.

ولكن مع كل هذا الضعف هل فات أدباء هذا الزمان الاجتهاد ومحاولة الكمال إنهم لم يألوا جهدا فى تنقية عباراتهم من شوائب الخطأ النحوى . وتلك ظاهرة عجيبة ، لا تكاد تعثر بغلطة نحوية مع أن ملابسات النقص فى هذه التعابير كانت تحمل على الظن بوقوع كتابها فى كثير من هذه الأغلاط ، ولكنهم اجتهدوا وأدوا ما فى أعناقهم من أمانة علم النحو . وهو كل ما كانوا يعرفون من العربية وآدابها فى أوائل هذا العصر ، وهذا اجتهاد محمود منهم .

العناية باللغة

ومن آثار اجتهادهم ومحاولتهم الكمال ما يراه المطالع لصفحات الوقائع المصرية ، كلما مر بكلمة من العامى أو الدخيل . فانه يرى الكاتب يجتهد فى البحث عن اللفظ العربى الذى يؤدى معناها فيذكره معه ليفهم القارىء أن هذا العامى أو الدخيل يؤدى فى العربية بهذا اللفظ ، كما أنهم يضعون من عند أنفسهم وبوحى حرصهم على العربية وتنقيتها من الأعجمى جهد طاقتهم ، ألفاظاً لمسميات أعجمية وقد يكونون مخطئين فى هذه المحاولات ، ولكنهم مشكورون مهما بعدوا عن الصواب ، للنيات الطيبة التى تمثلت فى هذه المحاولة .

فمن ذلك تفسير الخراسان بدقيق الخزف (١) والقزازة بالزجاجة والجلاّبين بالنخاسين ، والعسل بالدبس (٢) . كما وضعوا كلمة سفن الطين للكراكات ، وكذلك المساجلة بدل الشدف (٣)

---

(١) هذا خطأ فإن الخزف ما اتخذ من الطين ، أحرق بالنار حتى صار فخارا وليس هو المرادف لكلمة خراسان .

(٢) أرادوا بذلك الدلالة على خطأ الناس فى استعمال كلمة عسل فيما يتخذ من عصير القصب مثلا فإن صوابه الدبس لأن الدبس عسل التمر ونحوه . فأما العسل فهو خاص بما يجمعه النحل فى خلاياه .

(٣) حقا إن الشدف ليس فى اللغة بمعنى نقل الماء من الترعة إلى الأرض بهذه الآلة المعروفة باسم الشادوف والدالية يؤدى هذا المعنى اذ هى الدلو كما تؤديه كلمة منزفة

الشعر فى الوقائع المصرية

أول شعر تقع عليه العين فى هذه الصحيفة هو بيتان ذيلت بهما أخبار عيد الفطر عام سنة ١٢٤٤ وكان أول عام أجريت فيه مراسم التشريف . فإن ولى النعم أمر أكابر دولته أن يتسربلوا بلباس كلباس العساكر وجعل لهم عشر مراتب يتميز بها بعضهم عن بعض وأمرهم أن يضعوا على كسوتهم حسب مقدرتهم ماسا وذهبا علامة على أنهم حازوا لديه شرفا . فتم ذلك ودخلوا عليه للتهنئة بالعيد وتشرفوا بلثم ذيله متعاقبين من الضحى إلى العصر منادين بهذا النداء (بارك الله فيك وأحسن اليك) وهذان هما البيتان :

إن كنت تطلب رفعة وأمانا   من كيد هذا الدهر واطمئنانا
لذ واعتصم بمقام ذى الملك الذى   فاق الأنام وقد علاهم شانا

ثم يعود الشعر فيختفى من صفحات الوقائع حتى يطفح كما قلنا منذ عام سنة ١٢٨٥ ففى ١٧ رجب من هذ العام كان عيد ميلاد الخديو اسماعيل

ومن هذه التهنئات تهنئة الأديب اللبيب محمود صفوت بقصيدتين . أما أولاهما فمطلعها :

وجودك فى الدنيا حياة المكارم   وجودك قد أحيا هبات الأكارم

وأما الثانية فيقول فيها :

فمن آل إبراهيم فينا بقية   ومن آل إسماعيل خير الخلائف
به علم الملك الخديوى قد علا   وأصبح فى ظل من الأمن وارف
فشيد ركن الدين عوذاً لمن سعى   وضيفاً لمن لبى وأمنا لخائف

وقد ختمت بالتاريخ على عادة أهل هذا الزمن

وفى كل فن زال أو زاد أرخوا   بعهد الخديوى جاد جمع المعارف
١٢٨٥

ثم يتولى ظهور الشعر فى الوقائع فترى فى عدد آخر من هذه السنة (١٢٨٥) قصيدتين من شعر الشيخ محمود العالم فى تهنئة الشيخ العروسى شيخ الجامع الأزهر

لما ناله من تكريم الخديو اسماعيل باشا بمنحه نيشانى الرتبة الثانيـة المجيدية والعثمانية ، فمن الأولى :

لشيخ شيوخ العلم فى رفعة الشان معال بها يلتاع فى كيده الشانى
عروسى مصر أوحدىّ زمانه سلالة علم من قديم وعرفان
فآباؤه شم الأنوف أكابر يدين لهم كل من الإنس والجان
له فن لقمان وزهد ابن أدهم وفكر إياس فى فصاحة سحبان
به يتجلى أزهر العلم والتقى ومورد أهل الفقه فى كل بستان

وختامها

ومولاك فاشكره وأعلن مؤرخا نشـــان مجيدى سليم وعثمانى
٤١١ ٦٧ ١٣٠ ٦٧٧
١٢٨٥

وأما الثانية فيحسن نقلها كلها لما فيها من وضوح صورة الشعر وشعر العلماء خاصة فى ذلك الزمن وهى :

إن شيخ الإسلام أيده اللـــه تعالى بالنصر والتعزيز
العروسى أوحد الناس فى الفضـــل وأين الأنهار فى الراموز (١)
فائق الناس فى العلوم بذهن يتلظى فهما وقلب جميز (٢)
فلتنبيهـــه بتحرير لب بهجة دونها بسيط الوجيز (٣)
من أحاديثه تشم شـــذا المســك وريا الكافور والشونيز (٤)
أهديت تحفة القبول إليـــه وتمام الإقبال فى التنجيز (٥)

---

(١) الراموز : البحر .
(٢) رجل جميز القلب : ذكيه
(٣)
(٤) الشونيز : الحبة السوداء
(٥) يريد الإنجاز

طرزتها يد الخـديو بإجلا ل فما أبهى ذاك من تطريز (١)
مرسل الجود فى الوجود ومسدى كل خير من عسجد وخزوز (٢)
بنشانات رصعت بجـلال من بهى الياقوت والإبريز (٣)
فهنيئـا له بها وهنيئـا بتهان وافت بمدح غريزى
فانم تاريخهـا لبيت رقيق جامع مانع لمعنى وجـيز
٤٤٢ ٤١٠ ١١٤ ١٦١ ١٣٢ ٢٦

١٢٨٥

لك شان زها وجد جليـل بنشـان السلطان عبـد العزيز
٥٠ ٣٥١ ١٣ ١٣ ٧٣ ٤٠٣ ١٨١ ٧٦ ١٢٥

١٢٨٥

ويحسن أن نمثل لنوع عجيب من القافية لم نر له أمثلة كثيرة فى شعر هذا العصر ، ذلك أن يجعل الشاعر موضع القافية صالحا لعدة كلمات تحل إحداها محل الأخرى ويبقى التئام المعنى مع لفظ البيت ، ومن ذلك ماقاله الشيخ عبدالغنى الرافعى فى تهنئة الخديو اسماعيل بالعام الهجرى سنة ١٢٩٠ ﻫ ومن هذ القصيدة قوله :

أما وأياديك الكرام المواهب لأنت بهذا الدهر أكرم واهب

فكلمة القافية وهى واهب يصح أن تبدل بها الكلمات : ماجد ، كابر ، عاطف ، كافل ، راحم ، كائن .

والبيت الثانى :

وأنت جمال العصر يا كهف أهله وأبوابك العليا حمى كل طالب

وبقية القوافى على الترتيب قاصد ، حائر ، خائف ، سائل ، قادم ، ظاعن . وهذا فن عجيب وعناية زائدة بخدمة اللفظ فى الشعر .

---

(١) لابد فى صحة قراءة هذا البيت أن تجعل كلمة خديو غير مشبعة الكسرة وأن تحذف الالف من أبهى .

(٢) الخزوز : جمع خز ، ولم تكن عادة الخديو ولا عادة زمنه هبة الثياب .

(٣) الذهب الإبريز ، أى الخالص .

آخر عهد الأدب بالوقائع المصرية

منذ نشطت الآداب فى أيام الخديو إسماعيل باشا ظهر أثر هذا النشاط فى الوقائع المصرية ، فرأينا الشعر يكثر فيها حتى أن بعض أعدادها يخلو من كل شىء إلا قصائد الشعراء وأقوال الأدباء فى مناسبة من المناسبات .

ولقد كان من نشاط الآداب فى الوقائع أن اتبع فيها ما كان يجرى فى مجلة روضة المدارس ، من نشر كتب أدبية فى صفحات مستقلة تنشر تباعا مرقومة رقما غير رقم صفحات المجلة ، حتى يستطيع من يحرز المجلة باستمرار أن يصل هذه الصفحات فتكون مجموعتها نسخة من هذا الكتاب .

اتبعت هذه الطريقة فى الوقائع المصرية ، التى يظن أكثر الناس أنها صحيفة إدارية لا تعنى بغير نشر الأوامر والمراسيم فنشر بها على هذا النمط كتب كثيرة من بينها كتاب فى أربعين صفحة من القطع المتوسط . وهو رسالة من تأليف السيد صالح بك مجدى فى مناقب المرحوم رفاعة بك رافع ، وهى أوفى ترجمة فيما نعلم لهذا الرجل النابغة ، الذى ملأ هذا العصر بجده وآثاره . وعلى أيام الشيخ محمد عبده كان يكتب بها المرحومون : سعد زغلول باشا وقاسم أمين بك والشيخ عبد الكريم سلمان . ثم منذ سنة ١٨٨٥ م قصرت على نشر الرسميات إلى الآن . وأظن أن ذلك إنما كان لظهور صحف كثيرة ومجلات أخذت على عاتقها خدمة الأدب ، فتوفرت الوقائع المصرية على نشر القوانين وغيرها من الرسميات .؟

محمود مصطفى

— ٥ —

قال بعض العلوية لأبى العيناء : أنت تبغضنى ولا تصح صلاتك إلا بالصلاة علىّ ، لأنك تقول : اللهم صلّ على آل محمد ؛ قال : إذا قلت الطيبين خرجت منهم .

أَبُو الطّيب المُتَنّبى

هل ادعى النبوة حقا ؟

للأستاذ على النجدى ناصف

مفتش المعارف بعلوى



قصصنا عليك فى الشطر الأول من هذا البحث قصة تنبؤ المتنبى كما رواها الرواة ، وألممنا إلمامة يسيرة بالبيئة التى ظهرت فيها دعوته ، وبالقبائل التى ناصرته وقاتلت دونه . ونريد الآن أن نستوفى القول فى هذا الموضوع ، ونمضى فى البحث إلى نهايته .

معجزات المتنبى : — زعموا أنه كان للمتنبى وسائل وحيل مستغربة ، استطاع أن يموه بها على النـاس ، وأن يردهم بها عن دينهم . فمنها ترويض ناقة صعبة لبعض بنى عدى ، مضى إليها وهى رائحة فى الابل ، فما زال بها حتى وثب على ظهرها ، فنفرت سـاعة ، ثم سكن نفارها ، ومشت مشى المسمِحة . ومنها إبراء كاتب جريح من كتبة ديوان اللاذقية ، انقلبت على يده سكين الأقلام ؛ فجرحتها جرحا مفرطا ، فتفل أبو الطيب على الجرح ، ثم شد عليه ، وقال للكاتب لا تحله فى يومك. وعدّله أياما وليالى ، فقبل منه ، وبرىء الجرح . ومنها أنه كان يسير بالليل مع صاحب له ، فلقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، فقال أبو الطيب لصاحبه ، وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فألفى الرجل الأمر على ماذكر (١) . ومنها أنه كان يدعى أن الله أنزل عليه عبرا من السماء ، عدتها أربع عشرة ومئة عبرة . نزلت كلها جملة واحدة . ومن هـذه العبر : والنجم السيار ،

---

(١) رسالة الغفران : ٢ : ٢٨ ، ٢٩

والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفى أخطار . امض على سننك . واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ؛ فإن الله قامع بك زيغ من ألحد فى الدين ، وضل عن السبيل (١) .

وهناك وسائل أخرى ذكرها الرواة ، ونضرب نحن عن ذكرها صفحا ؛ لأن فى هذه غناء عنها ، ودلالة عليها ؛ فهى كلها تجمعها جامعة واحدة من هوان الشأن ، والجرى على سنن الطبيعة حتى ما تكاد ترى فى وقوعها شذوذا أو غرابة ، ولا تجد فى تعليلها والقدرة على مثلها تكلفا أو عنتا . وماذا فى ترويض الناقة الصعبة من الامتناع أو الغرابة عند عرب البادية ، والإبل بينهم فاشية ، ولها فيهم نفار كثير ، ولفتيانهم على سياستها والاحتيال لها قدرة ومرانة ، وأين المعجزه فى حادث الجرح المار ذكره ؟ إن كانت فى برئه من غير علاج فرب جراح بالغة ، وأدواء فاتكة برىء أصحابها بغير مداواة ألبتة ، أو مع مداواة ضارة خاطئة ، هى أجلب للخطر من الترك والإهمال . وإن كانت فى برء الجرح لموافاة الأجل الذى سماه فإن للمصادفة فى جميع شئون الحياة غرائب وأعاجيب ، لايعد هذا إلى جانبها شيئا مذكورا . وقد يكون المتنبى قدر للجرح فى نفسه ميعادا يظن أنه يبرأ فيه ، ثم باعد مداه ، وزاد عليه ، احتياطا للأمر ، وحرصا على أن يقع البرء قبل حلول الموعد : فكان ما أراد . وما نزال نرى للدجاجلة والمشعوذين فى هذا الباب نوادر غريبة ، ومع ذلك لا نرى الجهال والأغرار ينزلون أصحابها منازل الأنبياء ، فكيف بالناس فى مدينة كاللاذقية ، وفى عصر كعصر المتنبى ، ازدهرت فيه العلوم ، واستبحرت الفلسفة ، وتمردت العقول على الإيمان بالغيب ، حتى كثرت الملاحدة والمتزندقون ؟

أما حادث الكاب فلا يمتنع — فيما يقول المعرى — أن يكون المتنبى أعدله شيئا من المطاعم مسموما ، وألقاه له ، وهو يخفى عن صاحبه ما فعل (١) ولا يبعد

---

(١) الصبح المنبى : ١ : ٢٧ ، ٣١

(٢) رسالة الغفران : ٢ : ٢٩

أن يكون الأمر شبه على الرجل ، وأن الكلب الذى رآه ميتا غير الكلب الذى نبحهما فى الطريق . وأما القرآن الذى يروون أنه ادعى نزوله عليه فهو — كما رأيت — هراء من القول المسجوع ، ليس له روعة ، ولا فيه قوة ، إذا صح أن قرآنه كله كان فى درجة النموذج الذى مر بك آنفا . ومن عجب أن يقتصر الرواة على روايته ، كأن ليس له غيره ، أو كأنهم آثروه بالرواية لمزية فيه استأثروا بعلمها ، وضنوا بخبرها على الناس . ومهما يكن الأمر فمثل هذا الكلام لا يمكن أن يخلب أحدا ، أو يحوله عن دينه ، وإن كان رقيق الايمان ، قليل البضاعة من اللغة ، فكيف بقبائل عربية مسلمة يستطيع أقل صعلوك فيها — كما يقول أستاذنا الاسكندرى — أن يرتجل خيرا منه ؟ (١) إذ كانت اللغة لا تزال صحيحة فى البادية لعصر المتنبى (٢) .

ربما قيل : إن حوادث من هذا القبيل وقعت بين العرب فى مستهل الاسلام ، افقد تنبأ منهم كثيرون ، وكانت لهم أسجاع غثة يمخرقون بها ، ويدعون أنها تنزل عليهم من السماء ، ويندر فى العرب من لا يستطيع أن يأتى بمثلها ، ومع ذلك استجابت لهم قبائل شتى آمنوا بهم ، ونصروهم فى الدفاع عن دعوتهم ، فعظم أمرهم ، حتى خيف على الاسلام أن يقضى عليه فى مهده .

والواقع أن الأمرين يختلفان ، وأن الفارق بينهما جد كبير ، فالذين ارتدوا عن دينهم فى مستهل الاسلام أمشاج من أعراب البادية الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، فلم يكن للدين عليهم سلطان قوى ، ولا لتعاليمه فى نفوسهم تأثير كبير . وما كان أكثر هؤلاء لعصر النبى صلى الله عليه وسلم ، وما جاء بعده إلى أمد غير قريب . روى صاحب الكشاف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقى بنى المصطلق على المريسيع (وهو ماء لهم) ، وهزمهم وقتل منهم ، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد ، أجير لعمر يقود فرسه ، وسنان الجهنى ، حليف لعبد الله بن أبى ، واقتتلا . فصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ! ، وسنان : يا للأنصار !

---

(١) تاريخ أداب اللغة العربيه فى العصر العباسى ٢٧٧

(٢) وفيات الأعيان : ١ : ٦٣٥ ، ومعجم الأدباء : ٥ : ٢٨

فأعان جهجاها جعال ، من فقراء المهاجرين ، ولطم سنانا . فقال عبد الله لجعال : وأنت هناك ؟ وقال : والله ما صحبنا محمدا إلا لنلطم ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال : سمن كلبك يأ كلك (١)

وروى الطبرى : أن رجلا جاء اليمامة ، فقال : أين مسيلمة ؟ فقالوا : مه ، رسول الله . فقال : لا ، حتى أراه . فلما جاءه قال : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رحمان . قال : أفى نور أم فى ظلمة ؟ فقال : فى ظلمة . فقال : أشهد أنك كذاب ، وأن محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر ، فقتل معه يوم عقرباء (٢) . وكان بين أسد وغطفان وطيء حلف فى الجاهلية ، ثم انتقض قبل البعثة . فلما مات الرسول صلى الله عليه وسلم قام عيينة بن حصن فى غطفان فقال : ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بنى أسد ، وإنى لمجدد الحلف الذى كان بيننا فى القديم ، ومتابع طليحة . والله لأن نتبع نبينا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد ، وبقى طليحة ، فطابقوه على رأيه ، ففعل وفعلوا (٣) . ونزل عمرو بن العاص مُنْصَرَفَه من عمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقُرَّة بن هبيرة . . . فذبح له ، وأكرم مثواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرة ، فقال : يا هذا ، إن العرب لاتطيب لكم نفسا بالامارة فان أعفيتموها من أخذ أموالها فتسمع لكم ، وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم . . . (٤)

ولقد كان مرض الرسول ، ثم انتقاله الى الرفيق الأعلى آخر الأمر من الحوادث التى لا يمكن أن تقع دون أن تثير نزعات الجاهلية على أشدها وضوحا وعنفا ، فلذلك تنبأ من تنبأ ، وارتد من ارتد ، لا لأن المتنبئين يدعون إلى خير من الاسلام ولا لأن المعجزات التى ظهرت على أيديهم أعظم من معجزات محمد ، وأدل منها على صدق النبوة وتأييد الله ، ولكنهم ارتدوا عصبية للقبيل ، أو نفوراً من أداء

(١) الكشاف : ٣ : ١٨٩ (٢) تاريخ الطبرى : ٣ : ٢٤٦ (٣) المصدر نفسه : ٢٣٠ (٤) المصدر نفسه : ٢٣١

الزكاة، أو نفاسة على قريش أن يكون منها نبي الاسلام ؛ فتكون لها الزعامة والرياسة على العرب، وعلى سائر المسلمين.

أما القبائل التى خرج فيها المتنبي فقد أسلمت، وطال عليها الأمد فى الاسلام، فألفت تكاليفه وأحكامه ومرنت على ممارستها، واطمأنت إلى الأخذ بها، وتحللت على التدريج من نزعات الجاهلية البغيضة؛ مطاوعة لسلطان الدين، أو نزولا على حكم العصر الذى كانت تعيش فيه: فلا تعصب، ولا حمية، ولا إباء من نوع ما كان فى الجاهلية الأولى، فلا تشابه إذا بين هؤلاء وأولئك، ولا بين الردة فى فى مستهل الاسلام، والردة التى قيل إنها وقعت صدر القرن الرابع بفعل المتنبي وتأثير دعوته، ولا يستدل بحدوث الأولى على امكان وقوع الأخيرة.

وما نريد بذلك أن ننكر خروج المتنبي ببادية السماوة جملة، ولكننا نريد أن نقول: إن خروجه لم يكن لنبوة ادعاها ودعا الناس إلى الايمان بها، يؤيد ذلك أن كثيراً من الرواة يعزون إلى أبى الطيب إنه وهو فى بادية السماوة ادعى الانتساب إلى على وابنه الحسن، رضى الله عنهما. ولا يعقل أن ينتسب إلى نبى الاسلام، ثم يخرج عليه، ويدعو إلى نبذ دينه [1]. ولقد نستطيع أن نفهم أن رعونة الصبا ربما طوعت لأبى الطيب اعتساف هذه الضلالة، ولكننا لا نستطيع أن نفهم أن القبائل التى أجابت دعوته، والتفت حوله تكون من الغرارة والغفلة بهذا الدرك الأسفل. ثم إن بعض الرواة يلتمسون لتسميته بالمتنبي أسبابا غير ادعاء النبوة، والخروج من أجلها، كما سيأتى قريباً. وليس فى شعر الشاعر أثر يدل على أنه كان يضمر التنبؤ أو يفكر فيه، مع أن كثيراً منه يدل دلالة صريحة على أنه كان يطمع فى الملك، ويمنى نفسه بولايته. وسيأتى تفصيل ذلك بعد قليل.

دواعى الثورة ووسائلها: — نريد أن نعرف لم كانت ثورة المتنبي إذا؟ وما الوسائل التى استطاع بها أن يؤلب العرب من كلب وغيرهم؟

الذى أعتقده أن هذه الثورة إنما كانت فى سبيل الرياسة والملك ليس غير، يدل على صحة ذلك الدلائل الآتية:

(١) تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى: ٢٧٧

(١) رواية الثعالبي فيما تقدم : أنه دعا إلى بيعته قوما فبايعوه ، وهموا بالخروج معه على السلطان .

(٢) وقول المعري في رسالة الغفران : وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه ، وإنما هي مقادير يظفر بها من وفق . . . وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألها . فمن ذلك قوله :

ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وقوله :

ما أقدر الله أن يخزى بريته ولا يصدق قوم في الذي زعموا(١)

(٣) وأن طبيعة العصر الذي كان المتنبي يعيش فيه تدفع إلى التذمر والسخط ، وتهيج طمع ذوي المطامع . وتغريهم بادراكها ، فالهوة بين الطبقات واسعة ، والتقاطع مستحكم ، والتفاوت في الحقوق والواجبات على أشده : للطبقة العليا المغانم كلها تستأثر بها ، وعلى الشعب المغارم كلها ، يؤديها وهو صاغر مقهور . ولم يكن كسب السيادة دائما بحسن السابقة ، أو التبريز في ناحية من نواحي الحياة ، ولا التجرد منها يرجع إلى العجز أو القصور ، ولكنها الأوضاع المعكوسة . والفساد المتغلغل أكثر ماتساعد على رفع الوضيع ، واتضاع الرفيع . ذلك إلى تناثر الولايات والنواحي بدداً بين المتغلبين وأصحاب المطامع من كل جنس ، ومن كل طبقة ، يتداولون السلطان فيها دراكا . وما منهم إلا طامع يضمر الاغارة على مجاوريه ، وخائف يحذر أن تنتزع غنيمته من يده . فمن ذا الذي يعيش في هذا العصر ، ويصيبه فيه مثل ما أصاب المتنبي من الفقر ، وتكون له مثل مواهبه العالية ، ونفسه الطموح ، ووجدانه الحساس ، ثم لاينزع إلى مثل مانزع إليه من الولاية والسلطان ؟

وقد تحدث المتنبي في بعض قصائد الصبا عن آماله الكبيرة ، وهمته العالية ، وعزمته الصارمة ، ثم عطف على أهل السيادة من أبناء عصره كالمعذر اليهم ، فذكر

---

(١) رسالة الغفران : ٢ : ٢٥ ، وصدر البيت الأول

تغرب لامستعظما غير نفسه ولا قابلا الا لخالقه حكما

أنه كان يريد أن يأخذ نفسه بالمغالطه فى حقيقة أمرهم، ويحملها على مكروهها. باجلالهم، والاعتراف لهم بالجاه والسلطان، فراح يتكلف مدحهم، ويخلع المحاسن عليهم، ولكنهم لم يبادلوه الرغبة فيما أراد لهم، وأبوا ألا أن يظهروا على حقيقتهم جهالا بخلاء، لايقدرون شعره، ولا يحسنون الثواب عليه، فلم يكن بد من أن يزجى إليهم قصائد أخرى ينظمها من عتاد الحرب، وإناث الخيل، فهى أليق بهم، وأجدر أن تنزلهم المنازل التى تصلح لهم ويصلحون لها. قال:

ليس التعلل بالآمال من أربى	ولا القناعة بالاقلال من شيمى
وما أظن بنات الدهر تتركنى	حتى تسد عليها طرقها هممى
لُم الليالى التى أخنت على جِدَّتى	برقة الحال، واعذرنى. ولا تلم
أرى أناسا، ومحصولى على غنم	وذكرَ جود، ومحصولى على الكلم
ورُبَّ مال فقيراً من مروته	لم يُثرِ منها كما أثرى من العدم
سيصحب النصلُ منى مثلَ مضربه	وينجلى خبرى عن صِمةّ الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر	فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة	والحرب أقوم من ساق على قدم

ثم قال:

أيملكُ الملكَ والأسيافُ ظامئة	والطير جائعة لحم على وضم؟
من لو رآنىَ ماء مات من ظمإ	ولو مثلت له فى النوم لم ينم

وقال من قصيدة أخرى:

لله حال أرجيها وتخلفنى	وأقتضى كونها دهرى وتَمطلنى
مدحت قوما، وإن عشنا نظمت لهم	قصائدا من إناث الخيل والحُصُن
تحت العَجاج قوافيها مضمرة	إذا تنوشدن لم يدخلن فى أذن
فلا أحارب مدفوعا على جدر	ولا أصالح مغرورا على دَخَن

(٤) وكثرة ماورد فى شعر أبى الطيب من ذكر الملك والطموح إليه، وترصد الفرصة للخروج فى طلبه: تجد هذه الظواهر واضحة بينة فى شعره من لدن صباه إلى قبيل موته، لكنها تتمثل فى صور شتى تختلف باختلاف مراحل العمر،

واضطراب الأحوال به . فهى فى صباه سخط على الملوك ، واحتقار لشأنهم ، وتبرم بكبريائهم وتعاليهم ، وضيق بالحجاب والبوابين يرصدونهم لمنع الناس من الدخول عليهم وغشيان مجالسهم ، ثم تهديد بالثورة والاستظهار بالشجعان وأبطال الحروب لتقتيلهم والإدالة منهم .

قال وقد لامه لائم يسمى المجيمرى على ترك لقاء الملوك فى صباه :

أبا سعيـــد جنّب العتابا فرب رائى خطاء صوابا
فإنهم أكثروا الحجابا واستوقفوا لردنا البوابا
وإن حد الصارم القِرْضابا والذابلات السمر والعرابا
ترفع فيما بيننا الحجابا

وقال :

ولا تحسبن المجـــد زقا وقَينة فما المجد إلا السيف ، والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهَبوات السود والعسكر المَجْر
وتركك فى الدنيا دويا كأنما تَـــداول سمعَ المرء أنمله العشر

ثم قال :

على لأهـــل الجور كل طِمِرّة عليها غـــلام ملء حيزومه غِمْر
يدير بأطراف البنان عليهم كئوس المنايا حيث لا تشتهى الخمر

ومما يستوقف النظر أن هذه الظواهر لا وجود لها ألبتة فيما قاله من الشعر فى بدر بن عمار ، وأبى العشائر بن حمدان . ولعل أبا الطيب أغفل هنا ذكر الملك عن عمد ؛ فرقا من غضب هذين الممدوحين ، أو تغيرهما عليـه ، فكلاهما من ذوى الولاية والسلطان ، كأنه توهم أن الحـديث معهما عن الطمع فى الملك على أية صورة وبأى أسلوب قـد يحفظهما عليه ، فتفوته الرغائب التى يفيدها من مدائحه فيهما ، ويعود إلى مقاساة الضر والحاجة .

ولما أن اتصل بسيف الدولة ، وآنس منه الحرص عليه والايثار له على سائر من بحضرته من الشعراء ، وسمع صدى صوته تتجاوب به الآفاق — لم يجد ما يخشاه من إعلان مطامعه ومعاودة التغنى بها فى شعره ، ففعل ولـكن فى قلة وإيجاز

وغموض ، حتى ليكاد الانسان يحسب شعره فى ذلك ضربا من الحماسة الحكمية ، أو الفخر الصناعى ينظمه الشعر للمباهاة بالقدرة على الافتنان ، والتصرف فى شتى الأغراض والفنون ، لولا ماتقدم منه وما تأخر ، مما لايدع مجالا للشك فى إدراك حقيقة ما يسر من الآمال . وكل ما قاله فى هذا الباب مدة اتصاله بسيف الدولة هو :

فإن تكن الدولات قسما فانها لمن ورد الموت الزؤام تدول
لمن هون الدنيا على النفس ساعة وللبيض فى هام الكماة صليل

وقوله :

إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شىء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

وقوله ـ وهو أصرح من سابقيه ، وأدل منهما على حقيقة ما يضمر ـ :

أهم بشىء والليالى كأنها تطاردنى عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان فى كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

ولما تحول الى مصر ، ورأى فى كافور تهافتا شديداً على مدائحه ، قويت آماله فى الملك ، وعاد نزوعه إليه حادا غلابا ، كأنما كان يرى أن رجلا مثل كافور يجمع بين سوء المنبت وفقدان الوارث حقيق أن يكون حرصه على المدائح الباقية تخلد ذكره ، وتنشر مفاخره ، وتطوى نقائصه وعيوبه ، أشد من حرصه على جزء يقتطع من مملكته اقتطاعا ، فضلا عن أن يعهد به إلى رجل يتولاه من قبله ، ويقومُ على حكمه باسمه . وقوى عنده هذا الرأى فيما يظهر أن كافورا وعده أن سيبلغه جميع ما فى نفسه . فراح يستكثر فى مدحه من ذكر الولاية والإلحاح فى طلبها حتى ما تكاد تخلو من ذلك قصيدة من مدائحه فيه . غير أن موقفه من أول الأمر كان موقف خداع وتوريط ، إذ كان يوهم صاحبه أنه أجل همة من أن يتعاظمه تمليك العانى الذليل ، وأصدق تجربة من أن تفتنه الدنيا فيتكالب عليها ،

ويضن بها . قال فى أول مدائحه فيه :

إذا كسب الناس المعالى بالندى فانك تعطى فى نداك المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا
فقد تهب الجيش الذى جاء غازياً لسائلك الفرد الذى جاء عافياً

وقال فى ثانية مدائحه أيضاً :

قالوا هجرت إليه الغيث ؟ قلت لهم : إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذى تهب الدّوْلات راحته ولا يمن على آثار موهوب

ثم صار بعد إلى موقف الموعود المترقب : يدأب فى استنجاز الوعد ، ويفتن فى ابتداع الأساليب الشعرية لإدراكه ، فهو حينا طالب عمل يرشح نفسه لولايته ويدعى اللياقة به والكفاية للاضطلاع بأعبائه ، وربما وقع فى نفسه حقا أو توهما أن صاحبه فى شك مما يدعيه ، فيبادر إليه فى ثبات الواثق المطمئن ، يسأله أن يجربه فى الحكم ، ليعلم علم اليقين مبلغ الصدق فى دعواه قال :

ولقد أفنت المفاوز خيلى قبل أن نلتقى وزادى ومائى
فارم بى ما أردت منى فإنى أسد القلب ، آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

وقال :

فإن نلت ما أملت منك فربما شربت بماء يعجز الطير ورده
ووعدك فعل قبل وعد لأنه نظير فعال الصادق الوعد وعده
فكن فى اصطناعى محسناً كمجرب يَبِن لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت فى شك من السيف فابله فإما تنفيه ، وإما تعده
وما الصارم الهندى إلا كغيره إذا لم يفارقه النجاد وغمده

إلى أن قال :

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ولكنها فى مفخر أستجده

وهو حينا سائل متملق ، يلتمس الولاية تصريحاً أو تعريضاً ، ويستعين

على التأثير فى الرجل بفنون رائعة من الخلابة وحسن التمثيل قال :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله؟ فإنى أغنى منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كفىّ زماننا ونفسى على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب
يضاحك فى ذا العيد كل حبيبه حذائى ، وأبكى من أحب وأندب
أحن إلى أهلى وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مُغرِب
فان لم يكن إلا أبو المسك أوهم فانك أحلى فى فؤادى وأعذب

وقال :

أرى لى بقربى منك عينا قريرة وإن كان قربا بالبعاد يشاب
وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب ؟
أقـلّ سلامى حبّ ماخف عنكم وأسكت كيما لا يكون جواب
وفى النفس حاجات ، وفيك فطانة سكوتى بيـان عنـدها وخطاب
وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يُبغى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأيى فى هواك صواب
وأعلم قوما خالفونى فشرقوا وغربت ـ أنى قد ظفرت وخابوا

فنزوعه إلى الملك فى مصر كان سلميا برغم شدته ، ولـكن الرجل بعـد أن أخفق مسعاه ، وخرج من مصر هاربا لا يطمع إلا فى السلامة والعافية ، عاد نزوعه إليه كما كان فى صباه ثوريا هائجا ، يمازجه ندم وحسرة ، وتذكيه إرادة وعزم ، فهو نادم يتحسر على تفريطه وخطئه ، إذ تصور أن آماله على ضخامتها يمكن أن تنال بالقول وحده . وهو عازم يتحفز للعمل ، معلنا أن ستكون الكلمة العليا فى هذه المحاولة للسيف ، قال :

مازلت أُضحك إبلى كلما نظرت إلى من اختضبت أخفافُها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامى قوائل لى : المجد للسيف ، ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم

أسمعتنى ودوائى ما أشرت به ... فإن غفلت فدائى قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندى حاجته ... أجاب كل سؤال عن هل بلم
توهم القوم أن العجز قربنا ... وفى التقرب مايدعو إلى التهم
ولم تزل قلة الانصاف قاطعة ... بين الرجال، ولوكانوا ذوى رحم
فلا زيارة إلا أن تزورهم ... أيد نشأن مع المصقولة الخُذُم
من كل قاضية بالموت شفرته ... ما بين منتقم منه ومنتقم
صفا قوائمها عنهم فما وقعت ... مواقع اللؤم فى الأيدى ولا اللزم

وبقى سائر حياته لا يكف عن ذكر الملك، ولا يرى أنه يمكن إدراكه بغير الحروب. ولكنه كان فى هذه الفترة كما كان عند سيف الدولة غامضا ملتوى القصد، لا يكشف عن دخيلة نفسه فى صورة واضحة بينة. قال فى مدح دلير بن لشكروز سنة ٣٥٣ هـ :

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا ... فصعب العلا فى الصعب، والسهل فى السهل
تريدين لقيان المعالى رخيصة ... ولا بد دون الشهد من إبر النحل
حذرت علينا الموت والخيل تلتقى ... ولم تعلمى عن أى عاقبة تجلى

وقال يمدح ابن العميد سنة ٣٥٤ هـ، وهى السنة التى قتل فيها :

صغت السوار لأى كف بشرت ... بابن العميد، وأى عبد كبرا
إن لم تغثنى خيله وسلاحه ... فمتى أقود إلى الأعادى عسكرا ؟

وبعد، فيخيل إلى أنك قد اطمأننت معى إلى أن المتنبى لم يكن صاحب نبوة يدعيها، ويركب الخطر من جرائها، ولكن طالب ولاية يريد أن يَتبنَّك فى دستها وأن يرضى كبرياءه بما فيها من العزة والأبهة والسلطان.

أما السبيل التى سلكها لاهاجة العرب فى بادية السماوة فسبيل الثوار من أمثال المختار الثقفى، وزعيم القرامطة، وصاحب الزنج، وغيرهم ممن اتخذوا الانتساب إلى العلويين أو الدعوة باسمهم سبيلا للتسلط على الناس وتسخيرهم لادراك مطامعهم. وقد مهد المتنبى لذلك فيما نرجح بانكار نسبه، والمراوغة فى الاجابة كلما سئل

عنه . لئلا يجبهه مكذب أو منكر إذا حان وقت الجهر بالانتساب إلى العلويين (١)
إلا أن أولئك الأدعياء الذين حاكاهم المتنبي جعلوا ميادين دعوتهم فى البلاد الشرقية
حيث نبت التشيع و ترعرع ، وحيث كانت سلطة الحكام لعهد بعضهم واهنة غير
مرهوبة . لذلك عظم أمرهم ، واشتدت سطوتهم ، حتى أزعجوا الخلافة ، ونالوا
من باسها . وشغلوا خواطر أولى الحل والعقد وقتا ليس بالقصير . أما المتنبى فقد
شاء حظه العاثر أن يكون مستقر دعوته بادية السماوة حيث تخوم الشام قائمة .
والإخشيدية مطلة ، والشام لا يعنيها التشيع ، ولا يثير من حماسة أهلها مثل مايثير
من أهل العراق . والإخشيدية يومئذ فى ريع فتوتها و نشاطها ، لذلك سرعان ماقبض
عليه ، وحمل إلى سجنه أخيذا مخذولا .

سبب تلقيبه بالمتنبى — والآن نريد أن نعرف لماذا لقب أبو الطيب بالمتنبى
إذا لم يكن ادعى النبوة ، ولم تكن ثورته لتأييد دعواه والتمكين لها ؟ فابن رشيق
يروى أنه سمى بالمتنبى ، لفطنته وصحة ذهنه (٢) ولا ندرى كيف اشتهر أبو الطيب
وحده بهذا اللقب لزكائه . والأذكياء غيره كثير ، وفيهم من هو أشد منه توقد
قريحة ، وأبعد فى عالم الذكاء مدى شهرة . والمعرى يقول فى رسالة الغفران : وحدثت
أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال هو من النَّبْوَة ، أى المرتفع من الأرض (٣)
غير أننا لم نعثر فى كتب اللغة التى بين أيدينا على المتنبى من النبوة بالمعنى المذكور
وإذا لانستطيع أن نفهم كيف يمكن أن يكون المتنبى هنا معناه المرتفع أو المتعالى ،
وليس معناه مدعى النبوة . وابن جنى ينقل عن أبى الطيب أنه قال : إنما لقبت
بالمتنبى لقولى :

---

(١) كان المتنبى يكتم نسبه ، وكان إذا سئل عنه يعتذر بقوله : أنا رجل أخبط القبائل ، وأطوى البوادى وحدى . ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينها و بين القبيلة التى أنتسب إليها . ومادمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ، ويخافون لسانى . تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٣

(٢) العمده : ١ : ٤٥

(٣) رسالة الغفران ؛ ٢ : ٢٥

أنا ترب الندى ورب القوافي وسِمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها اللـــه غريب، كصالح في ثمود[١]

ونحن لا ننكر أن الانسان قد يغلب عليه اسم من الأسماء حتى ما يكاد يعرف بغيره، ولا يدعى إلا به، لمجرد كلمة يقولها أو تقال عنه. نرى ذلك في عصرنا وفي سائر العصور والأجيال. فعبد الله بن مصعب الملقب بعائد الكلب إنما لقب بذلك لقوله:

مالى مرضت فلم يعدنى عائد؟ منكم، ويمرض كلبكم فأعود

وشاس بن نهار المعروف بالممزق، إنما سمى بذلك لقوله يخاطب عمرو ابن هند:

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى وإلا فادركنى ولما أمزق[٢]

وسلم بن عمرو بن حماد الملقب بالخاسر، لقب بذلك لأن أباه خلف له مالا فأنفقه على الأدب؛ فقال بعض أهله: إنك لخاسر الصفقة[٣]. وجعفر بن أبي طالب لقب بذى الجناحين، لأنه قاتل يوم مؤتة حتى قطعت يداه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله قد بدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء[٤]. وغير ذلك كثير. ولكن غلبة الأسماء على أصحابها من طريق الكلمات - يقولونها، أو تقال عنهم - إنما تكون عادة إذا صاحب القول قرينة مسوغة؛ تساعد على إلصاق تلك الأسماء بأصحابها، وتنبه الأذهان لحفظها وتذكرها: كأن يتضمن القول لطيفة مستملحة، أو نبوة غريبة، وكأن تلابسه حادثة معينة، أو تكون ثمة علاقة بين الاسم ومسماه، أو نحو ذلك.

فاذا صحت رواية ابن جنى الماضية، فماذا عسى أن تكون القرينة التي ساعدت على إلصاق لقب المتنبي بأبي الطيب، وهيأت للناس قبوله واصطناعه؟ لا يبعد أن

---

(١) أبو الطيب المتنبي وأخباره: ٩

(٢) العمدة لابن رشيق: ١: ٢٣

(٣) معجم الادباء: ٤: ٢٤٧

(٤) القاموس المحيط (مادة جنح).

تكون هذه القرينة هى اشتهار الشاعر بعلو الهمة والطموح إلى العظائم : فكأن الناس — وقد آنسوا منه ذلك — لا يستكثرون أن يستشرف مقام النبوة ، ويتعاطى الجرأة على ادعائها .

ومهما يكن الأمر ، فإن رواية ابن جنى توافق روايتى المعرى وابن رشيق السابقتين فى أن ليست ثورة أبى الطيب هى سبب تلقيبه بالمتنبى ، ثم تنفرد بأنها قد تكون دليلا على أن هذا اللقب أطلق عليه قبل ثورته ، ذلك لأن البيت الذى روى ابن جنى أنه سبب تسميته بالمتنبى من قصيدة نظمها فى صباه ، وجرى فيها على عادته فى هذا الطور : من تحقير أصحاب السلطان ، والجهر بمقتهم ، والتأهب للثورة عليهم والانتقام منهم . وهاك مايقول فى ذلك :

أين فضلى إذا قنعت من الده ... ر بعيش معجل التنكيد ؟
ضاق صدرى، وطال فى طلب الرز ... ق قيامى ، وقل عنه قعودى .
أبداً أقطع البلاد ، ونجمى ... فى نحوس ، وهمتى فى سعود
فلعلى مؤمل بعض ما أب ... لغ باللطف من عزيز حميد
لِسَرِيٍّ لباسه خشن القط ... ن، ومَرْوِيّ مَرْوَ لِبسُ القرود
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا ، وخفق البنود
فرءوس الرماح أذهب للغي ... ظ ، وأشفى لغل صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد ... وإذا مت مت غير فقيد

وهذا — كما ترى — كلام يغلب على الظن ألا يصدر مثله عن رجل سجن ، ونال منه السجن حتى أشرف على التلف ، ولم يخل سبيله حتى استعطف وأناب ، بل تضرع واستخذى ، وحتى شفع فيه الشافعون .

وما يدرينا لعل هذا اللقب من صنع أعوان السلطان أنفسهم ؟ وضعوه ، وتولوا نشره حين خرجوا لقتاله ، لينفروا الناس منه ، ويحرضوهم عليه . وما كان للجمهور أن يلاقى هذه الدعوى بغير الاصغاء والقبول ، لأن العصر عصر فتن ومذاهب ، تروج فيه مثل هذه الأراجيف من تلقاء نفسها ، فكيف إذا اداعها أصحاب السلطان ، ثم تلقفها عنهم من بعد أعداء حاقدون ؟

وبعد فقد كان أبو الطيب يكره أن يدعى بهذا اللقب ، ويعد الذين يدعونه به أعداء حاسدين ، يكيدون له ، ويعملون على الغض منه . قال له ابن خالويه النحوى يوما فى مجلس سيف الدولة : لولا أن أخى جاهل لما رضى أن يدعى بالمتنبى ، لأن معنى المتنبى كاذب . ومن رضى أن يدعى بالكذب فهو جاهل . فقال : لست أرضى أن أدعى بذلك ، وإنما يدعونى به من يريد الغض منى ، ولست أقدر على المنع (١) .

ولا ندرى أكان أبو الطيب يكره هذه التسمية لأنها - كما يقول ابن خالويه - تنطوى على معنى الكذب والادعاء ؟ أم لأنها ألصقت به ظلما وافتئاتا ، ولا يأمن أن تخفى الحقيقة على الناس ، فيتصوروا المسألة كما لا يحب أن يتصوروها ؟ أم أنه كره هذه التسمية للأمرين جميعا ؟

على النجدى ناصف

— ٦ —

قال الصاحب بن عباد : جئت من دار السلطان ضجرا من أمر عرض لى ؛ فقال لى رجل : من أين أقبلت ؟ فقلت من لعنة الله ، فقال : رد الله غربتك .

— ٧ —

سئل بهلول عن رجل مات وخلف ابنا وبنتا وزوجة ولم يترك شيئا ؛ فقال : للابن اليتم ، وللبنت الثكل ، وللزوجة خراب البيت ، وما بقى فللعصبة .

---

(١) تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٤

غلطة شاعر!

للأستاذ محمود عبده الحمامصى

المدرس بالمدارس الملكية للبنات ببنى سويف

لابنة عجلان بالجوّ رسوم لم يتعفين والعهـد قديمْ
لابنة عجلان إذ نحن معاً وأىّ حال من الدهر تدومْ
أضحت قفاراً وقد كان بها فى سالف الدهر أرباب الهجومْ
بادوا وقدْ أصبحتُ مِنْ بعدهمْ أحْسَبُ أنى خالدُ لا أريمْ

يرى المطلع فى كتاب المفضليات للضبى قصيدة من روائع قصائده الغزلية للمُرَقَّش الأصغر «وهو من بنى معد بن مالك كما قرر صاحب اللسان» وعم ابن العبد. وقد كان شاعراً مقلا مجيداً. وقصيدته هذه أحكم نسجها، وجمع فيها من معانى الشعر ما يهيج الوجدان، ويستبكى العاشقين، ويأخذ إلى ندب الراحلين وذكر الغابرين، والحنين إلى من أحب، وكيف هاجت آثار نفسه، ووصف فيها ليلة من لياليه المسهرة حتى إنه ليحق لنا أن نسميها الليلة المرقشية، تشبيها بأختها النابغية. ثم تراه قد تجرد لردع نفسه، والاستقصار على خياله وهمومه، ومال إلى لوم العاتبين، وعزل اللائمين.

كل ذلك فى أسلوب رائع، ونظم أخاذ بمجامع القلوب، ثم ختم قصيدته بطائفة من الحكم البواقى ذوات الأثر البليغ والنظم البديع، ولكن هذه القصيدة على ما حوت من بلاغة وروعة، وما لها من قيمة أدبية بين غرر القصائد، وملح الشعراء لم تخل من نقص يعيبها، ويحط من درجة الإعجاب بها.

ذلك أن البيت الرابع (كما تراه) ليس من بحر القصيدة، إذ هى من مجزوء البسيط المذال، والبيت الرابع مخالف للقصيدة فى نظمها، وكسّر من روعتها،

ولو بدّلنا بأصبحتُ أصبحتْ بتاء التأنيث الساكنة، وجعلنا مكان أحسبُ تحسبُ وأبدلنا كلمة خالد بباقٍ وحركت ياء أنى لاستقام الشطر واسلم البيت ولم يختل المعنى ولكان البيت:

بادوا وقد أصبحتْ من بعدهم تحسب أنى باق لا أريم

ولكن يحول بيننا وبين هذا التبديل، وورود البيت من الشاعر الجاهلى هكذا! وليس لنا أن نقف موقف المغير والمبدل إلا إذا اعتمدنا على أصل صحيح. لهذا أكتفى بترك البيت على علاّته لذلك الشاعر القديم، وحسبي أن نبهت على غلطته، وأشرت إلى خطأته ليدرى وجه صوابها. وهذا ما تراءى لى فى مثل هذا المقام.

— ٨ —

قال رجل لغلامه: يافاجر؛ فقال الغلام: مولى القوم منهم.

— ٩ —

مر بهلول بسوق البزازين فرأى قوما مجتمعين على باب دكان، وكان قد نقب، فنظر فيه وقال: أما يعلمون من عمل هذا؟ قالوا لا؛ قال: فأنا أعلم؛ فقالوا: هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشَوْنه، فالطفوا به لعله يخبركم؛ فقالوا خبرنا، قال أنا جائع، فجاءوه بطعام شهى وحلوى؛ فلما شبع قام فنظر فى النقب وقال: هذا عمل اللصوص.

ذكرى شاعر البادية الشيخ محمد عبد المطلب

(١)

للأستاذ عيسى محمود ناصر
المدرس بمدرسة الفيوم الابتدائية

لوَيتُ زمام النفس عن سَننَ الهوى ... وخليت أتراب الهوى حيث عرجوا
ورحت إلى ما يبتغى المجد للفتى ... وأدلجت فى ركب العلا يوم أدلجوا
وما المجد إلا حيث حلت رباعنا ... له فى نواحيها ظلال وسجسج
إذا اجدبت أحساب قوم سما بنا ... على الناس جياش الغوارب مرتج
لنا الباذخات الشم تعلو قلالها ... على كل ما شاد الأنام وبرّجوا
سلوا الدهر عنا فى القديم فانما ... بأسلافنا يذكو قديما ويأرج
لهم فى نواحى كل جيل مناقب ... تحد إذا أهل المناقب أنهجوا
إذا عرض الدنيا بنى مجد معشر ... زهاهم من الدنيا رُواء وبهرج
فشادوا على زَيف المظاهر قوة ... يصول بها سيف من الغى أهوج
رفعنا منار الحق فى مدنية ... سنا الحق من آفاقها يتبلج
لها فلق من جانب الشرق واضح ... على الغرب يعلو نوره المتوهج
حياة ورثناها بيانا مفصلا ... بها يفلق الذكر الحكيم ويفلج

بهذه الأبيات أيها القارىء الكريم ترى نزعة الشاعر البدوى المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب . وتتبين مذهبه فى الشعر ورأيه فى المدنية والحضارة . واعتزازه بمجد العرب وقومه . وبالحنيفية السمحة . فهو شاعر متين اللفظ . رصين الأسلوب. ينزع إلى شعراء القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وهو لا يرى معالم تلك الحضارة وذلك الرقى ، وخوافق هذه المدنية إلا زيفا من المظاهر ، التى يسرك رداؤها ، ويسوءك ابتلاؤها ، وقد حمتها قوة يصول بها سيف من الغى أهوج ، فليس بغريب أن نرى فيه ذلك الصرّاع الذى شاهدناه فى أيام حياته بين الجديد والقديم ، إذ

كان ـ رحمه الله ـ خير مثال للمدرسة القديمة ، التى تشيد بذكر العرب ، وتمتدح مجد الاسلام ، وتهيب بالناس أن يرجعوا إلى تاريخ أسلافهم ، فيأخذوا منه كل ممتع وجميل . وإذا تتبعنا أسباب هذه النزعة فى نفسية شاعرنا أنها ترجع إلى تربيته الأولى ، وبيئته الدينية ، وحمايته لذمار قومه . واعتزازه بمجد عروبته ، ولأنه سليل أولئك العرب الأمجاد ، فهو ذلك الشاعر المجيد ، ذو الاحساس الرقيق ، والنفس الأبية ، والحمية الاسلامية ، ينتمى إلى أسرة عربية ، وعشيرة من عشائر جهينة ، إحدى بطون قضاعة كما أن والده كان رجلا صالحاً متفقهاً متصوفا ، وديوانه المطبوع يحدثنا عن تلك النزعات ، وهذه البواعث والمؤثرات ، التى أثرت فى نفس هذا الشاعر الكبير ، الذى ملأ فاه إعجابا بقومه وعشيرته ، وإذا تصفحته لا تعدم فخراً بنفسه ، جاء على أسلة لسانه ، فسطره بنانه ، فهو دائم الحنين إلى العيس والظباء ، وإلى يثرب وقباء ، والجزع وسَلْع والنقى ، ومنعرج اللوى ، والأبرق والعقيق ، على غير ما ينزع إليه غيره من الشعراء المحدثين : من ترك بكاء الأطلال ، والرسوم البوالى ، ومن جيد قوله يحكى عن نفسه فى بعض قصائده ـ وقد بعثها لصديق له عام ١٩٠١ م ـ :

إلى جهينة يَنْمى فرعه نسب ... له على المجد إشراف وإطلال
إذا تفرقت الأنساب فهو إلى ... صمم يعرب صعاد ونزال
وإن تقطعت الأرحام كان له ... فى أهل يثرب أعمام وأخوال
إذا تسامت بأقوام مناقبهم ... سما بنا المتلدان العم والخال
من معشر فى صروح العز قد نزلوا ... مذ الزمان وفى هام العلا قالوا
حيث الأنام طَغام والدنا همج ... والماجدون على الأيام أنذال
كم أركبوا من كمىّ فى المغار له ... من العزيمة بتار وعسال
تمشى به المقْربات الجرد معجبة ... تحت الكريم كرام الخيل تختال
ولى همامة نفس بالعلا كلفت ... قدما وقلب بأهل الفضل محلال

وكثيراً ما يتحدث إليك عن مجده وعشيرته فى أى غرض من أغراض القول متى سنحت له فرصة الكلام كقوله :

وأنا ابن الصيد من أنكرنى ينكر الليث إذا ما انتسبا
من أبيين كرام ضربوا فوق هامات المعالى قببا
وكفانى من نخارى نسبة جمعت فى طرفيها العربا

على أن أوصافه الجسمية ، وقسمات وجهه ، وشمم عرنينه ، وصحَل صوته مع تفخم ألفاظه ، وقوى إنشاده ، كل أولئك يدلنا على أنه وارث مجد العرب ، وأنه الفحل المقرم ، والعذيق المرجب ، وقد قال محدثاً عن نفسه من قصيدة بعث بها إلى صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن قراعة :

ولى خلق أندى من الروض فى الضحى رقيق به أسى الحسان العقائلا
ومن كان مثلى فى ذرا الأدب اعتلى يعاف الدنايا شيمة والرذائلا
ومن قبل آبائى على النجم خيّموا فشادوا حصوناً فوقه ومعاقلا
ورثت أبا بكر فخاراً وعزة ومن بعده أورثت فى المجد واصلا
بهاليل فى عليا جهينة أصعدوا على خير ما يحذو الأخير الأوائلا
فذرنى أسر حيث المكارم واحدلى على نغمات المجد إن كنت فاعلا

وواصل هذا هو جد الفقيد . وسبب نزوح عشائر جهينة التى منها فقيدنا ، أنها جاءت مصر زمن الفتح مددا للفاتحين ، و بعضها بعيد الفتح حينما أجلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ثلث قضاعة من الشام إلى مصر ، فنزلوا الصعيد الأوسط « الأشمونين » مجاورين بطونا من قريش ، معتدين عليها ، فلما جاءت الدولة الفاطمية ظاهرت عساكرها قريشا عليهم ، وأجلوهم إلى الصعيد الأعلى بجهة سوهاى « سوهاج » وإخميم ، ثم أنف كثير منهم المقام بالصعيد ، وأصعدوا إلى النوبة وبلاد البجة ، فساكنوهم وصاهروهم . وما زالوا يصعدون فى السودان كلما نما عددهم ، حتى بلغوا بحر الغزال وودّاى غربا ، وتخوم الحبشة شرقا ، وحتى ليصح القائل أن يقول : إن جمهرة عرب السودان من قبيلة جهينة ... اهـ . من كلام الأستاذ الكبير الشيخ أحمد الأسكندرى .

ومراحل هذا الشاعر يمكن أن تقسم ثلاثا . المرحلة الأولى : مرحلة التعليم والطفولة . والمرحلة الثانية : مرحلة التدريس ، واشتغاله بالشعر وصوغ القريض ، وفيها نبه ذكره وسما شأنه . وارتفع نجمه ، وتمت صداقته لحضرة صاحب الفضيلة

الشيخ عبد الرحمن قراعة، فاكتسب كثيراً من معارفه وأدبه وطيب أخلاقه، وخاض غمار السياسة، ورأى مدها وجزرها فأبلى بلاء حسنا بلسانه وقلمه.
والمرحلة الثالثة: إحالته على المعاش، ولكنها لم تطل.

أما المرحلة الأولى: فلقد كان — رحمه الله — يقص علينا شيئا من حوادثه فيها، فلقد أخبر أنه حفظ القرآن الكريم دون أن يبلغ العاشرة من عمره، ثم أرسل إلى الأزهر الشريف حيث نزل فى بيت الشيخ إسماعيل أبى ضيف شيخ الطريقة الخلوتية، فأكرم نزله لما رآه فيه من النجابة والذكاء. لبث فى الأزهر سبع سنين دأبا ثم انتظم فى سلك طلبة دار العلوم، وكان مغرما بقراءة كتب الأدب حريصا على حفظ ما تيسر له من جيد المنظوم وبليغ المنثور، وقد كان ذا حافظة قوية، فتوافر على شعر الأقدمين يؤثره ويحافظ عليه ويدعو ما استطاع إليه، فأثر ذلك فى شعره فباراهم فى منازعهم وأكثر من الغريب فى قوله. وكثرت فيه المعانى البدوية كما سنرى ذلك. وقد كان يملى علينا شعره المملوء بالغريب والحوشى، وغرضه من ذلك إحياء ما اندثر وإنقاذ ما التقمته أمواج المحيط، ينسج على منوال المرحوم الشيخ حمزة فتح الله. ولا يؤثر عنه فى هذه المرحلة إلا شعر قليل. ولعل ديوانه لم يحفل بذلك، لأنه لم يدون هذا الشعر، غير أنه ذكر فى هذا الديوان ان أول شعر أنشده فى الجمهور قصيدته البائية فى رثاء المرحوم على باشا مبارك مؤسس دار العلوم، وكان ذلك عام ١٨٩٢، وكان الفقيد بالفرقة الأولى من المدرسة، ويغلب على الظن أن عمره لم يتجاوز العقد الثانى، وأولها:

إلام بنا أيدى النوائب تلعب ... وحتام فى أهوالها نتقلب
تجرعنا الأحزان مر مذاقها ... وليس لنا من دون ذلك مهرب
كأن لم يكن للنائبات وقد نوت ... بنا الغدر إلا ذروة المجد مرقب

ولعمرى إن هذه القصيدة على طولها تدل على علو كعب فى الأدب، وهى عنوان لصاحبها، وهو بعد فتى صديق الشباب، وليس غرض هذه القصيدة بالمركب السهل الذلول فهى لا تخلو من فيلسوف كبير يطل على هام الأيام فيرى ما فيها من شهد وصاب، فيطاوعه لسانه ببعض الحكم والمواعظ. وأغلب الظن أن له

شعرا كثيرا فى هذه المرحلة قد ضاع وليس فى ديوانه شىء منه .

وأما المرحلة الثانية - فتبتدىء باشتغاله بالتدريس بين اسوان وسوهاج ومدارس الأوقاف الملكية والقضاء الشرعى ثم دار العلوم ، وهذه المرحلة أخصب حياته الشعرية ، فلقد حكى عن نفسه ، رحمه الله ، أن قريحته ورى زندها فى اسوان لما تمتع به فى مشتاها الجميل من جو سجسج عليل ، وسماء جلتها الشمس عرائس ذات بهجة تنعكس على صفحة النيل ، ثم بعده عن وطنه « باصونة » إحدى قرى إقليم جرجا ، وما يبعثه فى النفس الشاعرة من حنين وحب وهيام . ثم لا تنس أيها القارىء الكريم صداقته للأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن قراعة الأديب المتفقه التى انعقدت من عام ١٨٩٧ وهو شاعر أديب وعالم كبير ، فكان ذلك قادحا لزناد فكره ، باعثا على نمو قريحته ، إذ وجدت فيه أدبا جما وعلما غزيرا وفضلا ونبلا ، والشعراء يتبارون فى القول إذا وجدوا الميدان واسعا وفيه تظهر المنافسة والاجادة ، ولعلك تعلم مبلغ تأثير شيخ الشعراء اسماعيل باشا صبرى فى تهذيب الشعر وصقله إذ كانت داره نادى الأدباء والشعراء ، وكان ذا أذن موسيقية تحس نبو الوتر . فلا غرو بعد هذا أن يفيض الشعر على لسان شاعرنا وينشط من عقاله ، فكان من ذلك دالية أسوان عام ١٩٠٥ ، وهى تبين مافى نفس شاعرنا وما تركته تلك البلدة الطيبة من أثر حميد :

خليلى قلبى بسلمى عميد ... ووجدى بها كل يوم يزيد
يذكرنيها إذا جن ليلى ... شمال تهب وغصن يميد
وبرق يلوح وطير ينوح ... وحاد له فى المطايا نشيد

ومنها :

أنا ابن الضراغم يوم المغا ... ر وكيف تخاف الذئاب الأسود
أنا ابن الذين إذا ما انتموا ... فجاه رفيع ومجد تليد
بنو المجد والجود فى كل جيل ... إذا أعوز الناس مجد وجود
لنا قصب السبق يوم الفخار ... كما كان آباؤنا والجدود
تراث لنا منذ عليا معد ... يدل به كهلنا والوليد

ومنها :

لعل عهود الصبا أن تعود فلله ذاك الصبا والعهود
ونقضى لأسوان حق الجوار وحق لوصافها أن يجيدوا
فقد جمعت من صروف الجمال نهاية ما يقتضيه الوجود

وكتب أيضا إلى بعض إخوانه من أسوان مشتاقا قصيدة طويلة لم يبق منها إلا ماوعته ذاكرته قال :

صب بربع البانة الأخضر بات صريع الظبي والجوذر
أرسل فيه طرفه رائدا فخانه الطرف ولم يشعر
هيهات أنسى يوم ودعتها وهى من الأتراب فى معشر

ومنها :

وقد استطرد إلى ماكان من الحرب بين الروس واليابان عام ١٩٠٥ :

وأقبل اليابان فى جحفل يموج فى البر وفى الأبحر
تختال فى البحر أساطيله كجيشه فى المهمه المقفر

ولما نقل صديقه الفاضل الشيخ عبد الرحمن قراعة إلى أسوان شطر البيتين المشهورين :

« أمر على الديار ديار ليلى »

فرد عليه فضيلته مشطرا لهما أيضا مع إطالة مستملحة . ومثل هذه المداعبات الشعرية تدعو إلى النمو والاخصاب . وفى هذه المرحلة خاض غمار السياسة وسجل فى ديوانه كثيراً من الحوادث السياسية التى مرت بوادى النيل أو طافت بالبلاد الشرقية من حروب وثورات ، وكان له شعر ينشد فى المحافل وخطب رنانة وتأثير كبير ، فارتفعت منزلته فى النفوس وعرفه من كان جاهلا به ، وأذكر يوم قامت أول مظاهرة للسيدات فى ميدان عابدين أنه خطبهن على جمل أورق وهو يلبس عقالا وعباءة فكان ذلك باعثاً لهن وداعياً إلى ثورتهن .

وسنعرف عند الكلام على شعره السياسى كيف سجل تلك الحوادث واحدة واحدة بشعره الخالد ، وقافيته المتينة ، وأسلوبه الرصين ، وعباراته القوية على غير

ما نعهده فى بعض الشعراء الآخرين ، ولعله انفرد بهذا الغوص فبز كثيرا منهم

وأما المرحلة الثالثة — فكانت بعد إحالته إلى المعاش واتساع مجال القول أمامه وتحريره من ربقة الوظيفة ليكون حراً يتكلم بماشاء ، وينطق بوحى ضميره ، ولئن أطال الله عمره لرأينا من درره الغوال ، ونفثات يراعته البليغة الشىء الكثير والذخيرة الأدبية الخالدة ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى فاضت روحه الطاهرة مبكيا عليه من الجميع . وكانت جريدة البلاغ الغراء ميدانا تجول فيه بحوثه ومحاوراته التى كانت بينه وبين صديقه الدكتور زكى مبارك ، فاستمتع القراء الكرام بهذا النقاش الأدبى الجميل ، وذلك الحوار الذى كان بينهما ، شارحا مذهبه فى القديم كما شرح الدكتور مذهبه فى الجديد ، وما تبع ذلك من عتب وإعتاب .

« للبحث بقية »

عيسى محمود ناصر

— ١٠ —

قال بعض أهل العلم : كان لنا صديق من أهل البصرة ، وكان ظريفا أديبا ، فوعدنا أن يدعونا إلى منزله ؛ فكان يمر بنا ، فكلما رأيناه قلنا له : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ فسكت إلى أن أعدّ ما نريد ، فمر بنا فأعدنا عليه ، فقال : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون .

— ١١ —

دفع أبو الطيب الطبرى خفًّا له الى خفّاف ليصلحه، فكان كلما مر عليه يتقاضاه ؛ وكان الخفاف كلما رأى القاضى أخذ الخف وغمسه فى الماء وقال : الساعة الساعة . فلما طال عليه قال له : إنما دفعته إليك لتصلحه ولم أدفعه إليك لتعلمه السباحة .

الوهرانى الكاتب

ترجمته — رسائله

وضع واختيار وتحقيق للأستاذين

ابراهيم الابيارى و عبد الحفيظ شلبى
المحررين بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

كنا مع القراء على وعد بأن ننشر بين أيديهم فى الجزء من الصحيفة بعدد الجزء شيئا من مخطوط اللغة والأدب مما لم تتصل به يد فتبعثه من مرقده ، ولما كان نصيب هذا الجزء من المخطوط رسائل لكاتب خفيت آثاره ، وأصبح العلم به لا يعدو آحادا ، رأينا أن نعرض هنا له بكلمة نترجم فيها حياته تتخللها رسائله :

الوهرانى الكاتب

هو أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهرانى الملقب بركن الدين ، وقيل جمال الدين .

ووَهْرَان — التى ينسب إليها أبو عبد الله — مدينة فى أرض القيروان بينها وبين تِلِمْسان يومان ، وهى على ضفة البحر ، ولهذا ترى الكثير من أهلها يحترف بالتجارة . وقد أسست فى سنة تسعين ومئتين . وخرج منها من العلماء غير رجلنا هذا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمدانى الوهرانى الأندلسى ، شيخ ابن عبد البر[1] وأبى محمد بن حزم حافظ الأندلس .

ولقد كان أبو عبد الله الوهرانى رجل تطواف ورحلة ، لا يستقر له مقام بمكان ، تنقل فى كثير من البلاد . وكانت مصر وداريا — وهى قرية على باب

(١) هو الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله النمرى القرطبى ولد سنة ٣٦٨ وتوفى سنة ٤٦٣ وله تواليف لا مثيل لها ، منها كتاب الاستيعاب فى معرفة الأصحاب .

دمشق فى الغُوطة — مكانين طالت بهما أيامه .

أما عن مصر وسبب طول إقامته فيها ، فقد صادف نزوله بها أيام صلاح الدين، وكان الوهرانى ممن عرفوا بالكتابة والإحسان فيها ، وكانت حلبة الكتابة إذ ذاك عامرة بالكتاب ، وكان السبق فيها للكاتبين الأديبين القاضى الفاضل وعماد الدين الأصبهانى . وأنت تعرف من القاضى الفاضل ، ثم لعل علمك بالعماد فى حاجة إلى أن نزيدك عليه بأنه صاحب خريدة القصر ، فى شعراء الشرق والمغرب ومصر ، التى جمعت فى مجلداتها الست لفًّا من الشعراء فى هذه البقاع ممن عاشوا فى المئة السادسة وعاصرهم المؤلف .

وكما يعشق الجندى الباسل ميادين الكفاح والجلاد ، يعشق الكتاب والشعراء ميادين الكتابة والشعر ؛ لهذا رأينا الوهرانى قصد قَصْد مصر ، لما اكتملت له قوة بيانه ، ينازل فى ميادينها كتابها .

وهنا تحدثنا كتب التاريخ فتقول :

« فلما دخل البلاد (أى مصر) ورأى بها القاضى الفاضل ، وعماد الدين الأصبهانى الكاتب ، وتلك الحلبة ، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، ولا تنفُق سلعته مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل . . . الخ »

هكذا يحدثنا عن الوهرانى من تحدث عنه بأنه خلّى بينه وبين الجد - وقد كان سنتَه فى رسائله - إلى الهزل عند ما نزل مصر ، ثم كان له فى ذلك رسائل أخف ما تكون رقة ، وأعذب ما تكون منطقا ، وأملأ ما تكون بالفكاهة والدعابة ، وأنه خلف من ذلك ديوان رسائل يكاد يبين عن خفة روحه ، ورقة حاشيته ، وكمال ظرفه . وضع بعض هذا الديوان بمصر وبعضه بالشام ، وله من بين رسائله رسالة طويلة سماها منام الوهرانى ، اجتمعت كلمة الكتاب على التنويه به والاشارة إليه . ولم يذكر مؤرخ أو كاتب الوهرانى وعرض إلى رسائله إلا خص بالذكر منها هذا المنام وأفاض فى مدحه ، واتخذ منه دليلا على سعة اطلاع وغزارة مادة .

وفى ظننا أن الهزل فى القول والدعابة فى الحديث صفة لايخلقها المرء فى نفسه

خلقا ، كما أتيح للوهرانى أن يفعل عندما نزل مصر ، وهو إن استطاع ذلك فبعيد أن يصل منها إلى الذروة ، وتصدر عنه فيها تلك الكلمات التى صدرت عن الوهرانى ، والتى إن دلت على شىء فلا أقل من أن تدل على أن تلك الرسائل وهذا المنام لاتصدر إلا عن قلب فطر على الدعابة ، وخامرته روح الهزل صغيراً ، فشب عليهما وكانا فيه طبعا نشقهما يوم نشق الهواء فى هذه الحياة . وبعيد أن ينشأ الإنسان على الجد فى القول ثم يصرف نفسه عنه إلى الهزل ولا يحس لجده — الذى هو الأصل فى نفسه — أثراً واحدا .

نصدق أن الرجل قد كان قبل أن تحتويه مصر مصدراً للنوعين الجد والهزل ، يقول فى هذا وفى ذاك ، ونصدق أيضاً أن من هذا شأنه لاتكاد ترى له جدا إلا أحسست له فى خلاله لونا من ألوان الهزل ، يقل أو يكثر على حسب الروح الذى يهيمن على الرسالة إذ ذاك . وأنك لاترى له هزلا كذلك إلا وللجد منه نصيب .

وهكذا كان الوهرانى من شُبُه إلى دُبُه نهباً لهاتين النزعتين. وهذه رسالته إلى القاضى الفاضل ، بدأها جادا ، وكان بوده — فى ظننا — أن يختمها كما بدأها ، فجرى على السنن الذى بدأ فيه شوطا ثم غلبته فى نهايتها روح الهزل فهزل . وهاهى ذى :

٭ ٭ ٭

مجلس مولاى القاضى الفاضل (١)، أبقاه الله ، مجلسُ قضاء وتَنفيذ ، وموضعه موضع إبرام وتحليل ، فيه مُعْتَرك الحُظوظ ، ومقارعة البحوث ، ومنه تتفجر ينابيع الأرزاق ، وفيه مشابه من اللوح المحفوظ ، فلأجل ذلك ساعاته مترعة (٢) بالأشغال ، وأوقاته ملآنة بمُهِمّ الدولة ، متدفقة بحوائج الناس ، ليس فيها فضلة

(١) هو الوزير الكاتب الشاعر مجير الدين أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين ، وهو عسقلانى المولد مصرى الدار . وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وولد بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ وقد خلف فيما خلف ديوان رسائل وديوانا آخر فى الشعر .

(٢) مترعة : مملوءة .

لمستفيد عِلم ، ولا لمبُتغى أنس وتذكار ، فكسدت عنده بضاعة الخادم ، وبارت صنائع البطالين .

فيجب على الرجل المطوّق بصنائعه ، الضعيف المُنّة [١] عن القيام بشكره ، إذا همّ بخدمة فى موسم أو رأس شهر جديد ، أن يقف على باب داره فى وقت ركوبه ، فيهنئه وينصرف ، ليجمع بين الخدمة والتخفيف ، والسلام .

* * *

وهذه رسالته الثانية إلى القاضى الفاضل يتمسحه فيها ويتلطفه ، والتى هى لا الجد البحت ولا الهزل الصراح ، وإنما هى خفة الروح لبستها ألفاظ الرسالة فصدرت عن الوهرانى تهزك بالطرب الذى تضمنته فى ثوب يكاد يكون الجد أو هو إليه أقرب . قال :

* * *

عند عبد مولاى القاضى الأجل الفاضل أدام الله جدّه ، وأهلك ضدّه ، من السرور بقربه ، والدخول فى سربه

كما سر مهجور بوصل الحبائب

ومن الارتياح إلى جلاله ، والورود على زُلاله

كما ارتاح ظمآن لعذب المشارب

ومن الاهتزاز لمعانيه ، والطرب إلى ما يعانيه

كما اهتز عسّال من السمْر باتر

ومن الافتتان بلفظه ، والاعتكاف على حفظه

كما نظم الدرّ المفصّل ناثر

ولولا أن عبده أخفش البصيرة والبَصَر ، تغلبه لُكنة الحَصَر ، ويَضعف عن مقابلة الشمس والقمر ؛ للازمه ملازمة السَّعْد لِبابه ، والتوفيق لأحبابه ، لكنه كالخفّاش يعشى عن الأنوار ، وكالجعل يتأذّى برائحة النوار ، فلا يمرح فى شكاله ، ولا ينبسط إلا مع أشكاله ؛ ولا يغتر ـ أدام الله عزه ـ بزخارفه .

(١) المنة : القوة .

فالعود أطيب من ثراه ، والكلام أحسن ممن افتراه ، ولأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، ولولا أن نسيب خادمه أقبح من المشيب ، وقريضه أوجع من التقريص ، وفِقَره أشر من الفقر ، وقرائنه كالقرين السوء ، لأرسلها كالأفراس ، وأسكت بها صياح الأجراس ، والسلام .

* * *

هاتان الرسالتان وقليل غيرهما ، لم نر الوهرانى فى رسالة من رسائل ديوانه الذى بين أيدينا ، كان قريبا من الجد قربه فيها .

ولقد أثبتناهما هنا لنسجل للوهرانى شيئا فى ناحيته الأولى ، ناحية جده ، ولنخلص منهما إلى أن الروح التى تملكها الفكاهة يخونها الإفصاح عما تكنه إن هى حاولت أن تكون جادة على طول الطريق .

ولعل من قرأ للوهرانى رسائله التى داعب فيها فأسرف ، وتماجن فأغلى ، وجاوز فيها حدود الأدب فأفحش ، ثم وازن بينها وبين هاتين الرسالتين عدّهما من بين تلك الرسائل جدّا ؛ وعند هذا الرأى وقف المؤرخون ، فجعلوا للوهرانى ناحيتين منفصلتين ، ونزعتين مقطوعا ما بينهما .

وإنّ أسفنا لعظيم على أننا لم نعثر للوهرانى على رسالة واحدة قبل قدومه إلى مصر — وهى الفترة التى كنا نحب أن نرى له فيها أثرا واحدا — لنعرف كم كان مبلغ الجد من رسائله ، وهل كان فى الحق جدا لا تشوبه روح الوهرانى الماجنة الهازلة . أو أنه كان كيوم القيظ لا يعدم الإنسان من بين لحظاته لحظة يتمتع فيها بنسمات ندية .

والآن نسوق عن الوهرانى صنفا آخر من رسائله . ألا وهو رسائله التى كانت هزلا ، والتى عرفها عنه المؤرخون واشتهر هو فيها وأجاد . وهاهى ذى رسالة له كتبها إلى الأمير[١] عز الدين موسَك[٢] عن لسان بغلته ، وهى رسالة يكاد الجد ينعدم

(١) هو خال صلاح الدين الأيوبى وإليه ينسب شارع الموسكى لأنه كان ينزل قصرا به

(٢) تلحق الكاف فى اللغة الفارسية آخر الاسماء عند ارادة التصغير ، فيقولون عند تصغير موسى موسك وفى حسن حسنك وهكذا .

بين سطورها ، فلا ترى إلا فكاهة طريفة ، ودعابة حلوة تجرى من أول سطر فى الرسالة إلى آخر سطر منها ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

المملوكة « رَيحانة » بغلة الوهرانىّ ، تقبل الأرضَ بين يدى المولى عزّ الدين حسام أمير المؤمنين ، نجّاه الله من حر السعير ، وعطر بذكره قوافل العير ، ورزقه من القرط (١) والتبن والشعير ، ووَسْق (٢) مئة ألف بعير ، واستجاب فيه صالح الأدعية من الجم الغفير ، من الخيل والبغال والحمير ؛ وتُنْهى (٣) إليك ما تقاسيه من مواصلة الصيّام ، وسوء القيام ، والتعب فى الليل والدواب نِيام . قد أشرفتْ على التَّلف ، وصاحبها لا يحتمل الكلف (٤) ، ولا يُوقن بالخَلَف ، ولا يحلّ به البلاء العظيم ، إلا فى وقت حاجتى إلى القَضيم (٥) ، لأنه فى بيته مثل المسك والعبَير ، فشعيره أبعدُ من الشّعرى (٦) العبور ، لا وصول إليه ولا عُبور ، وقرطه أعزّ من قرط (٧) ماريه ، لا يخرجه بيع ولا هبة ولا عاريه ، والتبن

---

(١) القرط (بالضم) : نبات كالرطبة إلا أنه أجل منه وأعظم ورقا (البرسيم) .

(٢) الوسق : حمل البعير . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل المخطوط بالشين المعجمة وهى مصحفة عما اثبتناه .

(٣) أنهى اليه الأمر : أعلمه به .

(٤) الكلف : جمع كلفة (بالضم) وهى المشقة .

(٥) القضيم : شعير الدابة .

(٦) الشعرى العبور : كوكب يطلع فى الجوزاء وطلوعه فى شدة ، الحر ، ويقال له أيضا الشعرى اليمانية

(٧) من أمثال العرب : خذه ولو بقرطى مارية . وهى مارية بنت ظالم بن وهب ابن الحارث بن معاوية الكندى ، وابنها هو الحارث الأعرج ، وإياها عنى حسان بقوله :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

وكان فى قرطيها درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما ، ولم يدر ماقيمتهما ، فضربتهما الناس مثلا فى النفائس وقالوا : أنفس من قرطى مارية . وقيل : انها أهدت قرطيها هذين إلى الكعبة.

أحبّ إليه من الابن ، والجُلبّان(١) أعزّ من دهن البان ، والقَضِيم بمنزلة الدر النظيم ؛ والعضة (٢) ، أجمل من سبائك الفضه ، وأما الفول، فمن دونه ألفُ باب مقفول . فما يهون عليه أن يعلف الدواب إلاّ بعيُون الآداب ، والفقه اللباب ، والسؤال والجواب ، وما عند الله من الثواب . ومعلوم ياسيدى أنّ البهائم لا توصف بالحُلوم ، ولا تعيش بسَماع العلوم ؛ ولا تَطْرَب إلى شعر أبى تمّام ، ولا تعرف الحارث (٣) بن همام ؛ ولا سيّما البغال ، التى تشتغل فى جميع الأشغال ، شبكة من القَصيل (٤) ، أحبّ اليها من كتاب التحصيل(٥) ، وقفّة من الدريس(٦) ، أشهى

---

(١) الجلبان (بضم الجيم واللام وتشديد الباء وقد تخفف): من القطانى ، وله قضبان مربعة ، ينبسط على الأرض وحبه مدور إلى البياض وليس بصحيح التدوير حلو ويؤكل نيئا فى الربيع ثم يجفف ويطبخ .

(٢) العضة (بالكسر) : العضاه وما صغر من شجر الشوك ، و (بالضم) : العجين تعلفه الابل والشعير والحنطة ، وهو أيضاً اليابس من الحشيش .

ولعل العجين هو المراد من بين هذه المعانى لأنه أقربها شبها بالفضة فى اللون وفى أنه يكون فى تجمعه وتكونه كالسبيكة . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل محرفة .

(٣) هو الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، وهو الذى مدحه أبو دواد الايادى فأعطاه عطايا كثيرة، ثم مات ابن لأبى دواد وهو فى جواره فوداه فمدحه أبو دواد ، فحلف له الحارث أنه لا يموت له ولد إلا وداه ولا يذهب له مال إلا أخلفه، فضربت العرب المثل بحسن جواره وفيه يقول قيس بن زهير :

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى جار كجار أبى دواد

(٤) القصيل : الشعير يجز أخضر لعلف الدواب ، سمى به لسرعة اقتصاله من رخاصته .

(٥) لعله يريد كتاب البيان والتحصيل لابن رشد المتوفى سنة ٥٣٠ هـ وهو فى فقه المالكية : أو كتاب تحصيل عين الذهب للشنتمرى من علماء القرن الخامس الذى كان وضعه شرحا على كتاب سيبويه .

(٦) هو بالعربية الدرين وإبدال السين من النون تحريف .

اليها من فقه محمد بن إدريس . لو أكل البغل كتاب المقامات (١) ، لمات ؛ فان لم يجد إلا كتاب الرَّضاع ، ضاع ، ولو قيل له أنت هالك ، إن لم تأكل موطأ مالك ، ماقَبِل ذلك ؛ وكذلك الجمل لا يتغذّى بشرح أبيات الجُمَل (٢) وحزْمة من الكلا ، أحبُّ إليه من شعر أبى العلا ، وليس عنده طيب ، شعر أبى الطيب . وأما الخيل ، فلا تطْرَب إلا لسماع الكيل ، وإذا أكلت كتاب الذّيل ، ماتت فى النهار قبل الليل ، والويل لها ثم الويل ، ولا تستغنى الأكاريش عن الحشيش ، بكل ما فى الحماسة من شعر الحريش (٣)، وإذا أطعمت الحمار شعر ابن عمّار (٤)، حل به الدّمار . وأصبح منفوخا كالطبل ، على باب الاسطبل ، وبعد هذا كله قد راح صاحبها إلى العلاّف وعرض عليه مسائل الخلاف ، وطلب من تِبْنه خَمْسَ قفاف ، فقام إليه بالخفاف ، تخاطبه بالتقعير ، وفسّر عليه آية العير ، وطلب منه وَيْبَة شعير . فانصرف الشيخ منكسر القلب ، مغتاظا من الثلب ، فالتفت إلى المسكينة ، وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة ، وقال لها : إن شئت أن لا تُكَدّى فكُدّى ، لاذقت شعيرا مادمت عندى ، فبقيت المملوكة حائره ، لا قائمة ولا سائره ؛ فقال لها العلاف : لاتجزعى من حباله ، ولا تلتفتى إلى سِباله (٥)، ولا يكون عندك أخس من عَنْفَقَته (٦) . هذا الأمير عز الدين ، سيف المجاهدين ، أندى من الغمام ، وأمضى من الحُسام، وأبهى من البدر ليلة التمام ؛ يرثى للمحروب ، ويفرّج عن المكروب ، وهو نبى بنى أيوب ؛ لايردّ

(١) لعله يريد المقامات للحريرى . وهو كتاب غنى عن التعريف به .

(٢) لعله يريد كتاب « الجمل الكبيرة » للزجاجى النحوى المتوفى سنة ٣٣٩ . وقد شرح أبياته البطليوسى المتوفى سنة ٦٢١ ﻫ فى كتاب سماه « الحلل فى شرح أبيات الجمل » كما شرحه ابن العريف الاندلسى المتوفى سنة ٣٩٠ ﻫ فى كتاب سماه «شرح الجمل».

وهناك شروح غير هذين إلا أنها لمؤلفين متأخرين عن الوهرانى .

(٣) هو الحريش بن هلال القريعى .

(٤) هو ابن عمار الأسدى وهو الذى يقول فى رثاء ابنه معين :

حللت بخسر سابور مقيما يؤرقنى أنينك يامعين

وخسر سابور بلد من بلاد العجم

(٥) سبال : جمع سبلة (التحريك) وهى الشارب .

(٦) العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

قائلا ، ولا يخيّب سائلا . فلما سمعت المملوكة هذا الكلام ، جذبت الزمام ، ورفست الغلام ، وقطعت اللجام ، وشقّت الزحام ، على الأقدام ورأيك العالى والسلام .

وإذا كنا قد قدمنا هذه الرسالة فما أولانا بأن نلحق بها رسالة له وضعها فى صورة سؤال ، — وفى أكثر الظن أنه كتبها يعرض فيها بابن الحكم المدرس لمذهب الحنفية حينذاك — وسوف تلمس هنا شيئا من فحش القول ، وهذا مالم يبرأ منه كثير من رسائله ، إلا أنك مع هذا لاتخرج عن الحكم للرجل بالإبداع والقدرة ، ثم بالابتكار حينما تراه لم يغفل أن يضع للسؤال جوابا جعله على ألسنة الفقهاء الذين وجه إليهم السؤال . وهاك سؤاله ثم الجواب عنه :

ما تقول السادة الفقهاء ، رضى الله عنهم ، فى رجل يرَى أنه من أئمة الشرع ، ومن أرباب الأصل والفرع ؛ ويعتقد أن له الدرجةَ المُنيفه . فى مذهب أبى حنيفه ، ويقول : لو جادلت مالكا ، لصرت له مالكا ؛ ولو لقيتُ ابنَ إدريس ، لسلّم إلى منه التدريس ؛ ولو أدركت ابنَ حنبل ، لكنت أتقى منه وأنبل ؛ وسِرُّه — وفقكم الله — يخالف نجْواه ، وفعِلْه يكذّب دعواه ؛ وذلك أنه يُبيح الفروج للفروج ، ويستحل سفك الدّما ، على البيض والدّمى ؛ ويأخذ بأرخص الأقوال ، فى استباحة الأموال ؛ إن دخل الجامع ، . . . . ؛ (١) ، وإن ولى المدارس ، صيّر العلم كالطلل الدارس ؛ وإن سكن المشاهد ، طاب الرقص والشاهد ، وإن صعد للوعظ على الأعواد ، حثّ الحرُم على الوفاء بالميعاد ؛ ومزج لهم الهزل بالجد . ثم إنه لركاكة دينه ، وضعف يقينه ، يصلّى قاعدا من غير ألم ، ويبول قائما على فرد قدم ؛ فتراه يسهر على القمار والحزر ، وينام ليلة القدر ؛ ويستحل بيع القِبلة بقبله ؛ ومكة بصكه ، ولا يشترى حجة ، بعجُةّ(١) ؛ ولا عُمْره بتَمْره . قد أخرج مال الفتوح والصدقات ، فى المهور والصدقات ؛ وصيّر مال الحبس والأوقاف ، لربات الشرف والأوقاف ؛ قد أفرغ من . . .(٢) قواه . واتخذ إلاهه هواه ، فغدا بلا عقل ولا حلم ، وأضله الله على علم ؛ وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة

(١) العجه (بالضم) : الطعام الذى يتخذ من البيض . وقيل هو كل طعام يجمع من التمر والا قط . (٢) تعمدنا عدم اثبات هذه الجملة لاسفافها .

فبيّنوا — وفقكم الله — أيجب على السلطان أن يضرب على يده ، أم يقويه على ماهو عليه ، مأجورين مثابين إن شاء الله تعالى .

* * *

الجواب على لسان الفقهاء

إن صحّ ماذكرعنه من هذه الحال ، وكثرة الإضلال؛ فيجب أن يعزّر بديّا ، وينبذ قصيّا ، بعد أن ينتف من ذقنه ماطال وماقصر ومابين ذلك ، وما كان ربك نسيّا . وليس من التحقيق الجائز ، أن يدفع مال الوقف للعجائز ؛ فان يفعل ذلك أُخذ من نفقته ، مع شعَرات من عَنْفَقَته؛ وإن يَثِبْ للفرار ، فليس إلا الطرطور والحمار . هذا مقتضى الدليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

ولا يسعنا قبل أن نختم عن الوهراني حياته فى مصر ونودع رسائله إلا أن نورد رسالته هذه القصيرة التى كتبها إلى ابن مسلم الشاهد .

وكان ابن مسلم ممن يقولون بالإمام القائم المنتظر كما كان متهما بالتفريط فى أمانة أودعها عنده الكامل بن شاور .

وفى الرسالة معنى جديد نعرفه عن الوهرانى ، وهو أنه لم يك من غلاة الشيعة ولا ممن يقولون بالامام المنتظر . قال رحمه الله :

* * *

وحق الحجاب والكتاب ، والبغلة والسّرداب ؛ والامام القائم ، الحى الدائم ، الذى لايموت ولا يفوت ، ولا يحتاج إلى القوت ؛ ما أحدثت فى ملكى هذا حدثا يوجب الفسُخ ، وإلاّ قلت إن الأمة لم ترتدّ عن الاسلام ، بعد النبى عليه السلام ، وإن أصحابه العشرة ، لم يتمالئوا على ابن عمه حيدرة ، وإن ابن أبى قحافه ، أولى منه بالخلافه ؛ وإن عمر بن الخطاب ، أولى منه بالحكم وفصل الخطاب ؛ وإن الخليفة عثمان ، سبقه إلى التوحيد والايمان ، وإن معاوية فى كل ما ادعاه من المطالب ، أحقّ به من على بن أبى طالب ؛ وإن عائشة أمنا ، بعيدة من الافك والخنا ، والا قلت إن أهل السنه ، يدخلون الجنه ، وإن مذهب الشيعه ، كسراب بقيعه ؛ وإلا حشرنى الله مع يزيد ، إذا قالت النار هل من مزيد ؛ وسلط عليه أنواع البلا ، ولا حشره مع شهيد كربلا ، وإلاّ أذاب الله كل دينار استودعنيه

الكامل فى حدقتيه ، ولا أراه فى دولة العز ما تقر به عينيه .

من هذه الرسائل نرى أن الوهرانى كان على ما وصفنا لك يملك زمام الجد والهزل ، وأنه كان إلى الهزل أميل . ولعل خلو ميدان الأدب فى مصر من هازل خفيف الروح مثله هو الذى شجعه على أن يقدم إليها ليسد فراغا ، ويتبوأ كرسيا خاليا ، ويتمتع بالامارة ولو غير مأمورين .

وأما عن البلد الثانى الذى ظفر بالوهرانى زمنا طويلا ، فهو داريا ، وأكبر الظن أن رحلة الوهرانى إليها كانت بعد فراقه مصر ، وأما أن الوهرانى رحل إليها من مصر دون أن يعرج على غيرها فذلك مالا نملك الآن فيه رأيا ، وكل ما نستطيع أن نقوله إنه كان بداريا آخر أيام حياته ، وأنه تولى فيها الخطابة .

نقول هذا ونعجب كيف اختير للخطابة رجل عرف عنه هذا الماضى الذى كان فى بعضه هازلا ، وكان فى بعض هذا الهزل مفحشا . وفى اعتقادنا أن قوة البيان وحدها لا تغنى عند الاختيار لمنصب كالخطابة ، اللهم إلا إذا كان الوهرانى على غير الخطابة الدينية ، وهذا ما نستبعده . ولعل الذى برر هذا الاختيار ما كان قد وصل إليه الوهرانى حينذاك من سن متقدمة يملك فيها العقل زمام اللسان ، وتحوط هيبتها صاحبها بسياج من الوقار ، فلا تجعله يُصدر حين يصدر إلا عن جد ، وفوق ذلك فان للخطابة والخطيب قيودا و تقاليد .

ولسنا نشك فى أنه كانت تجرى على الوهرانى بسبب الخطابة وظيفة ، وهذا ما حدا بالوهرانى إلى المقام فى داريا ، إذ أحب البلاد إلى نفس الانسان بلد يتصل فيه رزقه ، ويرغد فيه عيشه . فعاش الوهرانى بها زمنا — لم نعثر فيما بين أيدينا من المراجع على تحديده — حتى أدركته منيته سنة ٥٧٥ ﻫ فدفن على باب تربة الشيخ أبى سليمان الدارانى فى السابع عشر من رجب عليه رحمة الله .

هذه كلمة أوجزنا فيها حياة الوهرانى الكاتب المجهول لدى كثير من قراء العربية وكم كنا حريصين على أن ننشر بين يدى قراء « صحيفة دار العلوم » منامه ، لولا أنه كثير التصحيف والتحريف ، وهو لذلك فى جاحة إلى فرصة واسعة ، وهذا ما لم يتيسر لنا ، مع كثرة ما بين أيدينا من أعمال ، فى تلك الفترة الوجيزة التى مضت على صدور الجزء الرابع إلى ظهور هذ الجزء فعذرا .

هو ؟

صورة قلمية خاصة

للأستاذ محمد موسى عفيفى
مدرس بمدرسة الأمير فاروق الثانوية بالقاهرة وكلية أصول الدين

ليس إقليما من الأقاليم الواسعة ، ولا قطراً من الأقطار الشاسعة ؛ ولا جبلا تَحضُنُ بيضَها فى قُنَّتِه الأنوق ، ولا سهْلاً نمنمهُ حمرُ الشقيق ، ولا ساحلا تملأ بمختلِف ألوان العقيق . ليس وادياً من الأوداء ، ولا روضا ترِفُّ ألوان أزهاره بالانداء ، ولا مركبا يجرى فى الدأماء . ليس بحراً طاميا ، ولا نهراً جاريا ، ولا عارضا هاميا . ليس كوكبا دريا : قمراً مضيئًا أو فرقدًا وضيئًا . ليس الصبح سطع وتنفَّس ، ولا الليل ادلهَمَّ وعسعس ، ولا الجو كلَحَ وَجْهُهُ وَعَبَّسَ . ليس عاما مشهوراً كعام الوفود أو عام الفيل ، ولا شهراً اشتهر بفضل كالذى أنزل فيه التنزيل ، ولا يوما كيوم حليمة أو يوم الأرليل (١) . ليس الشتاء ذا البرد النافح ، ولا الصيف ذا الحر اللافح ؛ ولا الربيع يفاخر بالأرض السماء ، ولا الخريف يبرد فيه الهواء . ليس جيشا جرارا ، ولا حصانا كرارا ؛ ولا معقلا من المعاقل المنيعة ، ولا أُطمُا من الآطام الرفيعة .

ليس من السوانح ، ولا من البوارح ، ليس داء يُضنيك ، ولا دواء يشفيك ليس مشموما تنتشيه ، ولا طعاما تشتهيه ، ولا شَرابا سائغاً تبتغيه .

---

(١) يوم من أيام العرب كانت فيه وقعة صلعاء النعام : موضع بديار بنى كلاب

هو : ليس جمادا ولا حيوانا ولا طيراً ولا نباتا ولا هواء ، ولا ملكا كريما ولا شيطانا رجيما :

هو : آدمى تام الآدمية ، مستكمل أمارات الانسانية ، وهو أشهر من البدر ، وأَنمُّ عن نفسه من ضوء الفجر ؛ ومع ذلك ليس ملكا من ملوك الأنام ، ولا عظيما من العظام ؛ ولا من ورثة الأنبياء ، ولا من طبقة الفُصَح الأبيناء ، ولا من أرباب الفلسفة الحكماء ، ولا من السَّراة الأغنياء ؛ ليس صانعا صَنِيع اليدين ، ولا تاجرا يضرب فى الربح بسهمين ، ولا زارعا مُلما بفلح الأرض وغرس الأشجار ، ولا محيطا بأسرار الأزهار وجَنْى الثمار .

ذهب سَمْعُهُ فى النَّدِىّ ، ومع ذلك لم يعلَقه فهم ، ولم يقع من رواده فى وهم . يملأ اسمه وشخصه ذهنك كلما دنا منك ، وسرعان ما تنساه إذا غاب عنك ، لا تحفِلهُ ولكنك تحتاج إليه ، ولا تباليه ولكنك تعتمد عليه ، تأخذه عيناك ولكنك لا تَطرِفه بعين الاحترام ، ولا ترمقه بنظرة الاعظام .

تعوَّد بسط الكف لا ليعطيك بل ليسلبك ، ومدَّ يده إليك لا ليترضّاك ، بل ليتقاضاك ؛ والإقبالَ عليك لا ليسألك حالك ، بل ليَحْرَبك مالك ؛ يتفرس وجوه المنتدين كأن بينه وبينهم أمراً ، ويشزِرُ الزَّور كأنَّ له عندهم ثأرا ؛ يقطع عليك حديث الصديق والجليس ، ويمشى فى الأرض كما يمشى فى الجسم الرسيس . هل عرفته ؟

هو : معروق العظم ، ليس جُمَاليًّا فى ضخامة الفيل ، على أنه ليس رسما كالجمل الهزيل ، رَبْعُ القامة ، متوسط الهامة ، مخروط الوجه ، أجرد أثرم ، نأى عظم الترقوة ، هضيم البطن ، لطيف الكشح ، طويل اليدين ، مُعَرَّق عظم الساقين ، له أذنان بين بين ، وشفتان ليس بهما كثير شين ، وعينان كأنهما مغمضتان ، وجفنان دائما مطبقان ، أما رقبته فكذَوْبِ القار ، طويلة ودقيقة كأن أعراقها البارزة أمراس شدت من فوق إلى رأسه ومن تحت إلى صدره ، وأما شاربه فبقية شعر سوداء كأنها تحت أنفه خنفساء . هل عرفته ؟

هو: خامد الذكاء، أخص صفاته الغباء، ككَيْسان(١) يفهم غير ما يسمع، وكمروان (٢) إذا قيل له اطرح يجمع، تستعجم عليه المدارك الظاهرة، وتَستْسر الأشباح الماثلة. يعد ويخلف عن غير عمد، ويأتمر بما تأمر ولكنه لا ينفذ بدون قصد.

إذا كظت أسرة النادى بهوه وحجراته رُبك واستحار، وضجر واستجار، الغائب عنده حاضر، والحاضر مسافر، وأحمد عنده محمود، ومحمود عبد المعبود، ونجيب عنده غريب. وغريب لبيب. وصيام عنده رمضان، ورمضان شعبان، ومكاوى عنده طنطاوى، ومدنى عنده قرنى. هل عرفته؟

هو: ليس فيه منّة الفتيان الأقوياء ولا رعشة الشيوخ الضعفاء. دائب الحركة يذرع الأرض ذرعا، كأنما يثيرها ليزرع الحب زرعا، لا تراه جالسا كما تجلس لأنه لم يتعود الجلوس على الوثير، ولم يُرض نفسه على افتراش الحرير. وهو مسكى اللون لم تحل عليه الشمس رداءها بهاء، ولم يخلع عليه القمر من ضيائه رواء، ولم يعره وجه الصباح غرته البيضاء، ولا السماء الصافية طلعتها الزهراء.

هو ليل لبس النهار دثارا، وتخذه رداء وشعارا. اختصر فى ملبسه فصول العام، فالربيع والخريف عنده فضل، والشتاء والصيف عنده فصل، يرتدى فى أثنائهما ثوبا رَفلاً واسع الأركان، طويل الأردان، فى لون الجمان أو الأقحوان، وعلى رأسه «طربوش» يُميله إلى اليمين فيستر الحاجب الأيمن ونصف الجبين، وفى رجليه نَعْلَة بيضاء نصل لونها. هل عرفته؟

هو: الذى بينه وبين النهار طباق، وبينه وبين الليل وفاق، هو الذى يبرد لك الماء إذا ارفض عرقك أو نال منك الحر، ويدفئك إذا أرعشك القُرُّ، هو الذى يقريك لرقة حاله من غير ماله. هو الذى يحفظ عصاك، ويرجو رضاك، ولا يأبى نداك. هو «محمد خادم النادى».

محمد موسى عفيفى

---

(١) مستمل كان لبلادته يكتب غير ما يسمع.

(٢) كان كاتبا على خراج بغداد، وقد عرف بضعفه فى الحساب.

إذا

ترجمة قصيدة « IF » للشاعر الانجليزى كبلنج

بقلم الأستاذ طه عبد الفتاح

مدرس اللغة العربية بمدرسة بنها الثانوية

إذا أنت لم تعبث برأسك ثورة ... وحولك هاماتُ الرجال ثوائر
وقد نقَموا منك الثبات وكلّهم ... إليك بلوم فى ثباتك باكرُ
إذا اسطَعْتَ أن تغدوا بنفسك واثقا ... وللناس طرًّا فيك ريبٌ مُساورُ
ولكن برَحب الصدر لاقيت ريبهم ... وما عزَبَتْ عنك الظروف الغوافِرُ
إذا اسطَعتَ صبراً فى انتظار ولم تكن ... أخا ملل تسطو عليه المَضاجِرُ
أو اختُلِقَت زُوراً عليك أكاذِبٌ ... وما أنت فى سوق الأكاذيب تاجرُ
أو اضطَرَمَتْ حقدا عليك جوانح ... وصدرك من رِجْس الحفيظة طاهر
ولم تَتَجاوَزْ فى الظهور بِطيبَةٍ ... إلى غاية فيها تغاليك ظاهر
ولم تك فى صوغ الكلام مُحَذْلِقاً ... وتَعْدُو نطاق القَصْدُ والقصْدُ سافِر(١)
إذا جُلْتَ فى وادى الأمانى ولم يكن ... لسلطانها حكم على النفس قاهر
إذا لم تك الأفكارُ منشودكَ الذى ... إلى دَرْكِهِ تشتاق إذ أنت فاكر(٢)
إذا النجح قد قابلته وهو باسم ... وقابلك الإخفاق والوجه كاشر
فعاملت ذَيْنِ الخاد عين مسَوِّياً ... فلا أنت ذو بشر ولا أنت نافر

(١) المحذلق والمتحذلق : مظهر الحذق فى الكلام.

(٢) فاكر : مفكر.

إذا قلت قولا ثم ألفيت أنه يُحَرِّفه نذل عن الحق جائر
ليخدع بالتحريف أهل حماقة وأنت على تحريف قولك صابر
أو اسطعت صبرا أن ترى ما جعلته لعيشك أسًّا حطمته الدوائر

إذا أنت جمّعْتَ المكاسب قُضِّيَتْ لتحصيلها أيامُ كدٍّ غوابر
وعَرّضتَهَا للحظ جِدَّ مُجَازفٍ لتربح أو تأتى عليها المخاطر
فأبتَ بخسران وشمّرْت جاهداً لتبدأ فى إخلاف ما أنت خاسر
وأغفلتَ ماقد كان لا أنت مضمر ندامة خسران ولا أنت ذاكر
إذا القلب والأعصاب فى الجسم أُخْمِدِ وقد خَمَدَتْ أوتاره والأواصر
فأرغمتها حتى تكون صوالحا لتحقيق ماتبغى وهنّ صواغر
فتبقى على رغم الخمود وَخطبهِ على حين لاشىء بنفسك قاسر
سوى العزم يملى أمره يقاتُها فتعنو نواصيها لما هو آمر
إذا اسطعْتَ أن تبُقى لنفسك قدرها وأنت إلى غوغاء قوم تحاور
إذا صنت ماعوّدته من خلائق وأنت إلى الصِّيدِ الملوك تساير
إذا اسطعْتَ ألاّ يرمينّك بالأذى صديق توالى أو عدو تحاذر
إذا أنت قدّرْت الرجال مكانة وأنت على ألاّ تبالغ قادر
إذا لم تودع فى الحياة دقيقة وفى صدرها حقد عليك مخامر
فأفعمْتَهَا جِداً وكَسْبًا لنافع وهَجْراً وإغفالا لما هو ضائر
فأنت بملك الأرض شرقاً ومغربا وما قد حوَتْه يا بنَىَّ لظافر
وأصبحت فى أوج الرجولة ضاربا بسهم له فضل لدى الناس وافر

«ألاجرسون»

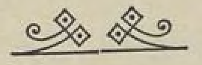
للأستاذ على شرف الدين

وأبصرتها فى رَبْرَبٍ من لِداتِها (بصالون) حلاّقٍ لهن زحام
إذا انفتلت بين المرايا لحاجةٍ شهدت نفور الظبى حين يرام
أراها : فأما صدرها فمؤنث كعهدى وأما رأسها فغلام
فقلت — وما أدرى رهافة سمعها : على الحسن بعد (العقربين) سلام
فقالت : قديم لا تعيش بعصرنا كأنك لم يمرر بعهدك عام
على رِسْلِ بنت العصر والعصر كله مساوئ نُصْلى نارَها ونسام
وأى جمال فى الأنوثة بعد ما مضى سحرها فى الشعر وهو وسام؟
قتلت به سر الأنوثة مشرقًا وقتلك عنوان الجمال حرام
دعيه يداعبْه النسيم لشاعر ففيه لذى الذوق السليم هيام
غدير من التبر النضار زها بهِ على الرِّىِّ من لَدْن الغصون قوام
وما موجه إلا الأغاريد فى الضحى شداها على السَّرح الأغَنِّ حمام
إذا شبهوا الألحاظ بالسهم فاتكا ففى الشعر مصقول الفِرِنْدِ حسام
وما البنت إلا زهرة طلَّها النَّدى غدائرها فى الصفحتين كمام
وما وجهها إلا الهلال ولن ترى له بهجةً مالم يَحُطْه ظلام

* * *

وغادرت الحلاّق زهرةَ روضةٍ جفاها بِمُسْتَنٍّ الربيع غمام
أماتت بألوان (الرياضة) جسمها فما هى إلا جلدة وعظام
تسير بها سيارة تنهب الثرى لها فى يديها الغَضَّتين زمام
لها منزل لم يدر مالون وجهها إقامتها فى جانبيه لِمام
تغادره والصبح فى حِجْرِ أمّه وترجع والليل البهيم قتام

وتهجر أطفالا رعى الله شأنهم بهم راضع ما حان منه فطام
تقوم عليهم خادمات يَرُضْنَهم على ضَعَةِ الأخلاق وهى لِزام
إذا ما بكت (زوزو) جرت لبكائها مدامع (ميمى) والجفون نيام
فان هدأت فى بيتها بعض ساعة دَهى الإلف منها شِرّة وعُرام
تطالب بالأصباغ والعِطْر مرهقاً ألحّ عليه فى الشباب سقام
إذا راضها باللين يرجو نسيئةً أصابته منها جفوة وخصام
فمن لى بهندٍ والرّبابِ وزينب معاهدهن المنجبات خيام
خرائد أنجبن الفحول ورفرفت سعادة بيتٍ حولهم ووئام
وذلك عهد للفتاة منضّرٌ فياعهدها الماضى عليك سلام



عاهـــل الريف[1] !

[الثَّوْرُ]

فى جَوقةٍ للرِّيفِ يعزفُ عُودُها ويَرِنُّ فى سَمْعِ الضحى تَغْرِيدُها
قَبَستْ من الأطيار رقةَ شَدْوِها وأعارها سِحْرُ الصدَى غِرِّيدُها
وترنَّمتْ بين الحُقول قَصيدةً عذراءُ من نَغَمِ السماءِ نشيدُها
تشدو فيُصغى الصمتُ من وَلَعٍ بها ويكاد من طربِ السُّكون يُعيدُها
ثاوٍ هُنالكَ كبَّلَتْهُ يدُ الأسَى وَثَنَتْهُ عن عبث المِراح قيودُها
شيخٌ أصمُّ تكنَّفَتْ أطرافَهُ سَوْداءُ من صُلْبِ الزمان حديدُها
أحكامُ ذلٍّ لُحْنَ فوق جبينه سُوداً تكتَّمَ بالسِّياط وَعيدُها
سجنَتْهُ فى رحبِ القضاء، وخلَّدَتْ آذانَهُ رَهْنَ الجبال جُدودُها
عكَّازُهُ سوط تلهَّبَ فوقه ناراً يَشُبُّ على حَشاه وَقودُها
رَقَمَتْ على أضلاعه أسْطورةً دُفِنَتْ بأسرار الدهور عُهودُها
أسْطارُ مَظلَمةٍ وآيةُ ذِلةٍ أعيا فلاسفةَ الورَى تَرْديدُها
لو ألْهِمَتْ سحرَ البيان لما شَدَا إلا بفلسفة السِّياط قَصيدُها !

***

صَرَختْ نواعيرُ الرُّبَى لإسارهِ وتفجَّعَتْ أسفاً عليه كبودُها
فانسابَ فَيْضُ عيونها، وتفجَّرَتْ دمعاً من البلوى لديهِ مُهودُها
عجباً لنائِحةٍ عليه لو انَّها تبكى لصمِّ الصخرِ ذاب جَليدُها

---

(١) « قصيدة من ديوان « المروج » الذى يصدر فى الخريف القادم » .

وهِي التي ألقتهُ في كنفِ الضنَى ورماه في العدَم المهين وُجودُها !

٭٭٭

عيْناه غلفتا فمات سناهُما في ضحْوةٍ رفَّتْ عليه بُرودُها

وأزاهرُ البستان ترْنو حوله مُتفتِّحاً يحسو الضيّا أُملودُها

من نُورِهِ المكبوت أشرق نوْرُها فاهتزَّ في الألق المنضَّرِ عُودُها

وشدا الحنانُ المرُّ من دُولابِهِ فتراقصَتْ فوق المروج قدُودُها

ولو انها علمَتْ أساه لَصوَّحَتْ وذوى لهُ رَيْحانُها ووُرُدُها

٭٭٭

ياثوْرُ ! كيف غزَتْكَ أسواطالورى وتقطّعَتْ في جانبيْكَ جُلودُها ؟

مردَتْ على كتفَيْكَ محْرَاباً إذا صلّتْ به يفْرى حشاكَ سجُودُها

وكأنما نَشقَتْ بجلدك فوْحةً من روحها الفاني، فجُنَّ وَريدُها (١)

شربَتْ دماءَكَ خمْرَةً وتصايحَتْ سكْرَى تخبَّطَ هائماً عرْبيدُها

يهذي فتحسِبُ حين يصطخِبُ الصَّدَى جنًّا تفزَّع في الفلاَة شريدُها ؟

٭٭٭

« آبيسُ (٢) » أيُّ سريرة بَلْهاءَ في عطفَيْكَ قد أعيا الحجا معقودُها !

حمِّلتَ من « هوروس (٣) » أقدمَ آيةٍ عُبِدَتْ وقدّسَ في القلوب عهيدُها

أذكى لها الكهان نارَ بخورهم في « منف » يسطع في المعابد عُودُها

أرواحُ ضُلاّلٍ حبتكَ رَشادَها وجثَتْ لديكَ على التراب وُفودُها

---

(١) إيماء إلى جاذبية الشيء لأصله .

(٢) اسم العجل الذي كان معبود الفراعين قديماً .

(٣) في أساطير الفراعنه أن « هورد هذا » هو الاله الذي حلت روح في « آبيس » .

بذَلتكَ تقديس النهى ، ولو انَّهُ للصَّخرة الصَّماء رِيعَ صلودُها
عبدتكَ أبلهَ لا تعى ! ياضلَةً لو تستطيع ذرًا هداكَ جحودُها !

٭٭٭

يا حكمةً فى روْقكِ العانى ! كبَا فى العقل ناهضُها . وطاس شديدُها
زعموكَ تحمل أرضهم . . ولو أنها عقلتْ ، تميد وهادها ونجودُها !

. . . .

ما العاهلُ الجبّارُ مَنْ ذا دوْلةٍ وُقفتْ على ذل العباد جهودها
هوَ أنتَ منْ جعل المروج خمائلاً غيدَانةً يسبى النفوسَ شهودُها
فى كلِّ حقلٍ من جهادك آيةٌ يضفو على الرِّيف الشقى خلودُها

محمود حسن اسماعيل
بدار العلوم



القطيع . . .

الأستاذ سيد قطب

لظى الشمس ؟ أم فوّارةٌ من جهنمِ — تسيل شظاياها ، وتنضحُ بالدم
هو القيظ قد فارت ينابيع وقــده — وفاضت على الأرضين فى كل مَجثَم
وضاق رواق الظل عنهـا وأرسلتْ — من الشمس أرسالُ إلى كل مبهم (١)
فمال إلى الراعى الشّطوطِ قطيعه — يبث رجاءً فى ثغـاء متمتم
وناجاه ، ويح الظلّ إن نحن لم نَمِلْ — إليه ، ويا بئساه سعيـا لمغنم !
عيينا بهذا الضرب فى كل حَرّةٍ (٢) — وراء ذماء من شراب ومطعم
وما أنت — لو تدرى — برابح صفقةٍ — ولا نحن ؛ إنا كلنّا ذلك العَمِى !
نسير بصحراء الحيــاة ، ولا نرى — سوى ظلّنا ، يطغى على كل مَعْلَم
يسخرنا من لا نراه ، لغــاية — يراها ، ولم نؤذَنْ بها أو نفهّم !
فيأيهـا الراعى هدوءا وهَيْنَةً — إلى الظل نرتعْ لحظـة أو نهوّم
فمــال به الراعى إلى ظل دوحةٍ — ظليل ، وعشب نابتٍ قرب جدول

* * *

تناهى إليهـا الطير من وقدة اللظى — وثاب اليهـا الظل فى غير مَعْجَلِ
وألقى عصــاه ، ثم ألقى بجسمه — وقــد ضافه بالأينِ طول التنقل
وراغ إلى المــاء القطيع كأنمـا — تَدَهْدَهَ (٣) جرف من بطيح مزلزل
يعب ويستسق بشوق ولهفــة — ويُفعَم ريًّا من معلٍّ ومنهـل

---

(١) جمع رسل ، وهو الفوج .

(٢) الأرض ذات الحجارة السوداء وهى عادة حارة ومن هنا كانت التسمية .

(٣) اهتز واللفظ نفسه يصور الاهتزاز .

فلمــا ارتوى آوى إلى الظل مُجهَدا وقد خلَّ فى أعضائه كلُّ مفصل
فنام على الأعشاب ، ما إنْ ترى له رءوسٌ ، فقد دُسَّتْ بأحناء مدخل
توحد جسم الشَّاء كالزَّرَدِ التقت مَدَاخله ، وانساب جم التسلسل (١)
كأن شاء ذياك القطيع تَوَحُّدا فأغفل ذاك الرأس رمزَ التعقل (٢)
ويا طالمـا قد فرّق الناسَ رأسهم وما يقتضيه من طِماح ومأمــل

* * *

وطافت على الراعى رؤًى عسجدية وجالت به الأحلام كلَّ مجـال
لقد هبط الوادى فألفـاه جَنَّةً بمـا فيه من خفض وهدأة بال
وماء غزير النبع سلسال منهــل يحف به عشب وفيض ظلال
ويا حبذا نفح النسيم وطيبه ورياه من رفق به وبلال
ألا إنه هذا النعيم ، وإنهـا هى الجنة الفيحاء خلق خيال !
وقد غادر الوادى إلى الغاب ، ياله من الخوف فى هَوْلٍ به وصيال
يزمجر فيه الوحش من كل فاتك قد اختلطت أصواته كعوال
وتعصف فيه الريح ، يا هول عصفها زئير أسود ، أو فحيح صِلال
فهبَّ مفيقا ، يستبين حياته ليوقن أن لم تصطدم بوبال (٣)
فألفى قطيع الشاء يدعو فصيله إلى الثدْى ، فى صوتٍ يجلجل عال

* * *

(١) حينما يجثم القطيع يدس رؤسه بين أجسامه فلا يرى الرائى إلا أجساما متداخلة كالزرد .

(٢) كأنما يريد القطيع بدس رؤوسه أن يخفى رمز التعقل فيه وهو رمز الفردية فلولا العقل ما كان التميز والتفرد .

(٣) حينما يستيقظ الانسان من حلم مرعب فاول ما يخطر له أن يتبين أنه ليس حقيقة .

وأطرق يستوحى الرُّؤَى.ويحها الرؤى إلى أين قد طافت به غير عالم ؟
وأين من الوادى خطاه ؟ وإنما لآمال راج أو خيالات حالم !
وأين هو الغاب الرَّعيب ؟ وإنه ليهفو إلى ماض سحيق المعالم (١)
لأعياه تأويل الرؤى ، غير أنه يحسُّ هدوءاً فى ضلال الطلاسم (٢)
فمال على « أرغو له » يستجيشه خواطره بالذكريات الهوائم (٣)
فرجع أنغاما من الغاب وزنها وألحانها نسم الرياض الحوالم (٤)
فأوزانها ذكرى ، وألحانها منًى كذلك يشدو فى الورى كلُّ ناعم (٥)
وقد رقت الآصال وانسلّتِ الصبا وصات مع الأرغول صوت السوائم
فكان مزاج من جمال ووحشة ولذاتٍ موهوبٍ وآلام غارم
وغشّى على الدنيا ظلاَم فهوَّمت ونامت كطفل فى الغرارة هائم (٦)

---

(١) تنبعث الأحلام غالبا عن مصدرين : الآمال التى يتخيلها الانسان فى المستقبل ويرغب فى تحقيقها (الرغبات المكبوته على رأى فرويد) ، والأحاسيس السابقة للفرد وللنوع كله وكذلك كانت أحلام الراعى ، أملا فى الوادى الخصيب ورغبة ، وذكرى للغاب وطن الانسان الأول والراعى فى سذاجة وبيئة يكاد عالمه ينحصر بين الوادى والغاب

(٢) أحس الراعى باحساس مبهم بعد الحلم وشعر بالراحة ، وهو شعور طبيعى للحالم لأنه نفس عن نفسه بالأحلام .

(٣) يغنى الانسان أو يستعذب الغناء (والموسيقا عامة) لأنه مزيج من الذكرى والأمل . ولعل هذه أغراض الفنون جميعا وعلة استرواح النفوس لها .

(٤) و (٥) يفسرهما ما تقدم

(٦) الحياة كالطفل الغرير لأنها ستنام لتحلم ، وتستيقظ لتنشط وهى تكاد لاتتعظ بأمس وحوادثه فتغير طريقها أو تمل جهادها !!!

ألحان الليل

للأستاذ فايد العمروسي

« ألحان الليل » فكرة حائرة مطمئنة ، عابسة مبتسمه وهي صورة من شعوري في ليلة من الليالي ، وما أظنها قصيدة يطرب لها الناس أكثر مما يتألمون منها .

الساعة القصوى . وهذا مَضْجِعي ⠀⠀ مُتململ فكأنما هوَ مصرعي
وكأن فيه مطاعنا تهوَى دمِي ⠀⠀ وتوَد شرًّا أن تمزق أضلعِي
وكأنَّها الذكرى تحطم مهجتي ⠀⠀ وتسيل من ذوب المآقي أدمعي
ذكرى الليالي السُّودِ والأملِ الذى ⠀⠀ كفَّنته بشَغاف قلبي الموجع
كفَّنته بخواطري ومواهبي ⠀⠀ ودفنته في النفس غيرَ مُودَّع

٭٭٭

يا ليلُ سجّل ما شهدتَ فإنني ⠀⠀ سجَّلتُ فيك صحائفاً من مدْمعي
وأذبتُ فيك القلبَ في ريعانهِ ⠀⠀ ما بين تحناني ولحن توجُّعي
يا ليلُ . تلك خواطري صرختْ بها ⠀⠀ نفسي . فهبْ لي الشعرَ واكتبها معِي

٭٭٭

لي فيك يا ليلي أمرُّ خوَاطرٍ ⠀⠀ تسري بنفسي في أسى وتضرع
تخطو مع الأيام في خطواتها ⠀⠀ وتتيه في بيدائها لم ترجع
ليستْ ترى أملاً فترجو مأملا ⠀⠀ لَكنَّها حيرى تطوفُ ولا تعي
في أيِّ معنًى يا شعُاعَ تأمُّلي ⠀⠀ تذكي التحَرّق في حنايا أضلُعي
أذرْكْ نجومَ الليل قبل رَحيلها ⠀⠀ وسلِ الكواكب . أيها لم يهجع ؟
وابعث إلى الدنيا نشيدا حائرا ⠀⠀ فيها ولحنْ في النشيد ورجع
هي هذه الألحان ما انفجرت بها ⠀⠀ عرصات قلبي في حنان موجع
هي هذه الدنيا وما في سرِّها ⠀⠀ من نِقمَةٍ ، أو نعمة ، وتمتُّعِ

هيَ حكمة الناموس والكون الذى فيه تُحير كلُّ فكر ألمعِى
هى صرخةَ الألهام والحس القوىّ ونفثة الروح الذى لم يخضع
هى سرُّ أمالى والآمى الّتى لم يحوها قلبُ الزمان الأصمع
هى كلُّ معنىً فى الحياة. وأىُّ معــنى ناء عن فكرى ولم يتجمّعِ ؟

٭٭٭

سِرٌّ من القدر الرفيع سَرَى به لحنى. ولكن لم يمرّ بمَسْمَعَى
فسما على الأفلاك فى عليائها وهوَى على خلق هنالِكَ هُجّعِ
فاحبِسْ صدى الأنفاسِ فى زفراتها حيناً. وطأطىء هام رأسك واخشعِ
يا ليلُ يا مَن فى ظلامك خاطرى يسرى فيهتكَ سرّ كلّ مُقنّعِ
يا ليل يا من فى أنينكَ لذّتى تحيا. وألق فى أساك تمتعى
أنا فيك يا ليلى كخطرة خاطرٍ خفَقَتْ ورَفَّت كالملاك الأرفع
هى عيشة للشعر الذى أحيا به فتجملى يا نفس. أو فتصدّعى

فى الريف

للأستاذ محمود غنيم

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا وعشقت فيك جمالك الموهوبا
قدّست فيك من الطبيعة سرها أنعم بشمسك مشرقا وغروبا
ولقد نزلتك فادّكرت طفولتى وتمائمى طوبى لعهدك طوبى
زعموك مرعى للنبات وليتهم زعموك مرعى للعقول خصيبا
فهى القرائح أنت مصدر وحيها كم بتّ تلهم شاعرا وخطيبا
حييتُ فيك الثابتين عقائداً والطاهرين سرائراً وقلوبا
والذاهبات إلى الحقول حواسراً يمشى العفاف أمامهن رقيبا

سلبت عذارك الدهور جمالها فبكت تريد جمالها المسلوبا

☆☆☆

كست الطبيعة وجه أرضك سندسا وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا
بُسطٌ تظللها الغصون فأينما يممتَ خلتَ سرادقا منصوبا
وحنت على الماء الفروع كأنها أم تقبل طفلها المحبوبا
وبدا النخيل غصونه فيروزج يحملن من صافى العقيق حبوبا
أرأيت عملاقا عليه مظلة أو ماردا ملء القلوب مهيبا
يا رب ساقية لغير صبابة أنّت وأجرتْ دمعها مسكوبا
وحمامة سمع الفؤاد هتافها فحسبته بين الضلوع مجيبا
والغيد تغمس فى الغدير جرارها فيظل يضحك ملء فيه طروبا
سربان من بط وبيض نهَّد يتباريان سباحة ووثوبا
وترى الجداول فى الأصيل كأنَّها من نضة فيها النضار أذيبا
يا بدر أنت ابن القرى وأراك فى ليل الحواضر أن طلعت غريبا

☆☆☆

نشر السكون على القرى أعلامه فتكاد تسمع للفؤاد وجيبا
بدت الحياة هناك فى ريعانها ولوانها سارت تدب دبيبا
ولقد ينام القوم ملء العين فى زمن يقض مضاجعا وجنوبا
وهى السعادة كم أوت كوخا وكم هجرت أشمَّ من القصور رحيبا
قالوا الحضارة قلت أسفر وجهها وبدت محاسنها فكنّ عيوبا

☆☆☆

ما ضرَّ أهلَ الريف ألا يحفلوا بالطب أو لا يعرفوا « المكروبا »
ضمنت سلامتهم سهولة عيشهم وصفا هواؤهمُ فكان طبيبا
رضعوا رحيق السائمات وما درَوْا غيرَ النمير وغيره مشروبا
وسرى شعاع الشمس فى أبدانهم فجرى بأوجههم دما مشبوبا

شمس القرى كست الوجوه نضارة أرأيت وجها فى القرى مخضوبا
سر فى الحقول تر الرياضة عندهم فنا وخطا عندنا مكتوبا

☆☆☆

أكبرتُ فى القروى صحة عزمه وحسبته فى صبره أيوبا
ورأيت طيب النفس فيه سجية ووداده سهل المنال قريبا
فيه ترى الخلق الصريح ولا ترى ضحك النواجذ بالخديعة شيبا
أنا لا أقول تشينه أمية كن خيِّرا لا كاتبا وحسيبا
كم ضل من أهل الحواضر قارىء فاغتال أعراضا وشق جيوبا
فى الريف فتيان تسيل جباههم عرقا فيصبح لؤلؤا مثقوبا
لا فتية مُرْدٌ بأيد بضة فى كل يوم يلبسون قشيبا
بذلوا لمصرٍ فوق ما فى وسعهم ورضُوا بما دون الكفاف نصيبا

العيد المئوى لمدرسة المنصورة الابتدائية الأميرية

للأستاذ محمد محمد قنديل

لمَنْ ذلك العيد الذى يَفْرَعُ النّجما ويفتح عين الدهر إنْ حاول النّوما
لدارٍ أقامت للحجا خير معقل وروّت بنيها فى طفولتهم علما
رعتهم صغارا كالأزاهير فى الضحا تراهم إلى ردهاتها انسجموا سجما
إذا جلسوا فى مجلس العلم شِمْتَهُمْ نجوم سماء لا ترى بينها غَيْمَا
صغار ، وآمالُ الصغار كبيرة ويا رُبَّ آمالٍ تنيل الفتى حكما
وكم من صغير نوّر الله قلبه فأمّل آمالا وحققها شهما
إذا أنت لم تأملْ ولم تشقَ بالعلا فدع عنك دنيا قد أطَشْتَ بها السّهما

☆☆☆

إذا أنعش الله الطفولة بيننا — بَنَيْنا شبابا يملؤون القرى حزما
أفيضوا على الأطفال منكم رجولة — فانى أحب الطفل أن يأنف الظلما
على الطفل تبنى المكرمات جميعها — ومن يزرع الريحان يستطب الشمّا
إذا رغبت مصر السعادة والغنى — وودّت نهوضا بالتراث وماضمّا
فما عندها إلا الأزاهير غضة — أخاف عليها أن تصوّح أو تظما

ومنها : —

ودارٍ بنتكم قد بناها محمد — وشاد بنوه بعده الشرف الجما
همو نهضوا بالعلم وهو بهم جرى — إلى غاية فوق السماكين أو أسمى
وهم(١) بعثوا الفصحى وفكوا عقالها — وشادوا لها فى ملكهم حسبا ضخما
يقولون عيّتْ بالبيان وأفلست — وأمست لدى أهل الثقافة طلّسْما
لقد كذبوا، ما أفلست يوم أفلسوا — ولكنهم صمّوا، وهل تسمع الصمّا؟!
لقد وسعت عصر الرشيد وسايرت — نهوض بنى العباس واحتوت العلما
وكم عاضدت ملكا فدام ممنّعا — وكم أهدرت ملكا فأعقبت الهدما
وكان لها يوم السقيفة (٢) موقف — أفاض على الصحب السّكينة والسلْما
أعاهد ربى أن أعلّم أمتى — وأن أهب الطلاب لحمًى والعظما
أشيد بهم فى صرح مصرَ رجْولة — وأحمى بهم مصرا إذا لقيت ظلما
ولى أمل فى جانب النيل واسع — يحققه إن متُّ مَنْ أُوقظُ اليوما

---

(١) دفاع عن اللغة العربية .

(٢) سقيفة بنى ساعدة .

نشيد الولاء للمليك المعظم

ألقت هذا النشيد فرقة مرشدات مدارس جمعية السلام القبطية فى حفلتها الكبرى بدار الأوبرا الملكية فى يوم ٩ مايو وقد وضع موسيقاه الأستاذ شفيق زاهر وكان إخراجه على هيئة الهرم الأكبروقد زين برسم جلالة المليك المعظم بجواره الهرمان الآخران

يا بنى النيل السعيد يا منارا للوجود
قدسوا عهد الجدود وانشدوا لحن القلوب

القرار

عاش مولانا فؤاد كعبة للوافدين
وليدم عرش البلاد فى ضمان الخالدين

شاد إسماعيل داره فازدهى نجم الحضاره
فاحرسوا تلك المناره وانشدوا لحن القلوب

القرار

تلك آيات البقاء زانها رمز العلاء
فارفعوا صوت الولاء وانشدوا لحن القلوب

القرار

صاحب التاج المفدى تاجه بالروح يفدى
فاحفظوا للعرش عهدا وانشدوا لحن القلوب

القرار

كم بنى للعلم صرحا وأسى للنيل جرحا
فانظموا الأرواح مدحا وانشدوا لحن القلوب

القرار

إن مصرا ترتجينا فلتكن للروح دينا
وليعش فاروق فينا بين حبات القلوب

مقطوعة غنائية

ألقيت فى دار الأوبرا الملكية فى يوم ٩ مايو وقد وضع موسيقاها الأستاذ السنباطى وتغنت بها المطربة الآنسة نجاة على

يا نجوم الليل هذى مهجتى ذاب فيها الوجد أوكادت تذوب
ترسل الشكوى فتسرى أنتى تحمل الشوق إلى دار الحبيب
فيناجى الكون فيها وحدتى وترى حيرى كأحلام الغريب
فاسعديها يا نجوم إنها لحن الفؤاد
شاع فى ليل الهموم بين أشجان السهاد

وغدا القلب دموعا بعد ما غاض من عينىّ فياض الدموع
فبدا الأفق غريقا فيهما ياالعينىّ من القلب الولوع
وبدا الكون ظلاما كلما عصف الشوق باحشاء الضلوع
فاشفعى لى يانجوم فى هوايا بالهوان
وابعدى هذى الغيوم عن عيونى بالحنان

على الجبلاطى
الطالب بدار العلوم

ملابسنا فى كتب اللغة (1)

— ٢ —

بقلم الأستاذ مصطفى السقا
المحرر بمجمع اللغة العربية الملكى

الدُّراعة : Chemisette المِدْرَعة : Jacquette المِدْرَع : Paletot

المخصص : الدراعة والمِدْرع : ضرب من الثياب ، وهى جبة مشقوقة المقدم . والمِدْرعة : ضرب آخر ، ولا يكون إلا من الصوف خاصة . وقد تدرعت مدرعتى .

اللسان : الدراعة والدرع : ضرب من الثياب التى تلبس ، وقيل جبةمشقوقة المقدم والمدرعة ضرب آخر. ولا تكون إلا من الصوف خاصة . وتدرع مدرعة وادرعها وتمدرعها .

التاج : والمِدرعة (كمكنسة) : ثوب كالدُّراعة ، ولا يكون إلا من صوف خاصة : قاله الليث . وقيل الدراعة : جبة مشقوقة المقدم . وأنشد أبو ليلى لبعض الأعراب :

يوما الخلاق (٢) ويوما للبال مشمراً يوما ويوما ذَيّال
مِدرعة يوما ويوما سربال

ومنه حديث أبى الدرداء رضى الله عنه : فوضأته وعليه مدرعة ضيقة الكم ، فاخرج يده من تحت المدرعة ، فتوضأ .

هذه ألفاظ ثلاثة مشتقة من مادة واحدة ، وقد نصوا فى المعاجم أنها مختلفة فى الصفة أو فى الصنعة ، ولكنا نظن أن الاختلاف بينها فى الصفة لا يعدو أن يكون

(١) راجع المقال الأول فى صحيفة دار العلوم ، العدد الرابع ، السنة الأولى الصفحات ٩٧-١٠٨ (٢) وفى رواية : لخلانى .

كالاختلاف فى الصنعة ، فهى تدل على ضروب من الملابس قريب بعضها من بعض فى الشبه ، ولما كانت المعاجم لم تشرح هذه الألفاظ الشرح الذى يحدد معناها بالدقة ، رأينا أن نلجأ إلى الاستنباط فى تعرف حقيقتها . وأول ما ننبه عليه أن المخصص واللسان قالا إن الدراعة والمدرع شىء واحد ، وأن المدرعة ضرب آخر ، أما شارح القاموس فقد تبع صاحب القاموس ، فأهمل المِدرع جملة ، وأحل محله المدرعة : وجعلها مساوية للدُرّاعة ، ولا ندرى أمن قبيل الغلط ذلك أم نقل صحيح انفرد به ؟ فاذا حملناه على الصحة خرجنا من البحث بأن الألفاظ الثلاثة متساوية المدلول ، ولم نعبأ بقول المخصص واللسان إن المدرعة ضرب آخر أى غير الدراعة والمِدْرع . وعندنا بعد ذلك قولهم فى المدرعة (وقيل جبة مشقوقة المقدم) فهذا الوصف يقرب لنا معنى الكلمات الثلاث كثيراً ، ويضعها فى دائرة خاصة . بعد أن كانت ضربا من الثياب غير معلوم الصفة ولا الهيئة ، فالجباب من الملابس المعروفة الباقية إلى عصرنا هذا . وهى من الملاحف التى تلبس فوق سائر الملابس . وقولهم (ولا تكون إلا من الصوف خاصة) صفة أخرى تساعد على اعتبار المدرعة وما ساواها من ألفاظ من الملابس الخارجية (الملاحف) التى تلبس للزينة أو لاتقاء البرد .

وغايتنا من هذا البحث أن ننتفع بهذه الألفاظ الثلاثة العربية العذبة ، فنطلقها على مشابه لها من أزيائنا التى استعرناها من الزى الأفرنجى . فنطلق الدراعة على ما يسمى (الشميزيت) وهو مِلحف للنساء إلى نصف الجسم ، لكننا لا نعنى به المتخذ من الصوف خاصة ، وإنما نطلقه على ما يتخذ من الصوف وغيره كالحرير ونحوه .

ونطلق المِدْرع على ما يسمى (البالطو) وهو أطول من الدرّاعة وقد يصل إلى الركب أو أسفل منها ، ولا نقصره على زى النساء ، وإنما يسمى به ما يلبسه الرجال من هذا النوع .

ونطلق المدرعة على (الجاكتة) وهى جبة مشقوقة المقدم من الصوف غالبا إلى نحو نصف الجسم أو تحته بقليل ، وهى من ملابس الرجال دون النساء .

وقد يشفع لهذا النحو من التخصيص الذى توخيناه فى الألفاظ الثلاثة مانجده من شبه قوى بين مدلولات (الشميزت والبالطو والجاكت) والدرع الزردية ، فان الألفاظ الثلاثة كأنها الدرع للابسها تقيه من آثار الأجواء كماتق الدرع صاحبها من سهام الأعداء . هذا إلى ما بينها من شبه فى الصورة والهيئة ، فان من الدرع ما هو سابغ يغطى الجسم كله وذلك يشبه (البالطو) ومنها ما يكون قصيراً يق البدن دون سائر الجسم . وهذا يشبه (الشميزت والجاكتة) .

وقد ذكر صاحب السعادة المرحوم أحمد تيمور باشا (الجاكتة) فى معجم العامية المصرية ، وقال إن المجمع العلمى العربى بدمشق وضع لها كلمة (الرداء) واستحسن هذا الوضع ، ثم ذكر لفظين آخرين يرادفان الجاكتة ، وهما الجُمّازة والنصفية ، وبعد ما أورد الشواهد الشعرية قال : تدل أبيات الجزار على أن نصفيته كانت من نسيج أبيض تغسل وتدق وتسق بالنشا .

ثم قال : واللفظ صحيح وإن كان مولد الوضع ، وعدم وضوح المراد منه وضوحا شافيا غير مانع من إطلاقه على (الجكتة) إذا أردناه ، أو إطلاقه على (القميص الأفرنجى) لأنه يستر النصف ، ويغسل ويسق بالنشا ويكوى كنصفية الجزار ، فنستغنى بكلمة عن كلمتين . اه

أقول إن التواضع والاصطلاح لامشاحة فيهما ، ولكننا نضع كل الألفاظ الصالحة بين يدى الجمهور . ليتخير منها ما يخف على السمع ، وما يعذب فى النطق .

السِّرْبال : (القميص الإفرنجى) Shirt

المفردات : السربال القميص من أى جنس كان .

النهاية : فى حديث عثمان : « لا أخلع سربالا سربلنيه الله » . السربال : القميص وكنى به عن الخلافة ، ويجمع على سرابيل . ومنه الحديث : النوائح عليهن سرابيل من قطران ، وقد تطلق السرابيل على الدروع . ومنه قصيدة كعب ابن زهير :

شم العرانين أبطال لبوسهم   من نسج داود فى الهيجا سرابيل

المصباح : السربال . ما يلبس من قميص أو درع ، والجمع سرابيل . وسربلته السربال (فتسربله) بمعنى : ألبسته إياه فلبسه .

اللسان : السربال : القميص والدرع ، وقيل : كل ما لبس فهو سربال .

يفهم من هذه النصوص أن السربال يطلق على درع الحرب . وعلى القميص من أى نوع كان ، وعلى كل ما يلبس . والمعنى الثانى أظهر من الثالث لأنه يضع السربال فى قسم القُمُص ، أما المعنى الثالث فلا يجعله محدود المعنى ، ولا ظاهر المدلول .

ويمكن أن نعتبر السربال نوعا خاصا من القمصان ، هو ما نسميه : (القميص الإفرنجى) وإن كان فى الأصل صالحا لكل قميص . لأن شيوع اللفظ وعمومه يجعله غير صالح لناحية ما ، ولذلك لا يستعمل الأدباء والكتاب كلمة سربال وجمعها سرابيل مع خفتهما وعذوبتهما : لأن السربال بحسب ما ورد فى المعاجم لا يدل على شىء معين من ملابس الناس ، ونخشى إذا ظل هذا اللفظ على عمومه أن يطول أمد هجرانه ، فلا يرد على الأقلام والألسنة فى غير القرآن والشعر القديم .

أما إذا خصصناه بما يسمى الآن (القميص الإفرنجى) فقد ضمنا له حياة طويلة قوية : لأنه سيذكر كل يوم مئات المرات على ألسنة الناس وأقلامهم .

وقد يقول معترض إن هناك إبعادا فى تسمية القميص الإفرنجى سربالا فإن هذا القميص ملبس حديث لم يعرفه العرب ، فحرى ألا يكون له اسم فى لغتهم ، ونحن مع تسليمنا بهذا نرى أن كثيرا من الألفاظ كان لها دلالات خاصة عند الوضع الأول ، ثم نقلت فى عصور التاريخ من معنى إلى معنى على حسب الحاجة ، وباب المجاز باب قياسى مفتوح مابقيت العربية ، وبحسبنا أن السربال هو القميص فى جميع معاجم اللغة ، فإذا نقلناه من القميص العام إلى قميص خاص . لم يكن فى ذلك تكلف ولا إبعاد .

وفائدة ذلك أننا نستغنى بكلمة واحد . عن كلمتين . ليتسير تداول اللفظ فى فصيح الكلام .

الطَّوْق ـ (الياقة = Col)

مختار الصحاح : الطوق : واحد الأطواق . وطوَّقه فتطوق : أى ألبسه الطوق . والمطوقة : الحمامة التى فى عنقها طوق .

المصباح : وطوق كل شىء : ما استدار به ، ومنه قيل للحمامة ذات طوق .

اللسان : الطوق . حلى يجعل فى العنق ، وكل شىء استدار فهو طوق وقد طوقته فتطوق أى ألبسته الطوق فلبسه ؛ وقيل : الطوق ما استدار بالشىء ، والجمع أطواق والمطوقة : الحمامة التى فى عنقها طوق .

مفردات الراغب : أصل الطوق : ما يجعل فى العنق خلقة كطوق الحمام ، أوصنعة كطوق الذهب والفضة ، ويتوسع فيه ، فيقال طوقته كذا كقولك قلدته .

أقول : هذه النصوص تدل على أن الطوق شىء مستدير حول شىء ، وبعضها يدل على أن الطوق شىء يلبس حول العنق ، ومنه المثل : (شب عمرو عن الطوق) [1] ويقال للحمامة مطوقة وذات طوق . ونحن نستحسن أن نطلق كلمة الطوق على مانسميه فى هذا العصر (الياقة) وقد يسمى بلسان الفرنجة (Col)

وقد سبق بعض الأدباء إلى تسمية (ياقة القميص) بالزيق : استنادا إلى نصوص المعاجم . قال فى اللسان . « وزيق القميص : ما أحاط بالعنق » .

ولا مانع أن تطلق كلمة الزيق فى هذا العصر على (الياقة) المخيطة فى القميص تكون عرض الإصبع تقريبا . أما (ياقة) القميص الافرنجى ، و (ياقة) الملابس الخارجية من نحو المِدْرَع والمِدرعه فخير كلمة لها فى ظننا هى (الطوق) .

الأُرْبَة = المِعْنقه : Cravate

اللسان : الأُرْبة العقدة التى لا تنحل حتى تحل حلا . وقال ثعلب : الأربة العقدة ولم يخص بها التى لا تنحل .

---

(١) هو عمرو بن عدى ، وهذا المثل مشروح فى تاج العروس فارجع إليه.

والأربة : قلادة الكلب التى يقاد بها ، وكذلك الدابة .

الأساس : وتاربت العقدة : توثقت ، وأربتها : وثقتها .

القاموس : الأربة (بالضم) : العقدة ، أو التى لاتنحل حتى تحل . والقلادة .

القاموس : والمِعنقة (كمكنسة) : القلادة .

اللسان : والمعنقة : قلادة توضع فى عنق الكلب ، وقد أعنقه : قلده إياها .

وفى التهذيب : والمعنقة : القلادة ولم يخصص .

هاتان الكلمتان العربيتان (الأربة والمعنقة) ظاهرتا المدلول ، وهما صالحتان للتعبير عما يسمى بلسان الفرنجة (Cravate) بطريق التشبيه لأن (الكرافات) من بعض الوجوه هو عقدة لاتنحل حتى تحل ، أو هو كالقلادة، وكذلك المعنقة قيل فى شرحها إنها القلادة مطلقا . وقد سبق بعض الأدباء إلى وضع كلمة (الأربة) لهذا الذى يربط حول الرقبة فى الزى الأوربى ، ونحن لا نرى بذلك بأساً ، ونضيف إلى ذلك كلمة (المعنقة) التى عثرنا عليها فى قراءتنا الخاصة فى كتب اللغة . واللفظتان تكادان تتساويان فى نظرنا ، لأن لكل منهما فعلا من مادتهما ، كما أن لكل صيغة جمع قياسية ، فيسهل استعمالها وتصريفها فى أساليب الكلام ، فلنطلقها فى الاستعمال . والزمان وحده كفيل ببقاء الأصلح للبقاء .

المِبْذَل = المبذلة : (Pyjama)

فقه اللغة : والمبذلة : ثوب يبتذله الرجل فى منزله .

الأساس : وخرج علينا فى مَباذله وفى ثياب بِذلته . والرجل يَتَبَذَّل فى منزله .

اللسان : قال ابن برّى : أنكر على بن حمزة مِبذلة ، وقال مِبذل بغير هاء ، وحكى غيره عن أبى زيد مبذلة . وقد قيل أيضاً ميدعة ومِعْوَزة عن أبى زيد : لواحدة الموادع والمعاوز ، وهى الثياب والخُلُقان ، وكذلك المباذل ، وهى الثياب

التى تبتذل فى اللباس . ومِبذَل الرجل ومِيدَعه ومِعوزه : الثوب الذى يبتذله ويلبسه .

أقول : المبذل (على رأى على بن حمزة) والمبذلة (على رأى أبى زيد) تصلح لما نسميه اليوم (بيجاما) لأنها ثوب يلبسه الرجل و يبتذله فى منزله ، وهى من ملابس المترفين ولكن اللفظ صادق أيضاً (بالجلبية) التى لا يزال يلبسها أبناء البلد الذين لم يمعنوا فى التشبه بأهل التمدين الحديث ، فإذا قصرناها على (البيجاما) ذات الشكل الخاص ، وهى مؤلفة من مدرعة وسراويل ، كان ذلك من قبيل تخصيص العام ببعض ما يصدق عليه . وهو مجاز مقبول .

وقد أطلق بعض [1] الكتاب المعاصرين على (البيجاما) كلمة منامة ، ولكنا نرى أن المنامة ليست من الثياب التى تلبس ، وإنما هى من الأغطية التى يتدثر بها فى النوم . قال الثعالبى فى فقه اللغة : المنامة والقرطف والقطيفة : ما يتدثر به من ثياب النوم .

وفى لسان العرب : والمنامة : ثوب ينام فيه ، وهو القطيفة . قال الكميت :

عليه المنامة ذات الفضول من القِهز [2] والقرطف [3] المخمل

وقال آخر :

« لكل منامة هدب أصير »

أى متقارب .

فقد وصف المنامه بأنها ذات فضول وخمل متقارب ، وأحر بأن يكون المراد بهذه المنامة مانسميه (البطانية) .

---

(١) هو صاحب العزة محمد كرد على بك عضو مجمع اللغة العربية الملكى ، وقد نشر جريدة ألفاظ فى الصحف العربية ، وفيها المنامة (البيجاما) .

(٢) فى اللسان : القهز والقهز والقهزى ضرب من الثياب تتخذ من صوف كالمرعزى .

(٣) وفى اللسان : القرطف : القطيفة المخملة . الأزهرى فى ترجمة قطف : القراطف قرش مخملة . وفى حديث النخعى فى قوله : (ياأيها المدثر) أنه كان متدثرا فى قرطف : هو القطيفة التى لها خمل .

الجُمازة = البدن = Jersey

المخصص : الجمازة : دراعة قصيرة من صوف .

النهاية : وفى الحديث أنه توضأ فضاق عن يديه كُمَّا جمازة كانت عليه . الجمازة : مدرعة صوف ضيقة الكمين .

التاج : الجمازة (بالضم) دراعة من صوف . وبه فسر الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ فضاق عن يديه كما جمازة كانت عليه ، فأخرج يديه من تحتهما .

اللسان . البدن : شبه درع إلا أنه قصير قدر ما يكون على الجسد فقط ، قصير الكمين . ابن سيده : البدن : الدرع القصيرة على قدر الجسد ، وقيل هى الدرع عامة . والجمع أبدان . وفى حديث مسح الخفين : فأخرج يده من تحت بدنه : استعار البدن هنااللجبة الصغيرة تشبيها بالدرع . ويحتمل أن يريد من أسفل بدن الجبة ، ويشهد له ما جاء فى الرواية الأخرى ، فأخرج يده من تحت البدن .

هذه النصوص فى مجموعها تدل على أن كلا من الجمازة والبدن ثوب قصير يغطى نصف الجسم ، كما تدل على أنه يكون من الصوف .

أما وجه الخلاف بينهما فأن الجمازةضيقة الكمين، والبدن قصيرالكمين، ومن هذه الصفات نستطيع أن نطلق الجمازة على ذلك القميص الصوفى الذى يكون مشقوق المقدم أحيانا وغيرمشقوق أحيانا ، ويكون له كمان ضيقان ، وهو ما يسمى فى الانكليزية (Jersey) .

أما البدن فنطلقه على نوع آخر منه يكون بلا كمين .

وقد آثرنا أن نخصص كل نوع باسم لوجود لفظين فى اللغة العربية يؤديان هذين المعنيين . ولأن تخصيص كل نوع باسم من المطالب التى ندب إليها مجمع اللغة العربية الملكى لتقليل الاشتراك فى الألفاظ : لأن الاشتراك من أسباب الغموض فى كثير الأحيان .

الأُصْدَة = الأَصيدة = المؤَصَّد :

Robette

اللسان : ابن سيده – الأصدة والأصيدة والمؤصّد: صدار تلبسه الجارية، فإذا أدركت درعت . وأنشد ابن الأعرابى لكثير :

وقد دَرَّعوها وهى ذات مُؤَصَّد مجوب ولما تلبس الدِّرع ريدها

وقيل : الأصدة ثوب لا كمى له تلبسه العروس والجارية الصغيرة .

تاج العروس : الأصدة (بالضم) : قيص صغير للصغيرة ، وهى صدار تلبسه الجارية ، فإذا أدركت دُرِّعت ، أو يلبس تحت الثوب . . . وقال ثعلب : الأصدة : هى الصُّدْرة . وقيل الأصدة : ثوب لا كمى له تلبسه العروس والجارية الصغيرة .

هذا بعض ماورد فى تفسير الأصدة وهى الأصيدة (كقصيدة) والمؤصد كمعظّم أيضا . ونحن أميل إلى قبول التفسير الأخير الذى فى عبارتى اللسان والتاج ، فيجوز أن نطلق أحد هذه الألفاظ الثلاثة على الثوب القصير الذى لا كمى له تلبسه الصبيات ، وهو ما يسمى فى بعض اللغات الإفرنجية (Robette) وهو تصغير لكلمة (Robe) التى وضعنا لها فى المقال السابق كلمة دِرْع ، وعلى ذلك يكون معنى قول كثير المذكور آنفا :

وقد درعوها . . . . الخ أى إنهم ألبسوها الدرع وهو الثوب الذى تلبسه النساء (الجلبية) مع أنها لا تزال صغيرة لم يلبس تِرْبها الدّرع .

ولا يقدح فى هذا التخريج قولهم : (تلبسه العروس) فإن العروس إذ تكون فى الجلوة أن تكشف عن محاسنها ، وتبدى زينتها لعروسها ، فلا تجعل لثوبها كمين ، ولا تبالغ فى تطويل ذيله ، فيكون شأنها شأن الجارية الصغيرة التى تلبس قصير الثياب ومالا كمى له . هذا على اعتبار الأصدة من الملابس الخارجية

أما إذا اعتبرت من القمص والملابس الداخلية كما يفهم من قول صاحب التاج : (أو يلبس تحت الثوب) فان من شأن هذا النوع فى الغالب القصر وعدم الأكمام .

البَقير = البَقيرة (الحرْملة) = Pelerine

اللسان : والبَقِير والبَقِيرة : بُرْديشق فيلبس بلا كمين ولا جيب . وقيل هو الإتب . الأصمعى : البقيرة أن يؤخذ بردفيشق ثم تلقيه المرأة فى عنقها من غير جيب ولا كمين . والإتب : قيص لا كمين له تلبسه النساء .

أقول : تدل مادة البقر فى كتب اللغة على الشق ، والبقير والبقيرة : بُرْد مشقوقٌ ، فهما فعيل بمعنى مفعول . والبرد كما قال ابن سيده : ثوب فيه خطوط ، والبردة : كساء يلتحف به . وقيل إذا جعل الصوف شقة ولها هدب فهى بُرْدة . وجمعها بُرَد ، وهى الشمله المخططة .

وقول الأصمعى : أن يؤخذ برد الخ كالصريح فى أن المقصود بالبقيرة مانسميه فى هذا العصر بلسان العامه (الحرملة) ، ويقابله فى بعض لغات الافرنج كلمة (Pelerine) .

أما قولهم إن البرد ثوب فيه خطوط ، فيحمل على أن الأصل فيه ذلك توسعا ، وعلى هذا لا يمتنع أن تكون البقيرة ذات لون واحد أسود أو غيره .

التُّبَّان = (لباس البحر) Culotte de Mer

النهاية : التُّبَّان سراويل صغير يستر العورة المغلظة فقط ، ويكثر لبسه الملاحون وأراد به ههنا السراويل الصغير ؛ ومنه حديث عمار أنه صلى فى تبان .

القاموس : التُّبان (كرمان) سراويل صغير يستر العورة المغلظة . واتَّبَنَ كافتعل : لبسه .

الأساس : ورأيت تَبَّانا يَلْبس تُبَّانا ، وهى سراويل صغيرة . وتَبَّنَه : ألبسه إياه .

اللسان : والتُّبَّان (بالضم والتشديد) : سراويل صغير مقدار شبر ؛ يستر العورة المغلظة فقط ، يكون للملاحين . . . وقيل — التبان : شبه السراويل الصغير

وفى حديث عمر : صلى رجل فى تُبَّان وقميص ، تذكره العرب ، والجمع تَبَابين .

المصباح : التبان : فُعَّال : شبه السراويل وجمعه تبابين . والعرب تذكره وتؤنثه ، قاله فى التهذيب .

يؤخذ من هذه النصوص أن إطلاق التبان على مانسميه الآن (لباس البحر) سائغ لا اعتراض عليه ، فقد أجمعت نصوص الكتب عليه أنه سراويل بلا ساقين يستر العورة وحدها ، وزاد بعض الكتب أنه يكون للملاحين ، وفى النهاية (يكثر لبسه الملاحون) أى فلا مانع أن يلبسه غيرهم . ونسبة لبسه للملاحين قرينة على ان يلبس فى البحر ، وهذا ما أردناه من تخصيصه (بلباس البحر) وإن كان اللفظ فى الأصل عاما .

الدِّقرار = الدقرارة = الدُّقرور = الدُّقرورة = Culotte

النهاية : وفى حديث عبد خير قال : رأيت على عمار دقرارة وقال إنى ممثون . الدقرارة : التبان ، وهو السراويل الصغير الذى يستر العورة وحدها . والممثون . الذى يشتكى مثانته .

المخصص : أبو عبيد : الدقرار : التبان . ابن دريد : وهو الدقرور .

التاج : والدقرارة : التبان ، كالدقرار بغير هاء ، وهى سراويل صغير بلا ساق يستر العورة وحدها . . . . والدقرارة يطلق ويراد به السراويل أيضا . كالدقرور والدقرورة بضمهما . . . . والجمع : الدقارير .

خلاصة هذه النصوص أن الألفاظ الأربعة تطلق على شيئين : التبان . وهو الذى خصصناه (بلباس البحر) ، والسراويل مطلقا . والذى نريده هنا أن نخصص هذه الألفاظ بالسراويل القصيرة التى لا ساق لها يلبسها النساء غالبا ، وقد يلبسها الرجال ، وهى غير التبان الذى يلبس عادة عند التجرد على شواطىء البحار . و يسمى هذا فى بعض اللغات الأوربية (Culotte) .

للبحث بقية مصطفى السقا

عثرات الأقـــلام

— ١ —

بقلم الأستاذ المتولى قاسم
المدرس بمدرسة محمد على الملكية للبنات

لقد نهضت الكتابة العربية فى العصر الأخير نهضة مباركة ، نرجو اطّرادها ، حتى تبلغ اللغة من الرقى أوْج الكمال ، وآية ذلك أنك ترى كثيرا من أنهار الصحف اليومية ، والمجلات الأسبوعية ، تفيض بمقالات ممتعة شائقة ، تمتاز ببراعة الأسلوب مع دقة المسلك ، ووضوح المذهب مع لباقة التعبير ، واستقامة الحجة مع قوة البيان ؛ غير أن هذه الأساليب البارعة قد ينقصها التحرى لمواطن الصواب ، فى بعض الكلمات والعبارات ، فلكَمْ تقع فى المقالة الجيدة السبك كلمة أو عبارة ، تتجافى عنها قواعد اللغة ، وتأباها قوانينها المطردة ؛ فتنقص من حسنها ، وتغض من جمالها ، كالرقعة ذات اللون المخالف فى الثوب الجميل .

وإن الناشئين من الكتاب والشعراء ، ليحاكون كبارهم ، وينشئون - بقدر المستطاع - على غرارهم ، فيسرى الخطأ فى كتابتهم ، ويصبح بالمرانة عادتهم ؛ وفى ذلك من الجناية على اللغة ما فيه ؛ ومن العقوق لها أن نرضى بهذه الحالة ، ونسكت عليها ؛ لذلك نورد هنا بعض ما لاحظنا من انحراف عن سنن العربية ، ونكشف عن وجه الصواب ، الذى يجب اتباعه وترك ما عداه .

(١) جمع (غَيُور) وأشباهه

من القواعد المطردة أنّ كل وصف على وزن (فَعُول) بمعنى فاعل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فلا تلحقه تاء التأنيث إذا كان للواحدة . من ذلك قولهم :

فتاة لعَوُب ، وامرأة ولود ، وأمّ رءوم ، وأخت ودود ، وناقة صبور ، وقافية شرود ، وقول امرئ القيس ، يصف محبوبته بالنعمة والترف وعدم الامتهان فى الخدمة :

وُيضحِى فتيتُ المسك فوق فراشها   نئوم الضحا ، لم تنتطق عن تفضل

وقول الحطيئة فى الانتقال من التشوق ، إلى وصف الناقة :

فهـــل تُبـلّغَنّـكها عِرْمِسُ   صموت السُرى لا تشكّى الكلالا ؟

وقول قيس بن الخطيم ، يفخر بأنه مقدام لايهاب الموت فى ساحة الوغى :

فإنىَ فى الحرب الضروس موُكّل   باقدام نفس ما أريدُ بقـــاءها

وقول أبى الغول الطهوى :

فَدَتْ نفسى وما ملكت يمينى   فوارسَ صدقوا فيهم ظنونى

فوارسَ لا يملون المنايا   إذا دارت رحى الحرب الزبون

وقول ذى الرُّمة :

وعينان قال الله : كونا ، فكانتا .   فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وإلى ذلك يشير ابن مالك (رحمه الله) بقوله فى الخلاصة :

علامـــة التأنيث تاء أوالف   وفى أسامٍ قدروا التا كالكتف

ولا تلى فارقة فعولا   أصلا ، ولا المِفعال والمِفعيلا

ومعنى (فارقة) أنها للفرق بين المذكر والمؤنث ؛ ومعنى (أصلا) كون فعول بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول . وشذّت عَدوّة ، حملوها على صديقة ؛ وقد يحمل العرب الشىء على ضده ؛ وأما قول موُيلك المزموم يرثى امرأته أم العلاء :

امرُرْ على الجدث الذى حلت به   أم العلاء ، ونادِها ، لو تسمعُ !

أنّى حللتِ ـ وكنتِ جد فروقة ـ   بلدا يمر به الشجاع فيفزعُ ؟!

فالتاء فى فروقة لزيادة المبالغة ، مثلها فى (امرأة ملولة ، إذ يقال أيضا رجل ملولة) أما إذا كان بمعنى مفعول فتلحقه تاء التأنيث . يقال (جمل ركوب وناقة ركوبة

وحلوبة) وإذ قد تقرر ذلك علمنا أن (غيور ، ونئوم ، وصبور ، وغفور ، ونخور) لا يفرق بين مذكرها ومؤنثها بتاء التأنيث .

هذا ومن شروط الوصف الذى يصح جمعه جمع مذكر سالم : ألا يستوى فيه المذكر والمؤنث ؛ ولذلك لا يصح جمع المذكر السالم فى تلك الأوصاف الآنفة الذكر وأشباهها ؛ ولكنا نلاحظ كثيرا فى الصحف مثل هذا التعبير (أولئك قوم غيورون على مصلحة الوطن) .

وفى افتتاحية (روز اليوسف اليومية بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩٣٥ : « إذا كانت هذه هى الوطنية المنشودة أيها الأبطال الغيورون فاطمئنوا واستريحوا »

وفى الرسالة الغراء العدد الخامس والثمانين ص ٢٦٩ فى ١٨ فبراير سنة ١٩٣٥ :-

إنا نئومو الضحا ، ليست تزايلنا أحلامنا ، وهو فى جنح الدجى سهُدُ

مما تقدم نرى أن كلمتى (الغيورون ، ونئومو) لا تسيغهما قواعد اللغة العربية . فالواجب - والحالة هذه - أن يجمعا جمع تكسير على غيُرُ - ونؤم . قال فى شذا العرف : الثانى (من جموع الكثرة) فعل بضمتين ، ويطرد فى وصف على فعول بمعنى فاعل كغفور وغفر ، وصبور وصبُر »

قال الشاعر :

فيئى ، إليكِ ، فإنّا معشر صبُرُ فى الجدب لاخفةٌ فينا ولا ملَقُ

وقال الشاعر :

ثم زادوا أنهـــمْ فى قومهمْ غـُفـُرٌ ذَنْبَهمُو غيرَ فُخُرْ .

وقال طرفة :

فُضُلٌ أحلامهم عن جارهم رُحُبُ الأذرع ، بالخير أُمرُ

وقال زياد بن حمل :

وحبذا حين تمسى الريح باردة وادى أُشىّ وفتيان به هضم

جمع هضوم : أى كثير الإنفاق - يصفهم بالكرم فى جدب الشتاء .

ومن أمثلة ذلك قوله المرحوم (شوقى بك) فى رواية مجنون ليلى على لسان المجنون :

وذئابٍ أرقَّ يا ليلَ من أهلك الغُيُرْ

أنِستْ بى فقلّبتْ فى يدِى النابَ والظُفُرْ

وإنما سقنا كلام أمير الشعراء على سبيل الاستئناس، ولبيان الوقع الموسيقى الجميل لكلمة (الغـُيُر) فى البيت الأول؛ فهى كلمة مأنوسة عذبة، غير حوشية ولا جافية؛ فاذا تناولتها أقلام الكتاب كان من السهل جدا إحياؤها والاستغناء بها عن ذلك الجمع الذى ظهر ميله عن قواعد اللغة الصحيحة ظهورا بيّنا .

(٢) مَصُون ومَصُونة

وقد سرب فى بعض الأذهان أن الوصف (مصون) على وزن فعول، فتجعله بعض الصحف وصفا للمؤنث من غير أن تزيد فيه تاء التأنيث؛ فتقول : السيدة المصون؛ والحق أنه ليس من الباب المتقدم ـ فالواجب أن يفرق بين مذكره ومؤنثه بالتاء . فنقول : كتاب مصون، وأمانة مصونة؛ وذلك لسببين :

(١) أنه ليس بمعنى فاعل

(٢) أنه ليس على وزن فَعُول . بل هو (مفعول) من صان، مثل مقول، ومروم، ومخوف، وملوم، من قال، ورام، وخاف، ولام . فالميم فى أوله زائدة، وقد حذفت منه إحدى الواوين، إذ أصله مَصْوُون؛ ولذلك لا يصح أن يقال فى (مَدِين . ومَبِيع) إنهما على وزن فِعيل .

قال فى شذ العرف : « وينحصر الاعلال بالنقل فى أربعة مواضع . . .

الرابع صيغة مفعول كمقول، ومبيع، بحذف أحد المدّيْن فيهما، مع قلب الضمة كسرة فى الثانى . . . وبنو تميم تصحح اليائى فيقولون : مبيوع ومديون . . . وربما صحح بعض العرب شيئا من ذوات الواو؛ فقد سُمِع ثوب مصوون . . . »

وفى المصباح المنير مثل هذا الكلام (ص ٩٦٩ الجزء الثانى ـ الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية سنة ١٩٢٥) غير أنه اعتبر أنّ مثل مصون ومبيع على وزن فعول وفعيل؛ وفى هامشه استدراك هذا نصه :

(١) قوله وزان فَعول وفعيل؛ المراد توضيح الهيئة كما فى موازين الشعر لا الميزان الصرفى . حمزة

من ذلك كله نعلم أن (مصون) ليس من الأوصاف التى يستوى فيها المذكر

والمؤنث ؛ فالواجب أن تلحقه تاء التأنيث إذا وصف به غير مذكر ؛ فنقول مثلا :ــ

سافر فلان ومعـه عقيلته المصونة ؛ وقـد عادت السيدة المصونة فلانة من الأقطار الحجازية .

(٣) النفى والاستثناء ، وإنما

من المعلوم أن النفى مع الاستثناء ، وإنما ـ طريقان من طرق القصر ، معناهما واحد ، ولهما بحث مطول فى موضعه من كتب البـلاغة . تقول : « ما زارنى إلا سعيد . وإنمـا زارنى سعيد ؛ وما نحن إلا إخوانكم ، وإنما نحن إخوانكم . » ولـكنّ بين هذين الطريقين فرقا فى الاستعمال ؛ من ذلك أن الطريق الأول لا يأتى بعده منفى بلا ؛ ولـكنه يجىء بعـد الثانى . فتقول إنما أنت بشر لا ملكَ ؛ وإنمـا تـكرّم الأمة المخلصين لهـا لا الخارجين عليها . ولا يستمل النفى والاستثناء فى مثل هذا .

وهنا يجمل أن أذكر ـ باختصار ـ ما قاله السعد على التلخيص فى باب القصر خاصا بموضوعنا ـ ومجمل قول المتن والشرح ما يأتى : إن النفى بلا العاطفة لايجامع النفى والاستثناء ؛ فلا يصح ما زيد إلا قائم لا قاعد ؛ وقد يجىء مثل ذلك فى كلام المصنفين ؛ وذلك لأن شرط النفى بلا العاطفة ألا يكون المنفى بها منفيا قبلها بغيرها من أدوات النفى ؛ فانها موضوعة لنفى ما ثبت للمتبوع ، لا لأن تعيد بهـا النفى فى شىء قد نفيته من قبل ، وغير المقصور عليه منفىّ صراحة فى (طريق النفى والاستثناء) ؛ إذ ان ما النافية فى مثل قولنا : (ما زيد إلا قائم) قد نفت كل صفة متنازَع فيها غير القيام ، فاذا قلت لا قاعد نفيت بلا العاطفة شيئا هو منفى قبلها بما النافية ـ وليس المنفىّ بفحوى الكلام (كما فى إنما) مثل المنفى صراحة ؛ فيصح : إنمـا أنا تميمىّ لا قيسىّ . لأن النفى غير مصرح به . انتهى كلام السعد .

وقال ابن يعقوب فى شرح التلخيص أيضا ــ بعد أن قرر هذا الرأى ــ : « ووقوع مـثل هذا الـكلام فى كلام المصنفين لا يدل على الجواز فى أصل العربية » . فانظر بعد ذلك فى هذه العبارة التى وردت فى حديث عيسى بن هشام

للمرحوم المويلحى بك ، ص ١٤٦ بالطبعة الرابعة . قال : « . . . ويتقيد المسكين بمعيشة لا تناسب غريزة البنية ، ولا فطرة البدن ، ولا طبيعة الاقليم ؛ ولا توافق إلا من جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندرة ، لا من ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة »

ثم انظر معى فى هذه العبارة من مذكرة مشيخة الأزهر بشأن الطلبة (أهرام ١١ - ٤ - ١٩٣٥) « لم يعودوا إلى الدراسة إلا فى اليوم الذى أعلنه لهم اتحادهم ، لا فى اليوم الذى حددته المشيخة »

ولعلك ترى معى بعد ما قرره السعد أن الصواب فى مثل هاتين العبارتين : « وإنما توافق من جمدت عروق آبائه . . الخ ، وإنما عادوا إلى الدراسة فى اليوم . . الخ » . ويصح هنا استعمال طريق العطف فيقال : « ولا توافق من ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة ، بل (أو لكن) من جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندرة » وكذلك فى العبارة الثانية وأشباهها .

(٤) جمع مُعجَم

من يطلع على العدد الأول من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى ، يجد من حضرات أعضائه إصرارا - أو شبه إصرار - على جمع (معجم) جمع مؤنث سالم ، فتراهم يقولون فى جمعه (معجمات) - و إيثارهم هذا الجمع على (معاجم) مع ذيوعه وخفته ، يحمل على الظن بأن الجمع الذى آثروه هو الصواب ، وأن الذى تركوه ، أو كادوا يتركونه خطأ لا يجوز استعماله ؛ فحدانى ذلك إلى بحث الموضوع ، حتى وصلت إلى رأى يخالف استعمالهم ؛ وهأنذا أعرضه عسى أن يطلع عليه حضراتهم ؛ فإن رأوه مقبولا ، وإلا تفضلوا ببيان رأيهم إرشادا إلى الصواب .

قال فى المصباح : « أعجمت الحرف أزلت عجمته بما يميزه عن غيره بنقط وشكل ؛ فالهمزة للسلب »

وفى المختار : (العَجْم) النقط بالسواد كالتاء عليها نقطتان . يقال (أعجم) الحرف ، و (عجّمه) أيضا (تعجيما) ، ولا يقال عجَمه . ومنه حروف (المعجم)

وهى الحروف المقطعة التى يختص أكثرها بالنقط من بين سائر حروف الاسم ، ومعناه حروف الخط المعجم ... الخ . وكلام المختار (فى معناه) هو كلام المصباح ، فالنقط يميز الحرف عن سائر الحروف ، ويزيل إعجامه أى إبهامه . والاعجام هو الابهام ، كما أن الاستعجام بمعنى الاستبهام (استعجم عليه الكلام استبهم) مختار . واستعجم الكلام علينا مثل استبهم (مصباح) .

وكما يسمى الحرف معجما لازالة إبهامه ، نستطيع أن نسمى الكلمة (معجَمة) إذا اتضح معناها ، وعُرف شكلها ، وزال اللبس بينها وبين غيرها فى الضبط والمعنى . فالكلمات المشروحة المضبوطة الموضح معناها فى كتب اللغة معجمة بهذا المعنى ، فهى اسم مفعول . وكتاب اللغة نفسه مكان لهذا الاعجام - أى لازالة اللبس ، وايضاح المعنى ، وضبط الكلمات ، وتمييز بعضها من بعض ، وبيان بنيتها وصيغتها . ولذلك صح أن يسمى الكتاب (مُعْجَما) بمعنى أنه مكان للاعجام — فهو اسم مكان ، مثل مَصيف ، ومُقَام ، ومستشفى ، ومستنقع — وبذلك تكون الكلمة على حقيقتها — ولا داعى لتكلف المجاز المرسل فى إطلاق المعجم بمعنى اسم المفعول على الكتاب ، على أنه صفة للكلم الذى يحتويه ذلك الكتاب ثم نقل من الحال إلى المحل . فالخلاصة — إذاً — أن كلمة (معجم) اسم مكان لا اسم مفعول.

بقى البحث فى جمعه . ولنبدأ بجمع المؤنث السالم ؛ فنقول : إنه مقيس فى كل مختوم بعلامة تأنيث مثل سجدة ، وذكرى ، وصحراء ، وفى اسم غير العاقل المصغر ، وفى وصف غير العاقل مثل أيام معدودات ، والعلم المؤنث ولو بغير علامة كزينب ، وهو مقصور على السماع فيما عدا ذلك .

ولا نستطيع أن نزعم ورود السماع بهذا النوع من الجمع فى (معجم) لأنه حديث الوضع لمعناه ، متأخر عن العهد الذى يحتج بعربيته ، فليس للعرب أنفسهم عهد بهذه التسمية فى المعنى المقصود ، ولا يصح اعتباره وصفا لغير العاقل بعد أن عرفنا أن حقيقته اسم مكان ، وكونه اسم مفعول مجاز لا داعى إليه مع إمكان الحقيقة بغير ضعف ولا إبهام ؛ ولذلك لا يصح أن يجمع جمع مؤنث سالم .

هذا وهو ليس مستوفياً لشروط جمع المذكر السالم ؛ فقد ضاق به جمع

التصحيح، وليس له إلا التكسير. وقواعد جمع التكسير لا تأباه، بل ترحب به وتنص صراحة على اطراد صيغة (مَفاعل) فى مثل هذا اللفظ من ألفاظ اللغة وهاك البيان:

فى شذا العرف: الثالث والعشرون (أى من جموع الكثرة) شبه فَعالل، وهو ما ماثله عددا وهيئة، وإن خالفه وزناً. وذلك كمفاعل، وفواعل، وفياعل وأفاعل، ويطرد فى مزيد الثلاثى غير ما تقدم من نحو أحمر، وسكران، وصائم ورامٍ، وباب كُبْرى، وسَكرَى؛ فإن لها جموع تكسير تقدمت (أى جموعها على الترتيب: حُمْرٌ - سكارى - صوّم وصوّام - رُمَاة - كُبَر - سكارى) ولا يحذف الزائد إن كان واحدا - كأفضل، ومسجد، وجوهر، وصيرف، وعَلْقى - بل يحذف ما زاد عليه، سواء كان واحدا كما فى منطلق - ومستخرج. ويؤثر بالبقاء ماله مزية على الآخر معنى أو لفظا... الخ.

وفيه أيضا: الثانية (أى المسألة الثانية من مسائل الخاتمة فى جمع التكسير): كل ما جرى على الفعل من اسمى الفاعل والمفعول وأوله ميم فبابه التصحيح؛ ولا يكسر لمشابهة الفعل لفظا ومعنى... الخ.

ومن المسألة الثانية نعلم أن اسم المفعول يجمع جمع مذكر سالم إن كان لعاقل وجمع مؤنث سالم إن كان لغير عاقل.

وليس اسم المكان مثل اسم المفعول، فالمسألة الأولى تصرح بأن (مفاعل) جمع لما زاد على ثلاثة وأوله ميم، وقد مثل له بمسجد وهو اسم مكان.

ونحو مسجد ألفاظ كثيرة جداً لا يمكن جمعها إلا تكسيرا على مفاعل. منها: منزل - موضع - مجلس - منار - مغاص - مجتَمع - مستنقع - مستشفى - وكثير غيرها. بعد هذا البيان نجد أن (معاجم) هو الجمع المقبول لمعجم؛ وأن معجمات لا وجه له؛ فهل لحضرات الأعضاء الأعلام أن يذيعوا فى مجلة المجمع حجة رأيهم رداً للشبهة وهداية للصواب؟

للبحث بقية

المتولى قاسم

على هامش التعليم الإلزامى

فى ظلال الهرم

بقلم الأستاذ زكى المهندس
مدرس التربية بدار العلوم

« لايسعنى بكل أسف أن أقبل هذه المعاذير ، فيجب أن يكون لك مقال فى الجزء التالى » . تلك هى الكلمة الهادئة الرصينة الحازمة ، التى أجابنى بها صديقى رئيس التحرير ، حين ضَرَعتُ إليه أن يعفينى من الكتابة فى هذا الجزء التالى من الصحيفة . وكم قدمت فى سبيل ذلك من معاذير ، وأقمت من حجج ، ودعوت من شهود ، ولفقّتُ من حوادث ونوازل ، فلم أدَعْ مرضا من الأمراض إلا ألحقته بنفسى وولدى ، ولم أترك مُـلِمَّة من الملمات إلا أنزلتها بالأقارب والأباعد من أهلى وأصهارى ، ثم جهَدت فى شىء من الدهاء أن أرشوَ صديق الرئيس باستعدادى للقيام بما يتطلبه هذا الجزء من أعمال إضافية .

حاولتُ هذا كله ، وطمعتُ فيه ، واحتلت له ، ولكنى عبثا حاولت ، ومحالا رجوت ، فقد ظهر أن صديق رئيس التحرير لا تقبل عنده الشفاعة ، ولا تنجع فيه الرشوة .

إن له نظرة ثاقبة ، يكاد يستشف بها ماوراء الحُجُب ، وحسا دقيقا ، يوشك أن ينفذَ به إلى قرارة النفس ، ومستودع السر ؛ هذا إلى عزم مضّاء يتحطم حياله أقوى المعاذير ، ويفنى من دونه كل تأثير .

وإذاً فلا بد أن أكتب ، ولا مفرّ من أن يكون لى فى هذا العدد مقال ، ولكن ماذا أكتب وأىّ الموضوعات أختار ؟ هذا موطن الحيرة والقلق . لقد كتبت فى قضية الأطفال يوم كان للأطفال قضية ، وأحسبنى قد أضجرتُ نفوس القراء بما فيه كفاية ، فليس لدىّ فى هذا الدفاع من مزيد ، ثم أية قضية تلك التى تدوم المدافعة فيها تسعة أشهر أو تزيد ؟ لا ، لن أكتب كلمة واحدة فى قضية

الأطفال . هذا عهدٌ علىّ لقراء الصحيفة ، فَلْيطمئنوا .

لامناص إذاً من أن أكتب فى موضوع جديد ، ولكن فيم أكتب ؟ حقا إن اختيار الموضوع أشق من الكتابة فيه . فما للخيال فى هذه المرة يَعُقّنى ، والقلم يستعصِى علىّ ! الكتب مبعثرة حولى ، منثورة بين يدىّ ، ولكنى أكره أن أحشوَ مقالى بما يُسَطّر فى الكتب ، وبما يستطيع الناس جميعا أن يقرءوه فى غير الصحيفة ، هذا إلى أنى لستُ بطبعى جمّاعا للآراء ، فأنا لا أحسن الاستعارة ، ولا أسيغ الرواية ، ولا أطيق النقل ، ولا أصبر على الترجمة . أنقيصة هذه أم فضيلة ؟ فسِّرْها بما شئت ، وكيف شئت ، ولكنه طبعى الذى فطرتُ عليه والذى لا أستطيع أنا ولا أنت أن نغير منه ، أو نبدل فيه . عجبا ! عشر ليالٍ تمر عَجْلَى مسرعات ولمّا أهتدِ إلى موضوع مقال ! كم استلهمت شعورى ، واستوحيت خيالى ، ولكن الشعور راكد ، والخيال مجدب . هأنذا أعتصر الذهن فلا يُجدى ، وأقدح زناده فما يُورى ، وقديما تحدث علماء الأدب عن شيطان الشعر ، فقالوا إن لكل شاعر شيطانا يلهمه المعانى ، ويُجْرى بنانه بالقوافى ، وإن صحّ مايقولون فما أهنأ الشعراء بشيطانهم ! من لى بمثل هذا الشيطان النشيط يستجيب لندائى كلما ألحّ فى الطلب صديق رئيس التحرير ، وأبى أن يقبل منى المعاذير .

آه ! لقد وجدتها وجدتها . هذا محضر لجلسة ممتعة من جلسات « جماعة الأصدقاء » ، تناول الحديثَ حول فكرة التعليم الالزامى فى خطبتين شائقتين ، فلم لا أجعل هذا المحضر موضوع مقال ؟ ثم هو محضر فيّاض خصب ، يستنفد عدة صفحات من الصحيفة ، فماذا على لو نشرته برمّته ، وكفيت نفسى مؤونة الشرح والتعليق ؟ فليكن .

« طبقا لقرار الجماعة فى الجلسة السابقة عقدت جماعة الأصدقاء جلستها الرابعة فى الأهرام فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٤ م .

وما انتصفت الساعة الرابعة حتى اكتمل عقد الجماعة ، لم يتخلف منهم سوى حضرة صاحب العزة محمد فهمى بك ، الذى اعتذر عن عدم حضور هذه الجلسة بعذر قاهر .

وفى تمام الساعة الرابعة قرئ على الأعضاء محضر الجلسة السابقة ، ثم أخذوا فى عملية الاقتراع لتعيين العضو الذى يختار موضوع الحديث ، ويبدأ فيه الكلام ، فأصابت القرعة حضرة صاحب السعادة الشيخ الجليل محمد راغب باشا ؛ فنهض سعادته ، وألقى الخطبة الآتية : .

أصدقائى :

لقد قضى نظام جماعتكم أن تختاروا من بينكم واحدا يقترح موضوع الحديث ، ويبدأ فيه القول ؛ ولا ريب عندى ؛ أنكم تدركون أن تبعة الاختيار ثقيلة ،والبدء بالحديث تكليف شاق ، والمرء فى هذا الموقف خليق أن تدركه الحيرة ، ويتولاه الشك والقلق ، إذ يرى أن المسائل الحيوية التى يعنى الأمة أمرها فى الوقت الحاضر كثيرة متنوعة ، وهو لا يدرى ما يأخذ منها وما يَدَع ، فهناك أمور وأحداث تشغل أذهاننا جميعاً فى هذا الطور الجديد ، الذى ندرج فيه ، ونحن خلقاء أن نقف منها موقف الذى يقول :

تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

غير أننى لحسن الحظ قد أصابتنى القرعة فى وقت تفيض فيه الصحف ، وتتشعب الآراء ، ويكثر اللجاج ، ويحتدم الخصام فيما أسماه الكتاب « مشكلة التعليم الالزامى » . هذه هى المسألة العظيمة الشأن والخطر ، التى أصبحت حديث المجتمعات ، وسمر المنتديات فى هذه الأيام ، وها أنتم أولاء ترون اللجان تجمع ، والمؤتمرات تعقد ، والميزانيات تقرر ، والضرائب تجبَى ، وكلما كثر البحث ، واشتد الجدل ، أظلم وجه الحق ، وتضاعفت الشبهات ، وعميت الغاية ، وتعقدت السبل . ولكن العجيب فى هذا كله أننا نحن الذين صنعنا هذا المشكل بأيدينا ، ثم أخذنا نعمل الحيلة فى حله ، ونتلمس صواب الرأى فيه ، فكنا بذلك أشبه الملاّح الأحمق ، الذى عَمَدَ إلى زورقه فخرقه ، ليرى كيف يجرى الماء فى داخله ، فلما اشتد عليه الأمر ، تولاه الذعر والجزع ، فحاول أن يصلح ما أفسده ، ولكن بعد أن اتسع الخرق على الراقع . ذلك مثلنا ــ أيها السادة ــ فقد أبينا إلا أن ننسج من أوهامنا مسألة ، ونَحُوك من أخيلتنا مشكلة ، من غير أن يكون ثمة حاجة تقتضيها ، أوحافز

قوى يحفزنا إليها . انتزعنامسألة التعليم الإلزامى من العدم . ثم وضعناها بين أيدينا ، نقلب الطرف فى جوانبها ونعتصر الذهن فى كشف معمياتها . فلما أعجزتنا أخذنا نصيح ونولول ، ونبكى ونستبكى ، فإذا قدر لكم أن تتساءلوا عن الغاية من هذا النوع من التعليم أيا كان نظامه وخططه ومناهجه ، وإذا قدر لكم أن تجدوا لسؤالكم هذا مجيبا ، سمعتم كلاما كله هراء وهذَر ولغو .

صدقونى — أيها الأصدقاء — إذا قلت إن هذا الشغف الظاهر ، والحماسة المتأججة فى صدورنا لهـذا النوع من التعليم ، ليست إلا مظهرا من مظاهر تلك العاطفه الجامحة القوية ، التى سادت نفوُسنا فى السنوات الأخيرة ، تلك العاطفة التى دفعتنا إلى تقديس الأمم الأوربيـة تقديسا كان له أثره فى أفكارنا وأعمالنا وسلوكنا ، لقد خيّل إلينا أن حياة أوربا هى المثال الأعلى ، الذى يجب أن نحتذيه ونهتدى به ، فهم يفـكرون على أسلوب خاص ، فيجب أن نحاكيهم وهم يؤثرون نوعا من الثياب ، فيجب أن نتزيا بأزيائهم ، وهم يفضلون ألوانا من المآكل والمشارب ، فيجب أن يكون طعامنا مثل طعامهم ، ثم هم يعنون بتعليم فلاحيهم وصناعهم ؛ فـكذلك يجب أن نفعل بفلاحينا وصناعنا ، تلك هى العاطفة التى استهوت قلوبنا ، وملـكت علينا نفوسنا ، وهى هى التى تتراءى لنا اليوم فى صورة خادعة فتانة ، فتحفزنا إلى استحداث هـذا النوع من التعليم ، ولا ريب عندى أنكم — يهـا الأصدقاء — سَتَلْـقَون حديثى اليـوم فى شىء غـير قليل من الدهش ، بل الجَزَع ، فستقولون : « يالله ! من ذا الذى تبلغ به الجرأة فى القرن العشرين أن يقوم بين طائفة من ذوى الثقافة العالية ، يحاول أن يجعل فـكرة التعليم الالزامى موضع نقاش أو جدل ؟ أليس تعليم الشعب غنيه وفقيره ، فلاحه وصانعه ؛ فرضا وطنيا مقدسا ؟ أليس التعليم فى ذاته من أقوم الوسائل لتوفير السعادة للأفراد والجماعات ؟ ومن ذا الذى لا يودّ أن تمتد به الحياة ليرى فلاحينا سائرين خلف ماشيتهم فى الصباح ، وكل منهم يتأبط كتابا ، أو يمسك بصيحفة ؟ ألاَ إن هذا لهو الأمل المنشود ، وإن مصر المتعلمة المثقفة لهى الفردوس المفقود » . أجل ستقولون هذا — أيهـا السادة — وسيهمس بعضكم بأكثر منه . غير أنى أؤكد

لكم أن كثيرا مما تقولون وما تهمسون به ليس إلا مظهرا آخر لتلك العاطفة الجامحة القوية ، التى تعمى اليوم أبصارنا عما فى هذا النوع من التعليم ، من آثار وبيلة ، وعواقب وخيمة .

وأنا لا أحب هنا أن أتناول فكرة التعليم الالزامى فى جملته وعمومه ، بل أوثر أن أترك لكم المُدُن فى صخبها وجلبتها وضوضائها . سأترك لكم المدن بعيوبها وشرورها ومفاسدها ، فهذا رجل المدينة أمامكم ، فاصنعوا به ماشئتم ، وزيدوه بالتعليم تعسا وفاقة إن أردتم ، أطفئوا فيه غليل تلك العاطفة الجائشة فى صدوركم ، أشبعوا فى حياته هذه الشهوة المتأججة فى نفوسكم ، فليكن رجل المدينة كما شئتم أن يكون ، فما أنا بلائمكم فيه ، أو محاسبكم عليه .

ولكن يشقّ علىّ - وايم الحق - أن أراكم تتجاوزون بهذا التعليم حدود المدينة إلى تلك القرى الهادئة الوادعة المطمئنة . تنتزعون منها ذلك المخلوق الحر الكريم ، لتُلقُوا به فى حجرات مظلمة ضيقة ، وبين يدى معلم ساذج يقتل فيه خير ما وهبت له الطبيعة من صفات نبيلة ، وهمم شماء ، وخلال كريمة ، وكل هذا فى سبيل ثقافة (استغفر الله بل فى سبيل أشتات وقشور من المعلومات) تافهة ناقصة مضطربة ، لا تجديه نفعا ، ولا تصلح من حياته أمرا .

لقد افترضتم - أيها السادة - أن تعليم الفلاحين يجلب لهم السعادة ، ويدر عليهم أخلاف الرزق ، كما افترضتم كذلك أن هذا التعليم يكفل للأمة ماتصبو إليه من مجد ورفعة ، وأراكم والله قد أخطأتم فى الأولى خطأ لا يعدِلهُ إلا خطؤكم فى الأخرى ، فأية سعادة تلك التى يجلبها هذا التعليم للفلاحين أو الصناع ؟ وهل السعادة إلا انسجام واتّساق بين المرء وبيئته ؟ أو ما تحدث حكماؤكم وفلاسفتكم عن السعادة بأنها القناعة بما قسم ، والرضا عما وقع ، وأن المرء لايزال بخيرماقنع ، فان طمع فى منزلة فوق المنزلة التى هيأها له القدر ، كان خليقا بالشقاءحريا بالتعس؟ أو ليست هذه الحِكَمَ المأثورة التى ورثناها عن الآباء والأجداد ؟ وهل كان شاعركم عابثا أو هازلا حين يقول :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ناشدتكم الله - أيها الأصدقاء - هل رأيتم فيما رأيتم رجلا أرضى بما لديه ، وأقنع بما عنده ، وأهنأ بما قسم له ، من هذا المخلوق الصابر الوادع ؟ هل عرفتم - فيما عرفتم - نفسا أكثر اطمئنانا ، وأشد ثقة بالله وبقضائه من هذه النفس البريئة النقية ، التى تستكن تحت تلك الأطمار البالية ؟ هذا هو فلاح مصر بين أيديكم ، وبمرأى منكم ، فتشوا فى ثوبه الخلَق ، فهل ترون إلا جلدا لا يعتريه مَلال ، وصبرا لا يتطرق إليه وهَن ! ويقينا لا تعتوره الشبُهات والريب ، وإيمانا صادقا لا تزعزعه المطامع والأهواء ؟ هذا هو فلاح مصر كما صنعته الطبيعة ، وكما يجب أن يكون كل فلاح ، بل كما يجب أن يكون كل رجل ، فماذا دهاكم من عيوبه وأخلاقه ، حتى تجيئونا اليوم تُحدِّثوننا عن سعادته وهناءته ؟ الحق أن تعليمكم الفلاح - أيها السادة - يمكن أن يجلب كل شىء إلا تلك السعادة الوهمية التى تملئون بها صحفكم ولجانكم ومجالسكم .

إنكم لتأبَوْن إلا أن تصنعوا الفلاح بأيديكم ، ولكن هل تدبرتم الأمر ، ورويّتم فى العاقبة ؟ تقولون : إن تعليم الفلاح يزيد فى معارفه ، ويوسع من خياله ويغذى من وجدانه ، ويرهف من عقله ، فليكن هذا كما تريدون أن يكون ، ولكن هل دَريتم أنكم إلى جانب هذا تخلقون فيه المطامع ، وتوقظون فيه النزعات والشهوات ، وتزيدون فى تكاليف حياته ، وتفسدون عليه ذلك الجو الروحى البديع الذى ينعم الآن به ، وتُلقون به فى ذلك اليم المضطرب الأمواج ، المترامى الأطراف ؟

ثم خبِّرونى - يا سادة - ماذا جنَيْتم من تعليم غير الفلاحين سوى تلك الأخيلة الشاردة ، والعواطف الجامحة ، والنفوس الضعيفة القلِقة ، التى أفقدها التعليم كل صبر وجلد على مقاومة تصاريف الحياة ، وأحداث الدهر ، حتى أصبحت لا تبغى بغير المناصب الحكومية بدلا ، أو تطلب عن غير العمل المريح عِوَضا ؟ اذهبو وأصلحوا أولا نظم مدارسكم ، وأساليب ثقافتكم ، فى غير التعليم الالزامى ، قبل أن تتحدثوا عن تعليم الفلاح ، وقبل أن تعرضوه لتلك التجاريب التعسة التى ما زلتم تعرضون لها أبناءنا وبناتنا فى مراحل التعليم الأخرى ، فاذا كنتم إلى الآن

عاجزين - كما يبدو لنا - عن تعليم غير الفلاح ، فأنتم والله عن تعليم الفلاح أعجز

لا ، لا ، اتركوا رجل الطبيعة كما أرادت الطبيعة أن يكون . هذا هو الواجب المقدس الذى تفرضه عليكم الوطنية . اتركوا الفلاح للطبيعة ، فهى أهدى له ، وأحْنَى عليه ، دعوه يعالج بنفسه شئون حياته الساذجة ، ويحتمل ثمرات هذا العلاج من خير أو شر . كتاب الطبيعة مفتوح أبدا أمامه . فدعوه يقرأ هذا الكتاب الذى لا يَكْذِبه ولا يخدعه .

ماذا تنشدون فى الرجل غير ذى الخلق القويم ، والإرادة الصادقة . والقلب البرىء الطاهر ، والضمير النقى ، والسلوك الحسن ؛ فثقوا معى بأن هذه الصفات موفورة فى الفلاح لا يعوزكم أن تشهدوها بأعينكم وتَلْمِسوها بأيديكم ، ولكن فى المواطن التى لا يغشاها المدرسون ، ولا المفتشون ، ولا الأدباء والمفكرون.

لا أسألكم — أيها السادة — سوى أن توازنوا بين هذا الفلاح المائل أمامكم ، وذلك الفلاح الجديد ، الذى تحاولون اليوم أن تصنعوه بأيديكم ، وازنوا وانظروا كم فروق بين الرجلين . إنى مؤمن أشد الايمان بأن فلاحكم الجديد سيكون أسوأ من عرفت أرض مصر من الفلاحين ، فى تاريخها الطويل . وإنى ليعرونى الأسى ، ويتولانى الحزن والخوف ، كلما تصورت ذلك الفلاح الذى ستشهده مصر بعد بضع عشرات من السنين إنى لأخال فلاح المستقبل رجلا غضوبا ملولا بَرِماً بكل شىء ، متذمرا من كل شىء . يُخلد إلى الراحة ، فلا يبكر إلى حقله ، ولا يعنى كل العناية بماشيته ، يترقب كل فرصة لينصرف عن أرضه وعمله ، إلى صحيفة يتتبع أخبارها أو رواية يتقصى غرائبها ، يشعر بأنه مهيض الجناح ، أو مهضوم الحق ، فلا يفتأ يطلب مزيد الأجر ، فإن عزّ عليه ذلك أقام الدنيا وأقعدها ، وقد ينزع إلى الخصام ، ويلجأ إلى العنف ، فإن أيأسه ذلك كفّ عن العمل ، وهجر بلده إلى حيث يجد ما يَسُدّ مطامعه . ويرضى شهواته ، هذا هو فلاحكم الجديد كما تصورته ، ولا ريب عندى أن الواقع سيكون أكثر مما ظننت ، وفوق ما تصورت . أتلك هى السعادة التى تحاولون أن توفروها للفلاح ! .

نى لا أتردد فى أن أعترف معكم بأن حياة فلاحينا فى أشد الحاجة إلى إصلاح

يوفر لهم السعادة ، ويحقق لهم طيب العيش . ولكنى أوكد لكم أن وزارة المعارف هى آخر ما تحتاج إليه قرانا وأهلونا . وإنما مصلحة الصحة ، وقسم البلديات ، ووزارة الزراعة ، هى التى يجب أن تلقى عليها تبعة الاصلاح ، فأقيموا للفلاح المشافى ، وأكثروا الإساة ، عالجوا مشربه الرنق مما يرتع به من جراثيم وحشرات ، أبعدوا عنه البرك ، اردموا له المستنقعات ، شقوا له الطرقات ، شيدوا له المساكن الصالحة ، ثم أرشدوه إرشادا عمليا فى زراعته ، وفى تربية ماشيته وطيره .

وإذا فعلتم هذا تكونون قد أنصفتم الفلاح ، ووفرتم له حياة طيبة وعيشا رغدا .

وإن أعجب العجب (فيما تفرضونه للتعليم الإلزامى من غايات) ادعاؤكم بأن تعليم الفلاح سيرقى بالأمة صُعُدا إلى المجد ، ويسير بها قُدُما إلى العظمة والشرف ، ويجرى بها طلَقا فى سبيل السعادة والطمأنينة . ولكنى أراكم هنا أيضا تتحدثون عن سعادة المجتمع ، وهناءة الأمة ، بأسلوب خادع فتّان ، ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه من قِبَله العذاب . فهل تصورتم ما تكون عليه حال المجتمع المصرى بعد عشرات السنين إذا قدر لكم أن تستمروا فيما أخذتم فيه من تعليم الفلاحين .

آه ، لو تستطيعون أن تقتحموا جوف المستقبل بأبصاركم وبصائركم إذاً لأدركتم ما يحمله لهذه الأمة الهادئة الوادعة من أرزاء ونكبات ، ويومئذ تعرفون أية حال من الفوضى والاضطراب والفزع تعانيه مصر وأهل مصر .

انظروا — أيها السادة — هؤلاء الفلاحون المتعلمون الغاضبون قد ثاروا على أصحاب الأراضى ، وأقبلوا يحملون فؤوسهم ومناجلهم ، هؤلاء الفلاحون المتعلمون يهجرون حقولهم ودوابّهم استمعوا اليهم إنهم يطالبون بزيادة الأجور ، ونقص ساعات العمل ، ويقررون الاضراب حتى تجاب مطالبهم .

وتلك هى نقابات الفلاحين تؤلف ، ومؤتمرات الفلاحين تعقد ، هاهى ذى الحكومة تتدخل فى الأمر وتواجه أسوأ مشكلة اجتماعية عرفتها حكومة مصرية . ثم هذه هى المجاعة والفقر والفاقة تهدد التجار والصناع والموظفين من إضراب الفلاحين ، وهذا المجتمع المصرى صغيره وكبيره غنيه وفقيره خاصته وعامته يعانى من ثورة الفلاحين ما يعانى ويكابد منها ما يكابد .

هذه الصورة البشعة التى تحاولون أن تدفعوا إليها مصر بأيديكم وباختياركم، ثم تجيئون اليوم فتتحدثون عن العظمة والمجد والشرف والسعادة.

ان التاريخ – أيها السادة – يضرب لكم أبلغ الأمثال، فسلوه يحدثكم بما يعرفه كل إنسان من أن تلك المبادىء الهادمة الفتاكة من بلشفية واشتراكية. إنما وجدت منبتها الصالح ومرتعها الخصيب فى تلك البيئات التى ارتفع فيها مستوى المعيشة لطبقات العمال والصناع والفلاحين، مما أفضى إليه التعليم. سلوا التاريخ يقص عليكم أن هذه الزلازل والعواصف الاجتماعية فى العالم ما كانت لتجد سبيلها الى النفوس لو ظلت هذه الطبقات العاملة قانعة بحياتها ناعمة بجهالتها.

ولا أريد أن أختم كلمتى هذه من غير أن أعود فأكرر لكم - أيها الأصدقاء - إنه لا يعنينى موقع حديثى من قلوبكم، ومنزلته من نفوسكم، وإنما الذى أحب أن تذكروه دائماً هو أن هـذا الصوت الذى ارتفع اليوم بينكم، هو صوت فلاح وابن فلاح، هو صوت رجل يعاشر الفلاحين، ويقاسمهم حياتهم، ويعرف ما ينفعهم وما يضرّهم. اذكروا هـذا واذكروا فوق هـذا أن طائفة كبيرة من ذوى الأراضى الواسعة، ممن خبروا الفلاحين، وبلَوْا حياتهم، يشاطروننى رأيى، ويذهبون مذهبى، وحسبى هنا أن أكون قد نبهتكم إلى ما يكنّه المستقبل لهذه الأمة من نـكبَات لا يعلم إلا الله مدى عواقبها وآثارها، فهأنذا قد أنذرتكم، وقد أعذر من أنذر».

ثم قام على إثر ذلك الشاب النابه أحمد لطفى بك، وردّ على خطبة سعادة الباشا بالكلمة الآتية:

ربّاه! ما للأرض ثابتة لا تميد وتضطرب؟ وما للهرم راسخاً لا يميل ويتحطم؟ وما لأبى الهول يرمقنا صامتا لا يتـكلم؟ وما للنيل يجرى رفيقا لا يفيض ويَطغَى؟ هذه معالم الخلود حولنا تفاخر الدهر بما شهدت من دول، ورأت من أقوام وأحداث، وعرفت من شرائع وقوانين ومذاهب وآراء، فليت شعرى هل رأت كاليوم فيما رأت، وهل سمعت كهذا الصوت فيما سمعت؟

ايه بناة الأهرام، ايه فراعنة مصر، وسادة الشعوب، وقادة الممالك، ألاَ هبُّوا

من مراقدكم وانفضوا غبار الموت الأبدى عن أجفانكم ، هبُّوا يا سادة ، وأرهفوا من أسماعكم وأطلقوا ألسنتكم . حدثونا ولو ساعة من نهار : ماذا صنعتم بمصر ، وماذا صنعت مصر بكم ؟ خبرونا عما استحدثتم فى عهودكم السحيقة من نظم ومبادئ فى هذا البلد الأمين الخالد .

نصُّوا علينا - يا سادة - كيف استطعتم أن تقرنوا فلاح مصر بمعبوداتكم ، فتجعلوا منه إلهـا تسجدون له من دون الله ؟ نبئونا كيف استطاع قساوستكم وكهنتكم أن يلقوا فى روع العامة أن التعليم شرط للنجاة من عذاب الآخرة ، وأن (ازوريس) العظيم الجبار لن يرضى أن يصطحب فى زَوْرقه المقدس نفسا أمية جاهلة لا تستطيع أن تقرأ كتاب الموتى أو تتذوق مواعظ (فتاح حوتب) العالم الحكيم .

عرفونا كيف كان ذوو اليسار من قومكم يرْعون أبناء الفلاحين ، ويؤوونهم فى مساكنهم ، ويقومون بنفقات تعليمهم فى تلك المعابد المظلمة الرهيبة ، ليتخذوا منهم بعد ذلك خدَما لبيوتهم ، وزراعا فى حقولهم ، وأمناء لمخازنهم .

تحركوا - يا سادة - من نواويسكم ، وانظروا ماذا صنع الدهر بمصركم العزيزة الغالية ، التى حرصتم كل الحرص على أن تكتبوا لها صفحة من الخلود ، لا يطاولها الزمن ، ولا تنال منها صروفه وأحداثه . هل دَرَيْتُم أن صوتا سيرتفع بعد أربعين قرنا بجوار مقابركم المقدسة ينادى فى غير رهبة أو حياء بأن الفلاح المصرى يجب أن يظل أميا جاهلا ، لأنه ناعم بجهالته ، سعيد بأميته ؟ ترَى لو ارتفع مثل هذا الصوت فى أيامكم المجيدة السعيدة ماذا كنتم صانعين بصاحبه وسامعيه ، والآخذين به ، والعاملين عليه ؟

عفوا - سادة مصر - لقد غفرتم لأهل هذا البلد كثيراً من الذنوب والسيئات التى تجنَّوْا بها على أشخاصكم المقدسة ، وتاريخكم الخالد . غفرتم لهم أن يتركوا الغرباء عنكم وعن أرضكم ، أهليكم يعيشون فى ماء هذا النيل المقدس ، الذى كنتم تحرمونه على غير أهل مصر ، وتحرصون على ألا يمسّهُ إلا المطهرون . غفرتم لهم أن يدَعوا تلك اليد الأجنبيه تنتهك حرمات مقابركم ، وتعبث بجسومكم وجسوم

نسائكم وإمائكم تعرّضها للمارة والسائحين يتفكهون بمرآكم . غفرتم لهم هذا ، وعفوتم عن كثير مثله . فهل تغفرون اليوم لفريق من أبنائكم يأبَوْن إلا إذلال الفلاح واستعباده؟

مَنْ لى بهذا الصوت القوى الرهيب صوت (لوثر) الذى كانت ترجّع صداه آفاق أوربا وهو ينادى بأن التعليم فرض على كل انسان ليكون عَوْنه فى فهم الدين على وجهه الحق ، وتخليص روحه من ترّهات الكنيسة وأباطيلها .

ألا رعى الله جدث ذلك المربى العظيم (قسيس مورافيا) الذى طالما نادى بأن التعليم حق لكل انسان ، لأنه انسان بغضّ النظر عن مكانته وطبقته وثروته وجنسه ؛ وكم أهاب بحكومات القرن السابع عشر أن تعنى بتعليم أفرادها حتى لا يكونوا فى كل انقلاب اجتماعى أو سياسى كالحُمُر المستنفرة ، يتبعون أول ناعق، ويسيرون وراء كل ضال .

ومَنْ منا لا يذكر هذا المصلح الاجتماعى العظيم (بستالوتزى) ، الذى ضحى بكل ما يملك من مال ونشب فى سبيل تعليم الفقراء من أبناء الفلاحين ، فجعل منهم رجالا مثقفين ، يدركون ما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات . أنصِتْ إليه وهو يقول : « خير خدمة يقدمها المرء لقومه ووطنه هى أن يعلم الفقراء كيف يعتمدون على أنفسهم ». أين هؤلاء وأمثالهم ، بل أين دعاة الديمقراطية ورسل الانسانية الذين نادوا وما يزالون ينادون بأن التعليم حق الفرد على الحكومة أو المجتمع ، وأنه لا يقل شأنا عن حق الحياة ، وحق الملك ، بل لقد أصبح فى حياتنا الراهنة من الحقوق الطبيعية الأولية ، كالمأكل والمشرب والكساء .

أين هؤلاء وأولئك ليسمعوا السيد المحترم يقوم بيننا فلينكر من تعليم الفلاحين وينذرنا فى ذلك بالويل والثبور ، وعظائم الأمور .

أصدقائى :

لقد سمعنا اليوم حديثا عَجَبا ، وكان من الهيّن علينا أن نجعله دَبْرَ آذاننا ، بل تحت أقدامنا ، لو لم يكن صادرا عن شيخ عالم مثقف مجرّب ، قضى شطرا من شبابه فى أوربة ورأى بعينيه هاتين ، كيف يعنى القوم هناك بتعليم فلاحيهم وصناعهم ،

وكيف يجنون من ذلك ثمارا شهية . ولكن أدهى من هذا وأمرّ أن يؤكد لنا سعادة الباشا المحترم أن هذا الرأى الذى أبداه اليوم ليس خاصا به ، ولا مقصورا عليه ، وإنما هو رأى فريق من الناس يدّعون أنهم يتكلمون باسم الفلاح ، ويدافعون عن مصلحته .

لقد كنا نحسب أن هذا الصراع الدائم بين القوة والضعف ؛ بين الغِنَى والفقر ، بين الديمقراطية والارستقراطية ، قد انتهى أمره فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عصر المدنية والنور ، ولكن يلوح أننا كنا واهمين ، فإن هذا الجلاد ما يزال ناشبا بين الفلاحين وأصحاب الأراضى فى مصر ، وعلى ضفاف هذا النيل الوادع .

وهل أتاكم — أيها السادة — نبأ ذلك السائح الأمريكى ، الذى راعه أن يرى مدينة القاهرة قد خلعت ذلك الرداء العتيق ، وأخذت بنصيب من المدنية جدّد شبابها ، وزاد فى روائها ، فأدركَتْهُ من ذلك سَوْرة ، وأخذته عزّة ، ومضى إلى سفيره محتجّا بأنه إنما أنفق فى رحلته ما أنفق ، ولَقِىَ فى سفره من النَصَب ما لقى ، ليرى القاهرة بلدا شرقيا كما كانت ، وكما يجب أن تكون كل مدينة شرقية . أما الآن وقد أخذت زُخرُفَها وازّينَتْ ، فليس فيها ما يشوق النفس ، ويمتع الخيال . فهل ترون هناك كبير فرق بين موقف الباشا المحترم من الفلاح ، وموقف ذلك الأمريكى الأحمق من القاهرة وسكان القاهرة ؟ . حقا إن هؤلاء السادة من الأغنياء إنما يستطيعون أن يلهوا بالفلاح ، ويجدوا فى حياته ما يشوقهم ويمتعهم إذا ظل كما هو الآن شقيا تاعسا جاهلا غبيا ، أما ذلك اليوم الذى يصبح فيه هذا المخلوق ذا كرامة وإباء وعزة ، فهو ولا شك يوم عسير ، على الموسرين غير يسير .

أجل . سيكون لدينا بعد عشرات من السنين فلاح جديد ، وسيكون له مع هؤلاء السادة شأن غير شأنه اليوم ، نحن أول من يدرك هذا . ويؤمن به . سيكون فلاحنا الجديد عزيز الجانب ، أبىّ النفس ، سيكون حريصا على حقوقه ، حرصه على القيام بواجباته ، سيكون شاعرا بأنه مخلوق مستقل ، له إرادة ، وفيه قوة ، وسيأبى فلاحنا الجديد أن يسرح مع الهَمَل أو يُحشَر فى زمرة البهائم . وسيعرف فوق هذا كيف يحطم تلك الأغلال التى يودّ أصدقاؤنا الأغنياء أن يظل مكبّلا

بها، راسفا فيها . ويَوْمئذ يدرك سعادة الباشا ومن لفّ لفه ، وذهب مذهبه، أن الفلاح لا بد أن ينصف ، وأن يقام له وزن . ماداموا يعيشون على حسابه، وبفضل قوة ذراعه وعرق جبينه .

نحن لا نلومكم — أيها السادة — فيما تذهبون إليه ، ولكن نرثى لكم ، فأنتم والله أحق بالرثاء منكم باللوم . إنكم لتدركون أكثر مما ندرك أن تعليم الفلاح سيضطركم إلى تغيير تلك الأساليب التى ألفتموها حتى اليوم فى معاملته ، سيرغمكم على أن تتبعوا طرائق أرفق وأعدل ، ستفقدون شيئا من هذا الجاه العريض ، والسلطان الواسع ، ستحرمون لذة الاستمتاع بهذا النفوذ المطلق الذى تبسطونه اليوم على عمالكم وفلاحيكم ، ستحرمون كل هذا ، وستحرمون مع هذا شيئا من التقديس لذواتكم وأشخاصكم، أىّ شىء أشق على النفس وأوجع للقلب مما تُحرَمون؟ ليس عجيبا أن تكونوا أعداء لكل إصلاح حتى يتناول الفلاح ، بل العجيب ألا تكونوا كذلك . كيف ننتظر منكم أن تعينوا بإرادتكم وباختياركم على تعليم الفلاح ، فتوقظوه من سُباته ، وتنبهوه من غفلته ؟ أنتم لا تستطيعون أن تنسوا ذواتكم ومصالحكم . ما أشبهكم برجل يعيش فى غرفة من المرَايا حيثما ولّى وجهه لا يرى إلا نفسه . أنتم لا ترون فى الفلاح سوى مخلوق تافه حقير ، سخر لكم ، فلكى تنالوا أطيب طعام على موائدكم يجب أن يموت الفلاح جوعا ، ولكى تستمتعوا بلذيذ الشراب يجب أن يقتله الظمأ ، ولكى تَخِفُّوا إلى الأقصر كل شتاء ، وإلى أوربا كل صيف ، يجب أن يكدّ ويكدح فى الهجير وفى الزمهرير ، ولكيلا يشعر بأنه مهيض الجناح أو مهضوم الحقوق يجب أن يظل — كما هو الآن — جاهلا أميا .

هذه هى الحقيقة التى تجيش بها نفوسكم مجرّدة من هذا الزخرف البرّاق الفاتن . الذى تحاولون أن تخدعونا به ، لتُلْقوا فى روعنا أنكم إنما تبتغون سعادة الفلاح ، وتناضلون عن مصلحة الفلاحين .

ولكن العجب لكم — أيها السادة — حين تخوضون فى المستقبل ، تنتزعون من جوفه المخاوف ، وتتلمسون فى طيّاته الثورات والمهالك ، وما أراكم والله فى هذا إلا ضالين أو مُضلّين ، من سواكم يعتقد أن التعليم أيا كان نوعه يولد

بين الناس الفتن ، ويربى الأحقاد ، وينبت السخائم ؟ ما كان التعليم لينتج شيئا من هذا ، وإنما الذى يولده ويعين عليه ، بل يغرس شراً منه ، تلك الجهالة الجهلاء ، والأمية العمياء ، التى يتمرغ الفلاح الآن فى حمأتها ، والتى تأبون لمصلحتكم إلا أن يظل غارقاً فيها ، شقياً بها . سلوا رجال الأمن ورجال الاحصاء ينبئوكم بأرقام حاسمة ، هى فوق كل نزاع أو جدل ، بأن الأمن لا يُستقر ، والطمأنينة لا تسود ، إلا فى تلك البيئات الريفية ، التى أخذت من التعليم نصيباً موفوراً . بَقِىَ ذلك الخصام الذى تؤكدون لنا أنه لا محالة واقع فى الغد القريب بين الفلاح المتعلم وبينكم . وأنا فى الحق لا أدرى كيف تقع تبعة هذا الخصام على التعليم . هاكم بعض طوائف الصناع والعمال فى القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة المصرية . فقد بدأ النزاع يحتدم بينهم وبين أصحاب الأعمال على الأجور وساعات العمل ، مع أن صناع مصر وعمالها على ما نعلم من الجهل والغباء ، بل إن مكتب العمل فى وزارة الداخلية ليستطيع أن يؤكد لكم أن جهالة هؤلاء العمال هى التى تؤرّث نيران العداوة ، وتزيد هذا الخلاف قوة وعنفاً . وليس ذلك بعجيب . فانما الرجل الجاهل الضعيف الارادة هو الذى يعمِد فى شئونه إلى الخصام ، ويلجأ إلى القسوة والعنف ، ويخلط فيما له من حق ، وما عليه من واجب ، ويخطىء فى فهم الصِّلات والعلاقات التى تربطه بغيره من الناس ، أفبعد هذا تصرُّون على أن التعليم علة كل خصام إن وُجِد ، وأن الجهالة لها الفضل فى منعه إن لم يُوجَد ؟ يجب أن تدركوا — أيها السادة — أن لتلك الخصومات التى تقع هنا وفى أوربا بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال عللا وأسباباً ، ليس التعليم واحدا منها ، وإنما السيطرة الغشوم ، والاستبداد المطلق ، والشَّرَه القتّال ، هى التى تغرس الضغائن ، وتولّد سوء الظن بين الناس .

صدقونى — أيها الصحاب — أنكم لا شك مدركون بتعليم عمالكم أكثر مما تدركونه اليوم بجهالتهم وأميتهم ، فالفلاح المتعلم سيكون أرْعَى لمصالحكم ، وأحرص على أموالكم ، وأكثر انتاجاً لغَلاّتكم ، وأبصر بتربية ماشيتكم

ودوا بكم ، و أقدر على استئصال العلل والآفات التى تلحق مزروعاتكم . وستجدون فيه من هذا كله رجلا تعتمدون عليه ، وصديقاً تثقون به ، وتركنون اليه ، فأىّ خير يخبئه لكم تعليم الفلاح ! وأى جزاء يُسْبغه عليكم تعليم الفلاح ! بل أية راحة وطمأنينة يُعقبها لكم تعليم الفلاح ! وبعد . فاعلموا — أيها السادة — أن نشر التعليم الالزامى بين طبقات الفلاحين والصنّاع ، هو قضاء الطبيعة ، وحكم التطور ، وأن للطبيعة صوتاً أقوى وأروع من أصواتكم ، وأن للتطور نفوذاً فوق نفوذكم ، وأن للحياة ناموساً لا يشذ من أجل مصالحكم ، فهو لابد بالغ مبلغه ، ومدرك غايته ، فليس فى وسعكم - (أية كانت ثروتكم ومنزلتكم) - أن تعكسوا دورة الفلك ، أو تؤخروا سير الزمن . فالفلاح لابد أن ينال قسطه من التعليم ، وأن يستمتع بنصيبه من الحياة ، هذا حكم الطبيعة الذى يجب عليكم وعلينا أن نسلم به ، ونخضع له . هدانا الله وإياكم سبل الرشاد».

وقد انتهى العضو المحترم من خطبته فى منتصف الساعة السابعة ، وقد جن الليل ، وساد الظلام ؛ فقررت الجماعة ارجاء النقاش فى هذين الخطابين إلى الجلسة المقبلة »

(صورة طبق الأصل) زكى المهندس

— ١٢ —

نظر بعض الحكماء إلى رجل يرمى هدفا وسهامه تذهب يمينا وشمالا ، فقعد فى وجه الهدف ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : لم أر موضعا أسلم منه .

إصلاح التعليم الثانوى

دراسة تقرير التعليم الثانوى الذى أصدره معالى وزير المعارف

بقلم الأستاذ عبد الحميد حسن
المفتش بوزارة المعارف

أصدر حضرة صاحب السعادة **أحمد نجيب الهلالى بك** وزير المعارف تقريراً، أوضح فيه عيوب التعليم الثانوى، وضمنه وجوه الاصلاح. وهو تقرير شامل يدل على درس عميق، وخبرة واسعة بالتعليم وشؤونه، وبما هو ذائع فى مدارسنا من نظم ومناهج، وطرق وأساليب، وبما تجرى عليه الوزارة من وسائل فى إدارة التعليم، وتعقب الطلاب بالامتحان، والمعلمين بالمحاسبة على كمية النجاح، وإصدار النسب المئوية، وغير ذلك من الشؤون التى تدور حول التعليم، ولا تصل إلى لبه، ولا توصّل إلى الثقافة المنشودة، ولا إلى التكوين الصحيح، الذى نسمع به ولا نرى له أثرا فى متعلمينا.

أوضح الوزير كل ذلك بأسلوب ممتع، ارتكزت فيه النتائج على مقدماتها المقنعة، فى صراحة أثاجت الصدور، وأطربت المشتغلين بالتعليم من رجال المعارف وغيرهم، ودلت على همة حاسمة، ورغبة صادقة فى الاصلاح والنهوض والتجديد.

وإنا نحمد للوزير هذه السنة الحسنة، وهى إصدار تقرير عن التعليم يذيعه أبلج ناصعاً على الملأ. ونحمد له أيضاً ترحيبه بابداء الآراء، وتمحيص البحث، حتى يتجلى الحق، و ننهض بالتعليم على الأسس الصالحة.

وما أجدر التعليم وإعداد النشء بأن نوالى فيه البحث، وننهج له أقوم الخطط وأوضح السبل المبنية على التجربة والرأى الحصيف. وإنا إذا كنا نرى كل عام أو بعض عام تقارير عن الشؤون المختلفة للدولة، كالزراعة والتجارة والأمن والصادرات والواردات والصحة وغير ذلك، فما أجدر التعليم بمثل هذا. وقد

ضرب لنا الوزير المثل الأعلى بإصدار تقريره . وإنا نأمل أن تسير الوزارة ورجالها ومعلموها ومفتشوها ونظار مدارسها على هذه السنة ، فيبدى كل رأيه ، مبينا ما يعن له من مواطن الضعف أو النقد ، ووجوه الارشاد والاصلاح ، بعد التجربة والخبرة العملية . وبذلك ينشط الجانب الفنى فى وزارة المعارف ، ويحل تعليمنا من قيوده ، وتتضاءل تلك الاقاويل التى ذاعت ، وهى أن نظامنا التعليمى وجهود المعارف ورجالها تتجه فى طريق آلىّ جاف ، مركز فى الامتحانات والاحصاءات وغير ذلك ، مما هو بعيد عن التربية الصحيحة . وحسبنا من أمثال هذه التقارير ، أنها ستوقظ الاذهان ، وتثير من وجوه البحث ما أثاره تقرير الوزير فى جميع البيئات التعليمية على اختلافها . وإنا نرجو أن يكلل إصلاح حياتنا التعليمية والاجتماعية بالنجاح .

نعرض بعد ذلك لما تضمنه التقرير من وجوه الاصلاح ، وهى كثيرة شاملة تمس نواحى شتى من نظامنا التعليمى وحياتنا الدراسية والمدرسية . ونستطيع أن نجمل ما سنخصه بالبحث منها فى عوامل ثلاثة ، وهى :

(١) الهيكل الدراسى التعليمى — ويشمل خطة الدراسة والمواد والمناهج .

(٢) الاشراف على التعليم — ويرجع ذلك إلى التفتيش وإلى جمعيات المدرسين للمدرسة وللمواد المختلفة ، والى الامتحانات .

(٣) الحياة المدرسية — ووجوه إصلاحها حتى تكون منبعا للتكوين الصحيح الخلقى والاجتماعى والعملى .

أما العامل الأول ، فقد كان هو الهدف الذى صوب نحوه الرماية من قصدوا البحث فى إصلاح التعليم ، ولا يزال هو العامل البارز الذى يعتبر محور الاصلاح . غير أنى لست على هذه العقيدة من اعتبار هذا العامل هو الأول ، أو المحور الذى يدور حوله الاصلاح ، وأرى أن العاملين الآخرين لهما الشأن الاكبر فى الاصلاح ، ولا سيما فى حالتنا التى نحن عليها من قصور فى معالجة الشؤون العملية . واضطراب فى حياتنا الخلقية ، وتفكك فى نظامنا الاجتماعى .

لهذا سأعرض للعاملين الأخيرين بادئا بالأخير منهما :

الحياة المدرسية :

لقد ألفنا فيما مضى أن نعتبر المدارس مكانا لتلقى الدروس ، والاستزادة من الحقائق العلمية ، وإتمام المناهج المسطورة ، والتنافس فى الاستظهار ، وإحراز الدرجات الرفيعه فى الامتحان .

ولم يكن للحياة المدرسية النصيب المنشود ، على مالها من أثر قوى فى التكوين الخلق والاجتماعى والعملى .

ألفنا ذلك ودرجنا عليه حقبة من الزمن ، ولايزال فريق من المتعلمين وغيرهم على هذا الرأى . وكانت نتيجة هذا الاجحاف بالحياة المدرسية ، والغض من شأنها ، ذلك العجز العملى فى الطلاب . وفقدان الطابع الشخصى فيهم ، والقصور التهذيبى الشامل ، والركود فى وجوه النشاط فى المدرسة ، أو فى الحياة العملية بعد ذلك .

ولا غرابة أن تكون هذه هى النتيجة ، وأن تتصاعد الشكوى من أرباب الأعمال ، ومن المصالح المختلفة ، ومن الهيئات الحرة « من عجز خريجى المدارس الثانوية عن حسن القيام بالأعمال التى تعهد اليهم » بل الغريب أن تصل مدارسنا بالطلاب الى المقدرة العملية ، وتكوين الشخصية الكاملة ، والقدرة على الاندماج فى الحياة ، وهى خلو من هذا ، وليس فيها من الوسائل إلا ملء الآذان بالألفاظ ، وتأبط الكتب لالتهام أسطرها .

هذه هى حال مدارسنا ، وهى تتطلب العلاج . وقد أشار الوزير فى تقريره إلى طائفة صالحة من وسائل الاصلاح ، حين تكلم فى الرحلات والجمعيات المدرسية ، واشتراك التلاميذ فى الحياة الاجتماعية ، والسيطرة الروحية عليهم ، واتصال المعلم بالطلاب فى خارج حجرة الدراسة ، وعلاقة المدرسة بآباء التلاميذ وأولياء أمورهم ، إلى غير ذلك مما تجلى فى التقرير فى مواضع شتى ، ودل على بصر بمواطن الداء .

ورجاؤنا أن تنال هذه الوجوه من النشاط الاجتماعى قسطها من العناية فى المدارس ، فهى دعامة قوية من دعائم الاصلاح المدرسى ، وفى ثناياها من الاعداد للحياة الصحيحة قدر كبير . وأملنا أيضا أن تكون العناية بها مثمرة موجهة للصميم ، حتى يتحقق الغرض منها . فانا نشاهد الآن فى بعض المدارس شيئا من هذا النشاط ،

فيما تنشىء من جمعيات مدرسية، للتمثيل وللتصوير وللموسيقى وغير ذلك، ولكنه نشاط قاصر الغاية، ضيق النطاق. لايتعدى طائفة ضئيلة من الطلاب، ولا يتغلغل فى الحياة المدرسية، ولا يصل إلى لبها. على أن كثيرين ينظرون إلى هذا النشاط نظرهم إلى العمل الدخيل، أو العبء الثقيل؛ الذى يطغى على الدرس والتحصيل والاستعداد للامتحان، فتراهم إذا اقترب موعد الامتحان يطوون صفحته، ويضنون عليه بالزمن، ولو أنصفوا لاستزادوا من هذا النشاط كلما توغل التلاميذ فى الدرس، وكادت الكتب تنسيهم الحياة الصحيحة. وبعض المدارس لاترمى من وراء هذا النشاط إلا إلى الظهور، فلا يصلون إلى الغرض المنشود.

ومما أراه نافعاً فى هذا الصدد أن تتبادل المدارس التزاور، والاختلاط فى حفلات سمر، أو مطارحات علمية وأدبية، أومراسلات فى بعض الشؤون المدرسية أو غيرها. ولتكن هذه الحفلات مدرسية يقصد منها فائدة التلاميذ من الوجوه المختلفة، لا أن ترمى إلى حسن العرض أو تفكهة المدعوين.

ومما يزيد الحياة المدرسية قوة أن يدعى المتخرجون القدامى إلى حفلاتها، وأن يطلب إلى فريق منهم آناً فآناً التحدث الى التلاميذ فى ماضيهم وحاضرهم وذكرياتهم المدرسية، وفيما صادفوا فى الحياة من صعاب تغلبوا عليها بالصبر والثبات، وفى الأعمال التى سلكوا سبيلها فى الحياة، وفى وسائل النجاح التى تدرعوا بها، إلى غير ذلك؛ ففى كل هذا تاريخ حافز للهمم.

ومما له أثر عظيم كذلك، دعوة بعض أرباب الأعمال، ورجال الاقتصاد، وذوى الرأى، لالقاء محاضرات على الطلاب فى الشؤون الحيوية والعملية، وإن ظهور هؤلاء الرجال فى ساحة المدرسة بين طلابها، وتحدثهم إليهم فى الشؤون الحيوية، فيه من الفائدة العملية والاجتماعية، ومن حفز الهمم، وربط المدرسة بالحياة الخارجية، مانرجو من ورائه عظيم الأثر.

كل هذا وأمثاله من وجوه النشاط المدرسى ينبغى أن ينال عناية وتشجيعا من الوزارة ورجالها. وإذا كانت التربية العقلية قد التهمت كل جهود رجال التعليم، وكانت التربية البدنية قدنالت اهتماما، وأصبحت لهامراقبة ترعاها، وتبث المنافسة الرياضية فى التلاميذ، وتحفز هممهم إلى المسابقات، وتجيز الفائزين منهم أفرادا

وجماعات ، بالكؤوس الفضية ، وسمات البطولة ، لاحراز السبق فى الألعاب الجسمية على اختلافها ؛ فما أشد احتياج التربية الخلقية والاجتماعية إلى مثل ذلك . ولعلنا نرى من الوزارة عناية صادقة بهذا الجانب فليس له مناهج مسطورة ، ولا طرق للاختبار ولا ينال من جهود المشرفين على المدارس إلا بقدر ماله من شأن فى الامتحانات العامة أو المدرسية . ولذا نخشى أن يظل مهملا لا ينال العناية التى يستحقها .

الاشراف على التعليم :

لاحظ الوزير فى تقريره أن هذا الاشراف مركّز فى الوزارة ورجالها تركيزا يشل جهود المعلمين ونظار المدارس ، ويحول بينهم وبين الابتكار والاصلاح . وليت هذا التركيز كان موجهاً للشؤون المهمة ، فان الوزارة قد شغلت بأصغر الشؤون المدرسية : من عقوبات التلاميذ ومواظبتهم ، واعادة قيدهم ، واعتماد جداول الدروس ، وغير ذلك ، مما لم يبق زمنا للتفرغ للشؤون الفنية ، ودراسة السياسة العليا للتعليم » .

وأهم عبء تتحمله الوزارة ، ويشغل معظم وقتها وجهودها ، هو الامتحانات . وقد تكفل التقرير بوجوه الاصلاح فى هذا الصدد ، وذلك بالغاء امتحان القسم الأول من الشهادة الثانوية ، وبابطال امتحانات الدور الثانى .

ولعل النية تتجه كذلك إلى الغاء امتحان اتمام الدراسة الابتدائية الذى يجرى على النظام الحاضر ، وإلى تحويله إلى امتحان مدرسى للقبول بالمدارس الثانوية تقوم به كل مدرسة ثانوية لمن يتقدمون لها . أما المدارس الحرة فيمكن أن يسن لها نظام على النمط الذى اقترح فى التقرير لامتحان الانتقال بالمدارس الثانوية .

وإن قيام المدارس الثانوية بامتحان القبول لاضرر فيه ، فالمدارس الثانوية ـ كما جاء فى التقرير ـ هى الهيئات التعليمية المشرفة على الثقافة العامة وعلى تخريج الطبقة المهذبة . وإذا كنا قد وثقنا بها فى الاشراف على امتحان الانتقال فى القسم الثانوى ، أفلا نطمئن إليها فى الاشراف على امتحان القبول بالمدارس الثانوية ؟

على أنى لا أريد أن تنقطع صلة الوزارة بالاشراف الاختبارى على المدارس الابتدائية، ولامانع من أن تتصدى الوزارة لامتحان القبول، على أن تقوم بوضع الأسئلة فقط، أما طبع أوراق الأسئلة، وادارة الامتحان، وطرق التصحيح وغير ذلك من النظم والأعمال، فانها تترك للمدارس نفسها.

وسيتضح السبب فيما أرى من إشراف الوزارة على وضع الأسئلة حينما أعالج الموضوع فيما يلى:

إن اشراف الوزارة على التعليم يرجع إلى عملين تسيطر عليهما، وهما:

(١) الامتحانات (٢) التفتيش

أما الامتحان — فانه إذا اتجه اتجاهاً صحيحاً كان عظيم الأثر فى قيادة الحياة العقلية، ورسم الطريق القويم لها، وأصبح وسيلة للارشاد، وتوجيه طرق التعليم الوجهة الصالحة. أما إذا سار سيرا جامدا منحرفا عن الجادة، فإنه يكون من معاول هدم التعليم، وإفساد طرقه، وتحويل جهود رجاله إلى نظام تعليمى عقيم. والدليل على هذا واضح أمامنا فى كتب الأسئلة التى تجمع، وفى المختصرات الدراسية التى يتنافس طلاب المنفعة فى إخراجها، وفى سير المعلمين والطلاب وراء ما يتطلبه الامتحان من حشد للحقائق، واستظهار للألفاظ.

إن الامتحان ليس عدوا للتعليم، بل هو أحد عوامل ثلاثة، إذا تضامنت وائتلفت جنينا من تضامنها خيراً كثيرا للتعليم، وكفينا ـ إلى حد كبير ـ شر المناهج المثقلة. وهذه العوامل هى:

الامتحان — التفتيش — التدريس

أو

الممتحن — المفتش — المعلم

فالممتحن والمفتش عضوان متمهان لاصلاح التعليم، متضامنان فى إعداد الطلاب، وعملهما الأساسى هو الارشاد والنهوض بالتعليم وطرقه، وتوجيه التدريس الوجهة

الصالحة . وأعتقد أن أسئلة الامتحان نستطيع بها أن نرسم الطريق القويم للتدريس، وأن نوجه المناهج الوجهة التى نريدها .

وينبغى أن يكون الممتحن شريكا للمعلم فى وجهة النظر التى يجب رسمها ، مترسما الغاية التعليمية التى يعمل هو والمعلم لتحقيقها . فليس هو بالجاسوس على المعلم ، ولا بالشرطى الذى يتعقبه ، وإنما هو عون له ، وهما معا يعملان للوصول إلى غاية واحدة . وهى إنهاض التعليم واعداد الطلاب على أكمل الوجوه ، ورسم أمثل الطرق للثقافة التامة والحياة الصحيحة .

على أنه لايعزب عنا أن الامتحانات إنما هى مقياس على عقلى إلى حد كبير . وليست المادة العلمية ، ولا التربية العقليه التى يقيسها ، هى كل شىء فى إعداد الفرد إعدادا كاملا ، فهناك التربية الاجتماعية والتربية الخلقية ، ولهذين شأنهما فى كل نظام مدرسى تام . فالاشراف بالامتحان ليس اشرافا تاما ، ولا بد من الالتجاء إلى وسائل أخرى . وليس لدى الوزارة إلا وسيلة واحدة لاتمام الاشراف والارشاد من جميع الوجوه ، وهى التفتيش الفنى . غير أن هذا أيضا قد اتجهت به الوزارة اتجاها آليا ، لبابه الاختبار ، وتدوين النتائج ، والنسب المئوية ، والاشراف على ما درس من المناهج وما سطر من موضوعات كتابية . ومما يلاحظ أن النواحى الخلقية والاجتماعية والعملية ليس لها فى المناهج نصيب وليس فى الزمن المدرسى متسع لها ، فالاشراف عليها لاحظ له ، والنتيجة المحتومة لكل هذا هى اهمالها ، وكيف تكون التربية كاملة بدونها ؟

من هذا يتضح أن الوسيلة التى تتخذها الوزارة للاشراف على المدارس - وهى التفتيش - مغلولة اليد ، محدودة الميدان ، مثقلة بالأعباء الآلية ، وهى لهذا تتطلب السير على قواعد جديدة . وإن المفتشين ورجال المعارف أعرف بما يجب فى هذا الصدد ، فنترك لهم إصلاح شؤونهم .

وهناك عامل من خير الدعائم فى الاشراف التعليمى والخلق بالمدرسة ، وفى السمو بالروح المدرسى ، وتكوين شخصية المدرسة ، واستمداد قوة ذاتية من

الداخل . وهذا هو جمعيات المدرسين . وقد جاء فى تقرير الوزير بهذا الصدد ما يأتى :

« فينبغى أن يكون لكل مدرسة جمعية من المدرسين ، وأن يكون لكل مادة جمعية من مدرسيها ، وأن يكون لهذه الجمعيات رأى محترم ، واهتمام بشؤون المدرسة »

وهذا الاقتراح له فى الاصلاح التعليمى والمدرسى شأن عظيم ، ونرجو ان تحققه الوزارة ، وأن تمنحه قسطا من عنايتها ، وأن تكل للمفتشين تعهد هذا الجانب بالتغذية والارشاد والنقد والتشجيع ، والتنويه به فى تقارير خاصة أو عامة ، وأن تمنح هذه الجمعيات قسطا واسعا من الحرية والاعتداد بالرأى ورسم خطط الاصلاح العلمى والاجتماعى والخلقى والعملى فى المدرسة . وبهذا يقوى الروح المدرسى ، ويصبح للمدرسة شخصية قوية تفيض على الطلاب ، وتنهض بالمتعلمين .

٭ ٭ ٭

مما تقدم يتضح أن هناك عوامل أربعة ذات أثر فى الاصلاح ، وهى :

المعلم والممتحن والمفتش وجمعيات المدرسين فاذا تضامنت هذه العوامل فى حدود واسعة من الحرية والتجديد والابتكار أفادت ، وأغنت عن كثير من التغيير ، وكانت خير مرشد إلى أقوم السبل وأجداها .

الهيكل الدراسى التعليمى :

هذا هو الجانب الذى يتطلع لاصلاحه الجميع ، فقد عمت الشكوى من ثقل المناهج وازدحام خطة الدراسة ، حتى لم يبق للعوامل ذات الشأن فى اعداد الطالب للحياة العملية الصحيحة نصيب من العناية ، فازداد الضعف واستفحل القصور ، وأصبح التعليم شكليا سطحيا .

وفى تقرير الوزير ما يدعو الى الاطمئنان بان التغيير سيكون تجديدا فى حدود قويمة ، وسيضمن تقليل المواد الدراسية ، وتعديل المناهج تعديلا يكفل للمعلم التمكن من التثقيف ، وللطالب اكمال ثقافته ، وللحياة المدرسية وفرة فى الوقت ، وسعة فى ميدان العمل المجدى .

ولسنا ندرى من أمر التعديل فى الخطة أو فى المناهج شيئا الآن ، ولكن الروح الذى تجلى فى التقرير يدل على تجديد ونهوض واصلاح ، وسيكون التغيير من غير شك متمشيا مع هذا الروح الطيب .

على أننا نأمل أن تحقق الخطة ما يأتى :

(١) العناية بوجوه النشاط المختلفة ، وتحديد أوقات لها فى صلب الخطة .

(٢) أن يكون للاشغال اليدوية نصيب ، فهذه المادة من الطرائف التى يملأ بها الشاب أوقات فراغه ، وهى أيضا من عوامل التنشيط والتنويع فى الجو المدرسى . وإذا كان للعقل وللخلق وللجسم وللحياة الاجتماعية شأن فى التربية فهناك أيضا اليد ، فتربيتها ذات صلة بالتربية العقلية وبالحياة العملية ، ولسنا فى حاجة إلى التدليل على هذا .

(٣) أن يكون إلى جانب الخطة المحدودة خطة أخرى فى أوقات الفراغ وأن يشير المنهج إلى تنظيمها فى حدود تقترح ، وبذلك يكون إلى جانب الخطة المرسومة ، والمنهج الذى سيوضع ليقوم به المعلمون فى أوقات العمل خطة أخرى ومناهج أخرى للعمل فى أوقات الفراغ لتغذية وجوه النشاط المختلفة . وان هذا الجانب عظيم الأثر ، والاهتمام به هو الذى سيخرج بحياتنا المدرسية من ركودها إلى نشاط واسع المدى ، متصل بالحياة الصحيحة . ولا يغيب عن الأذهان أن ماهنالك من فروق نتحدث بها بين مدارسنا والمدارس الأجنبية لايرجع الى الجانب العلمى وحده ، بل جله راجع الى الجانب الاجتماعى ، وإلى تلك المناهج غير المسطورة ، وإلى ما فى المدرسة من حياة فى أوقات الفراغ وغيرها .

(٤) ان يتجه تثقيف البنات اتجاها خاصا بهن ، وأن تكون الحياة المدرسية فى مدارس البنات الثانوية متمشية مع مطالبهن ، وما ننشد للبنت المصرية من ثقافة وحياة .

(٥) قد أشار التقرير إلى أربع مواد ، وهى : التربية الوطنية ، والاخلاق ، والمنطق ، وعلم النفس ؛ ويبدو من خلال الاشارة اليها الموافقة على إبقائها فى خطة الدراسة .

أما التربية الوطنية ، فانى أرى ابقاءها ، لانها معلومات قومية و وطنية لا غنى عنها فى الثقافة العامة .

وأما المواد الثلاث الأخرى فلا أرى ضرورة لابقائها .

(ا) أما الأخلاق فان قصد بها الجانب العملى التهذيبى ، فليس هذا مما يغرس بالتلقين ولا بالدراسة التى تملأ الأسماع ، ولا بالمناقشة فى الحقائق ، وإنما تغرس بالقدوة الحسنة فى البيئة الصالحة ، وباعداد الجو المدرسى ، ولتنمية بذور الخير ، وطبع المتعلم على حميد العادات ، وبملء قاب المتعلم بالفضيلة لا ملء سمعه ولا حافظته . وكل هذا مما لا يعتمد فيه على الكتب ، ولا على الموضوعات المسطورة .

أما اذا قصدنا الجانب النظرى أو الناحية العلمية ، فلا أرى غاية كبيرة تجنى من تدريس ذلك للطالب فى المدارس الثانوية ، وليست هذه النظريات من ضروريات الثقافة التى ننشدها فى هذه المرحلة من الحياة .

(ب) والمنطق كذلك ، إذا قصد به التفكير السليم ، فليس هذا نتيجه دراسة لقواعد المنطق ومسائله ، وانما هو نتيجة الحوار المنظم ، والنظر الصحيح فيما يحيط بالطالب تحت إشراف المعلم القدير فى المواد المختلفة .

(ج) وقواعد علم النفس هى بالمعلم أحق فهو الذى يحتاج إلى أن يعرف أصولها وطرق الانتفاع بها فى اعداد الطلاب وتكوين نفوسهم أما الطالب فحسبه أن نطبعه بالطابع السليم وان نشحذ خياله ونسمو بمداركه ونقوى إرادته ونهذب وجدانه وعواطفه متبعين فى ذلك الطرق العملية المجدية .

٭٭٭

هذا ما ألاحظه بشأن الخطة . أما المناهج ، فانا نرقب جهود واضعيها ، ولنا فيهم بعد هذه الوجهة القويمة التى تجلت فى التقرير ، الامل العظيم .

٭٭٭

هذا وإن النظر فى اصلاح التعليم الثانوى يستتبع النظر فى عدة أمور ، منها :

(١) التعليم الابتدائى ومدته وخطته ومناهجه .

(٢) ثقافة البنات وهل تسير كثقافة البنين فى جميع المراحل .

(٣) المدارس الفنية المتوسطة كالزراعة والصناعه والتجارة وصلتها بهذا الاصلاح ، وحاجة طلابها إلى المزيد من الثقافة عامة والاستعداد العملى خاصة .

(٤) النظر فى شعبة فرض عليها منهج القسم الأول من المدارس الثانوية فى معظم المواد ، وهذه الشعبة هى مدارس المعلمين والمعلمات الأولية ، فهى فى حاجة إلى الاصلاح فى حدود الغاية من هذه المدارس ، وما يحتاج إليه طلابها وطالباتها من ثقافة عامة، واستعداد خاص لمهنة التعليم والقيام بها على أكمل وجه .

كل هذا من المسائل التى سيثيرها إصلاح التعليم الثانوى والنهوض بالثقافة العامة .

٭٭٭

ولنا بعد كل هذا رجاء وأمل ، وهو ألا يقتصر إصلاح التعليم الثانوى على تقليل المواد ، وتخفيف المناهج ، لانا نخشى ، إذا اقتصرنا على هذا ، أن تتحول الحال إلى دراسة موجزة ليس بجانبها شىء من مقومات التربية التامة ، ولا من الاعداد الاجتماعى والخلقى والعملى الذى ننشده ، وتصبح الحال الجديدة صورة مصغرة من الحال القديمة .

ولاتمام الاصلاح ينبغى العمل على تحقيق ما جاء فى التقرير بشأن الحياة المدرسية ، وجمعيات المعلمين ، ووجوه النشاط المختلفة ، واطلاق الحرية للمدارس ونظارها ومدرسيها للمباراة فى تحقيق ما تتطلبه التربية الصحيحة ، فهذا الجانب هو موطن الضعف فى حياتنا التعليمية وهو الذى تمتاز به المدارس الأجنبية ، كما أشرت إلى ذلك .

وبعد ، فان إصلاح التعليم يرجع الى المدارس ونظامها ،ومقدار الاهتمام بالحياة المدرسية الصالحة فيها ، وإلى الروح التى ستوضع بها المناهج والتى ستنفذ بها ، وإلى ربط التعليم ومواده بالحياة ، وإلى التضامن بين المدرسة والامتحان والتفتيش . وسنرقب الاصلاح فى جميع هذه النواحى شاكرين للوزير اهتمامه ، وما يبذل من جهد ، وما أظهر من عناية بالدرس والتمحيص ، وما أتاح من فرص للبحث الشامل فى التعليم وشؤونه .

عبد الحميد حسن

البيئة وأثرها فى التربية

بقلم الأستاذ حامد عبد القادر
أستاذ علم النفس بكلية اصول الدين

معنى البيئة وأقسامها :

يراد بالبيئة الانسانية كل ما يحيط بالانسان ، أو كل ماله وجود خارج عن وجوده . وبالنظر إلى البيئة الانسانية نجد أن بعضها داخلى وبعضها خارجى ، فالبيئة الداخلية بالنسبة للانسان تشمل جميع المؤثرات البيئية التى تؤثر فى النطفة من ساعة تكونها إلى أن تصير جنيناً كاملا فوليداً ، وذلك كحالة الأم العامة من صحة أومرض ، وحركة أو سكون ، وجوع أو شبع ، وحرارة أو برودة ، وكأحوال الرحم الخاصة من ضيق أو سعة ، وطول أو عرض ، وحرارة أو برودة . وتشمل البيئة الخارجية كل ما يؤثر فى الانسان من وقت ولادته إلى ساعة موته .

والبيئة إما طبيعية وإما صناعية أو اجتماعية ؛ ويدخل فى الطبيعية جميع المؤثرات التى تعمل عملها فى الانسان باعتباره فرداً تاماً بنفسه ، كالماء والهواء والطعام وطبيعة الأرض والجو .

ويراد بالبيئة الاجتماعية الانسانية كل ما يؤثر فى الانسان باعتباره فرداً من أفراد مجتمع من المجتمعات الخاصة أو العامة ، كالبيت والمدرسة ومحل المهنة والمساجد والمنتديات .

البيئة والوراثة :

لقد كان القدماء من العلماء يرفعون من شان البيئة ، ويعتقدون أن آثارها أظهر من آثار الوراثة فى نمو الأفراد ونشوء الأنواع ، بل إنهم كانوا يعتقدون أنه من المستطاع تحويل الأنواع الحيوانية ، واستبدال بعضها ببعض بإحداث بعض تغييرات فى البيئة . ثم ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا بإمكان تحويل المادة اللاعضوية

مادة عضوية أو كائنا حيا بتأثير الظروف الخارجية الملائمة . ولقد قالوا إذا كان من الممكن أن تؤثر البيئة فى الأنواع الحيوانية بتحويل بعضها إلى بعض ، وأن تحول المواد اللاعضوية مواد عضوية فمن الممكن من باب أولى أن تؤثر فى نمو الأفراد إلى حد أبعد . ولا يزال فريق من العلماء يعتقدون أن لون البشرة الانسانية يرجع إلى مقدار شدة الضوء ، وأن طول القامة أو قصرها يتوقف على مقدار كمية الطعام وكيفيته ، وأن نوع الجنين إن ذكراً أو أنثى يتحدد بطعام الأم ودرجة حرارة الرحم ، وأن التربية تحدد العقلية فتزيد فيها أو تنقص منها ، وأن جميع مميزات الأفراد على العموم ترجع إلى اختلاف البيئات .

☆☆☆

وقد كان تيار الفلسفة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر متجها نحو هذه العقيدة ، مائلا إلى القول بأن الانسان ابن عاداته ، خاضع لبيئته وتربيته ، وأن الناس يولدون سواسية وإنما يختلف بعضهم عن بعض باختلاف الظروف والفرص التى تصادفهم فى حياتهم .

ويؤخذ من بعض أقوال الغزالى أنه كان يميل إلى هذا الرأى ؛ إذ أنه يصف الطفل بأنه جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش عليه » .

وقد عقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا خاصاً يبرهن فيه على صحة هذه النظرية .

ويبدأ ديكارت مقالته الشهيرة عن « الطريقة » بكلام معناه : « أن الفكر الجيد أكثر الأشياء توزعاً على الناس توزعا عادلا ، وأن اختلافنا فى الرأى ليس ناشئا عن أن بعضنا منح من العقل نصيبا أوفر من نصيب البعض الآخر ، وإنما ينشأ هذا الاختلاف عن أننا نسلك بأفكارنا مسالك مختلفة ، ولا نتجه بأفكارنا نحو غايات متحدة » .

ويعتبر روسو وجون لك وآدم سمث من المذيعين لهذا الرأى ، ولم يكن اعلان استقلال الولايات المتحدة الا ممثلا « لروح العصر » الذى أعلن فيه ، فلقد كانت الفكرة السائدة فى ذلك الوقت « أن جميع الناس فى الخلقة والاستعدادات

سواسية » وكانت هذه الفكرة دائما أساس الديمقراطية ، والمبدأ الأساسى لانشاء الحكومات الشعبية الممثلة للرعية ، كما كانت الحافز الأكبر لوجوب نشر التربية بين طبقات الناس على السواء ، ولدعوة الناس جميعا ـ من الملوك إلى الصعاليك ـ إلى اتباع دين من الأديان .

ولم يكن يفهم من معنى الحضارة إلا تحسين البيئة ، ولا من التقدم فى الحضارة إلا التقدم فى إصلاح البيئة .

ولم يزل الناس يرفعون من شأن البيئة ويهملون أمر الوراثة إلى أن جاء العصر الحاضر بخيره وشره ، وانتشرت العلوم الاجتماعية ، واتسع نطاق المباحث والتجارب الانسانية ، ودرس العلماء أحوال الأسرات وتاريخ حياتها وحياة الأفراد المنتمين إلى كل منها . وبهذه الدراسات المختلفة أدرك علماء العصر أهمية الوراثة ومنزلتها وآثارها فى نمو الأفراد والنوع معا ، ولم يَعُد أحد يعتقد اعتقادا جديا أن من المستطاع تحويل المادة اللاعضوية مادة حية باحداث تغيرات فى البيئة .

وبكثرة تجارب البيولوجية فى السنوات الأخيرة أخذت عقيدة المتقدمين فى منزلة البيئة فى التدهور ، وصار العلماء يقرنون البيئة بالوراثة فى هذا الصدد ، فاعترفوا بمنزلة كل منهما فى نمو الأفراد والأنواع وتوصلوا إلى القول الفصل فى ذلك وهو : « أن الوراثة المسئولة عن القوى الكامنة فى الخلايا التناسلية ، وأن البيئة مسئولة عن اخراج تلك القوى من عالم القوة إلى عالم الفعل ، ثم تنميتها إلى الحد الذى تصل إليه من حدود النمو » .

وإذاً ليس من المعاصرين من ينكر أثر البيئة فى تكييف قوى الأفراد ؛ وربما كانت حالة الولد الذئبى أكبر برهان على ماللبيئة من أثر فى التربية

وبيان ذلك أن فى المقاطعات الشمالية الغربية من بلاد الهند غابات تأوى إليها الذئاب ، وهذه الذئاب تغير على السكان المجاورين لهذه الغابات فتختطف أولادهم ، وتقضى على حياتهم ، ولكنها مع ذلك تشفق على بعضهم وتبقى عليهم وتتعهدهم كما تتعهد أولادها .

ولما عرف بعض محبى الانسانية الأماكن التى تأوى إليها هذه الذئاب خاطروا بأنفسهم ، وذهبوا اليها رغبة فى إنقاذ مايمكن إنقاذه من هؤلاء الأولاد . هناك عثروا على بعض الأولاد وهم على قيد الحياة فانتشلوهم ، واختطفوهم اختطافا من أيدى هذه الذئاب بعد الجهاد العنيف . ويسمى هؤلاء المساكين بالأولاد الوحشيين (Wild Boys) أو أولاد الذئاب (Wolf Boys) .

ومن المشاهد أن هؤلاء الأولاد يسلكون مسلك الذئاب،فيقلدونها فى أصواتها، ويأكلون كما تأكل الحيوانات المفترسة آكلة اللحوم ، ويمزقون ملابسهم قطعا ، ويميلون إلى العزلة والالتجاء إلى الأماكن المظلمة ، ويربضون ربضة الذئاب سواء بسواء . وقد حاول الناس أن يربوهم أو يعلموهم أن يتكلموا، أو يعملوا كما يعمل بنو الانسان ، ويعودوهم الحياة الإنسانية ، فلم يفلحوا .

وكل ماأمكن عمله معهم هو تعويدهم الطاعة ، وتعليمهم كيف يحدثون أصواتا خاصة ، يعبرون بها عن أغراضهم ، أو عما يشعرون به من ألم أو سرور أو راحة أو غضب .

ولقد ذكر الأستاذ **فلانتين بول** صاحب كتاب « الحياة فى أدغال الهند » (١) فى وصف أحد هؤلاء الأولاد المسمى سنيخار (الذى عثر عليه بعض الهنود فى كهف فحملوه إلى أحد ملاجىء الأيتام فى ٤ من فبراير سنة ١٨٦٧) ما يأتى :

لقد كانت تظهر عليه علامات العته ، التى يشاهدها الإنسان فى المعتوهين العاديين، كانخفاض الجبهة . والقلق والاضطراب فى الحركات والسكنات . وكثيرا ما كان يكشر عن أنيابه كما يفعل الحيوان المفترس ، لا كما يفعل الإنسان عند الغضب ، وكان أثر ذلك يشتد إذا صحب الكشر حركات عصبية فى الفك الأسفل . وكان يعتمد فى تعرف الأشياء على حاسة الشم أكثر من اعتماده على حاسة الذوق ، مشابها فى ذلك الوحوش من الحيوان . ولم يكن من الممكن استمراره فى أى عمل بدون مراقبة شديدة مستمرة ؛ فكان مثلا يحمل سلة ، ولا يزال يحملها مادام

(١) Jungle Life in India by Prof .V. Ball.

هناك من يراقبه ، فإذا انتهت المراقبة أسقط السلة من يده بلا ريث . وكان طول ذراعه نحو ٧٤ سنتيمترا مما يدل على أنه كان يمشى على أربع . ولم يستطع المشى على رجليه إلا بعد بضعة أشهر . وكان إذا مشى يقف وقفات فجائية ، ويسير سير المتعثر بأذياله . وكان دائما يحرك رأسه بسرعة يمنة ويسرة ، ويحدق بنظره ، كأنما يترقب هجمة عدو مخيف .

وقد ظلت هذه حاله حتى قضى نحبه سنة ١٨٩٦ - هذا وقد قام علماء البيولوجيا بتجارب مختلفة على الخلايا التناسلية قبل التلقيح وبعده ، وعلى أجنة لحيوانات مختلفة فى أدوار نموها وبعدها ، فوصلوا إلى نتائج خطيرة ، كلها تشهد بما للبيئة من آثار فى حال الحيوان قوة وضعفا .

وقد ذكر الأستاذ « كُنْكاين » فى كتابه القيم المسمى « الوراثة والبيئة (١) » أمثلة كثيرة لما تقدم ، وقال فى أثناء كلامه على المؤثرات الصناعية التى تؤثر فى خلايا التناسل أو فى الجنين : « إن العلماء باتباعهم الطرق المختلفة ، وباحداث تغيرات فى البيئة الخارجية ، استطاعوا أن يصلوا إلى نتائج غريبة ، منها : تكون حيوانات يصير ظاهرها باطنها ، وداخلها خارجها ، وجانبها الأيسر جانبها الأيمن ، وحيوانات أخرى ينقصها الرأس ، أو الجهاز العصبى ، أو العضلات ، أو العمود الفقرى ، وحيوانات أعضاؤها فى غير مواضعها الطبيعية .

وقد أمكن -- فيما أمكن -- الحصول على أجنة مزدوجة ، وأخرى جزئية غير كاملة ، وعلى أقزام قصار قصرا ظاهرا ، أو على عمالقة طوال طولا مفرطا » .

البيئة الطبيعية والكائن الحى :

إن هذه التغيرات التى ذكرناها آنفا ترجع إلى مؤثرات مصطنعة مؤقتة ، أما تلك التى ترجع إلى مؤثرات طبيعية دائمة فكثيرة محسوسة مشاهدة ، وكلها ترجع إلى قانون يسمى قانون البيئة ، ومؤداه : « أن الكائن الحى لابد أن يعد نفسه للبقاء فى بيئته ، أى أنه لابد أن يعدل من سلوكه وأحواله العامة إذا تغيرت بيئته ، كى يقدر على الحياة فيها » .

(١) Heredity and Environment, by E. G. Conclin.

وهذا التعديل أو التغيير يحصل بطريقة سماها دارون : « المجاهدة فى سبيل الحياة » أو مايسمى أحيانا : « تنازع البقاء » (Struggle for Existence.)

وفى هذا المعنى يقول هربرت سبنسر : « إن معنى الحياة تغير مستمر فى العلاقات والأحوال الداخلية ، لمناسبة العلاقات والأحوال الخارجية » ؛ أى أن حياة الكائن الحى لا تكون إلا بوجود رابطة تتفق مع أحوال ذلك الكائن الداخلية وأحواله الخارجية ، أو بعبارة أوضح : لابد أن يكون الكائن الحى مستعدا لمكافحة الأحوال الخارجية كى يستطيع البقاء فى بيئته الخارجية ، لأنه ـ إذا لم يستطع مقاومة تلك الأحوال ، ولم يتهيأ له تغييرها ـ لامحالة يضعف ، ثم ينقرض فى سبيل تنازع البقاء .

ومن هنا يتبين لك أن هناك علاقة بين الكائن الحى وبيئته ؛ فهى تؤثر فيه ، وقد يؤثر هو فيها ، وتكون النتيجة أن يحصل بينهما تماثل وتشابه .

البيئة ومذهب النشوء :

وهذا القانون السابق الذى قد يسمى قانون الإعداد (Law of Adaptation) أى إعداد الكائن الحى لبيئته ، هو القانون المسئول فى رأى دارون وأشياعه عن النشوء والارتقاء فى تكوين الكائن الحى ، وفى تنوع الأنواع ؛ فانهؤلاء يقولون : إن المادة الحية كانت فى أول الأمر بسيطة تكاد تكون مؤلفة من نوع واحد ، له خاصة واحدة واحدة هى الحياة فقط ، وبمرور الزمن تغيرت هذه المادة بتأثير البيئة ، وكلما زاد تأثير البيئة فى تلك المادة زاد تغيرها وازدادت تعقدا وتركبا ، فحدث مايسمى فى عرف البيولوجيين بالتخصص أو التميز (Differentiation) أى أن كل جزء من أجزاء تلك المادة الحية المركبة يأخذ فى أن يتميز عن غيره ، ويتخصص بعمل خاص ، بالإضافة إلى كونه جزءا لايتجزأ من ذلك الكل الذى هو الكائن الحى . أما الأجزاء الزائدة على حاجة الكائن الحى أو المضرة بوجوده فانها تضعف ثم تنقرض وفق قانون : « الزوال أو الانقراض » (Extirminatin).

أثر الكائن الحى فى بيئته :

قلنا إن هناك علاقة مزدوجة بين الكائن الحى وبيئته . وقد تبين لك أثر البيئة فى الكائن الحى ، أما العكس — أى أثر الكائن الحى فى البيئة — فمحدود جداً بالنسبه للنبات وغير الانسان من أنواع الحيوان . مثال ذلك فى النبات : أن يخرج الأكسوجين بتأثير الخضير [1] فيلطف الهواء ، ويقلل ما فيه من ثانى أوكسيد الكربون ، وفى الحيوان : أن تبنى الطيور أوكارها ، وتختار الأسماك أوطانها ، وأن تخرج بعض الحيوانات والحشرات روائح كريهة تعكر صفو الجو .

أما تأثير الانسان فى بيئته فظاهر ، إذ هو الذى سخر لنفسه البيئة ، وأخضعها لارادته ، وجعلها طوع مشيئته . فشق فى الجبال طرقا ، وركب متن الهواء ، وغاص فى الماء ، وتسرب إلى مسابح الأسماك ، وانتفع بالطبيعة وما فيها من عناصر ، وتجلت إرادته وسيطرته على بيئته فى كل ماترى من مظاهر الحضارة التى لا تحصى ، ومن ذا الذى يعرف مدى هذه الارادة البشرية ، أو يستطيع أن يتنبأ بمصير هذه المساعى الانسانية ؟ .

مشابهة الحيوان لبيئته :

مما لا شك فيه إذاً أن الكائن الحى يؤثر فى بيئته ، كما أنه من البين أنها تؤثر فيه إلى حد أبعد . وقد قلنا إنه ينشأ عن ذلك التأثير المزدوج حدوث توافق بين الطرفين قد يؤدى إلى مشابهة الكائن الحى لبيئته ، وهذه الحقيقة أشد ظهورا فى أنواع الحيوان الدنيا .

انظر إلى بعض الطيور تجد لون أجنحتها يشبه لون أوكارها . ثم اعتبر ذلك فى بعض الحيوانات تجد أن لها فراء يتغير لونها بتغير لون الجو ؛ فالحيوانات القطبية لها فراء بيض ، وبعض الأرانب التى تسكن الجهات الجليدية يكون لونها فى الصيف غيره فى الشتاء . ويعلل العلماء ذلك بأن الحيوانات الضعيفة لكى تعيش

(١) الخضير : لفظ وضعه مجمع اللغة العربية الملكى للمادة الخضراء فى النبات التى تسمى (Chlorophyl)

هادئة مطمئنة تتلون بلون بيئتها ، فيخفى موضعها على أعدائها ، ويشكل عليها أمرها فتكفى شرها . ولذا يسمون هذه المشابهة «بالمشابهة الدفاعية» (Protective Mimicry) إذ بها يدافع الحيوان عن نفسه دفاعا سلبيا سلبيا .

ومشابهة الكائن الحى لبيئته بالطريقة التى شرحناها تضعف كلما ارتقت مرتبة الحيوان حتى نصل إلى مرتبة الانسان فلا نجد مشابهة ظاهرة بين بنى الانسان وبين بيئتهم إلى الحد المذكور . غير أننا نشاهد ما للبيئة الطبيعية من أثار فى جسم الانسان وعقله وخلقه ؛ فأهل البدو وسكان الجبال وسواحل البحار أقرب إلى الشجاعة من غيرهم ، وسكان المناطق الحارة أقرب إلى الكسل والتهيج الانفعالى من سكان المناطق المعتدلة والجهات الشمالية الباردة . وللضوء والطعام وهواء لمكان وسعته المكان وطبيعة الأرض والموقع الجغرافى آثار فعالة فى سلوك الانسان. ولا داعى للاطالة فى بيان تلك الآثار التى أصبحت معروفة لا يمكن إنكارها ولا ينبغى لأحد أن يجهلها .

عناصر البيئة الاجتماعية :

كما يتأثر الانسان ببيئته الطبيعية كذلك يتأثر ببيئته الاجتماعية التى تشمل البيت والمدرسة ومحل العمل و المجتمعات العامة كالمساجد والكنائس والحدائق والأندية والمقاهى ودور اللهو واللعب . والعوامل الاجتماعية التى تؤثر فى أخلاق الانسان وسلوكه هى الآداب المنزلية وتقاليد الأسرة ، والنظم والقوانين والآداب والعلوم المدرسية ، وقوانين المهنة ونظم الزمالة ، والقوانين الحكومية ، والدين وتعاليمه .

فالمنزل هو الركن الأول للحضارة ، ونواة المجتمع الأصلية التى تظهر فيها المواهب الخلقية والعقلية والاستعدادات الجسمية بصورة مصغرة ، تلك المواهب والاستعدادات التى تنمو وتترعرع ويطيب زرعها وينضج ثمرها فى مستقبل الحياة

والمدرسة هى فى الحقيقة بيت ثان واسع النطاق ، وهى مثله بيئة من البيئات الاجتماعية ، غير أنها خاضعة لأنظمة متشعبة ، وقواعد اجتماعية متعددة تحدد علاقة الطفل أو التلميذ أو الطالب بغيره من أمثاله وبأمثاله وبأساتيذه

وبرئيس الهيئة المسئول عن نظامها مباشرة. وفى المدرسة يقوم المدرس مقام الوالد فى رعاية شئون تلامذته.

والمهنة هى الميدان الكبير الذى يظهر فيه المرء، وتعطى فيه الفرصة لمواهبه التى اكتسبها منذ الصغر ونماها بالتعلم والتجارب، ويطلق لها العنان كى تعمل وتؤتى أكلها، وتؤدى قسطها الواجب عليها نحو صاحبها ونحو بنى جنسه.

وإن المرء لا يستطيع أن يقوم بمهنته حق القيام إلا إذا كانت هناك حكومة تحميه وتمكنه من أداء الواجب عليه وهو آمن مطمئن.

والعامل المسيطر على هذه العوامل الأربعة هو الدين الذى هو الرقيب الأكبر الذى يدلنا على العلاقة الصحيحة التى يجب أن تكون بين الانسان وبنى جنسه، وبين الخلق وخالقهم.

وكل من هذه العوامل يقوى نوعا من أنواع الروابط الاجتماعية التى تربط الانسان بمن حوله من مهده إلى لحده. وهى على الترتيب السابق فى التأثير.

ففى البيت تظهر علاقة الانسان بأبيه وأمه وإخوته وبقية أفراد أسرته. وفى المدرسة تتسع دائرة حياته الاجتماعية، وتظهر روابط كثيرة بينه وبين من معه، أهمها رابطته بأساتذته، ورابطته باخوانه التلاميذ بمدرسته أو بغيرها، ورابطته برئيس مدرسته. والمهنة تسبب للانسان علاقات جديدة، وتربطه بأشخاص آخرين، هم إخوانه فى المهنة وأعوانه على اتقانها وإعلاء شأنها. والحكومة تحدد علاقة الانسان بالمجتمع الذى يعيش فيه على العموم سواء أكان بالبيت أم بالمدرسة أم خارجهما.

أما الدين فانه يبين علاقة الانسان بسكان هذا العالم وواجبه نحوهم، كما أنه يبين علاقته بخالقه والواجب عليه نحوه. وهذه أكبر العلاقات وأوسعها نطاقا وأعظمها منزلة.

على أن لكل من هذه العوامل ميزة خاصة. وفكرة أساسية عليها يرتكز، وهى التى تبرر وجوده وتعد مقياساً لمقدار تقدمه فى عمله ونجاحه فى العمل على ترقية شؤون الفرد وتقدم الحياة العامة.

فعماد الحياة المنزلية الطاعة، التى يجب أن يسعى المربى لجعلها عادة من عادات

الطفل بالطرق المشروعة ، وطاعة الطفل لولى أمره المحب له ، الذى ينتهج سبيل الصواب فى تولى شؤونه ضرورية جداً لبناء المجتمع ، لازمة جدا لتأسيس الحياة الاجتماعية الخلقية على أساس متين ، إذ لولا الطاعة المعقولة ما قامت المدنية ، وما سار المجتمع الانسانى فى طريق التقدم . فأكبر مساعدة يقدمها البيت للمجتمع الانسانى العام هى أخذ الناشئين بالطاعة ، التى هى ركن الفضيلة الركين ، وأساسها المتين .

والعمل الأساسى الذى تقوم به المدرسة هو التنمية التى بدونها لا يكون لوجود المدرسة أى مبرر ، ولا لتأسيسها أى فائدة . ويقصد بالتنمية :

(١) تقوية الجسم بحيث يكون خاضعاً لاشارة العقل معبرا عن إرادته .

(٢) تربية العقل بحيث يكون المسيطر على الجسم المسير له ، الضابط لحركاته وسكناته ، والمصدر الأساس للرغبات القويمة والميول الرشيدة .

(٣) تقويم الأخلاق وجعلها بحيث توجه الجسم والعقل إلى النواحى الصالحة .

والمبدأ الأساسى الذى لا تنهض المهنة بدونه هو مبدأ التعاون والتآزر ، الذى لولاه لفقد الانسان الركن الأساسى للمدنية ، بل لفقد الأساس نفسه ، وما كانت له منزلة ولا قيمة تذكر فى هذه الحياة ، فالانسان المتمدين عاجز عن أداء كل ما يحتاج اليه ، والقيام بكل ما يتطلبه وتتطلبه حياته المتشعبة النواحى ، المتعددة الأغراض ، ولا يستطيع كل فرد أن ينتفع بكل ما تخرجه يده ، بل إنه محتاج إلى مساعدة غيره . فحاجة الانسان إلى غيره مزدوجة : إذ أنه فى حاجة إلى مساعدة الناس ، من حيث كونه مستهلكا ومن حيث كونه منتجا مخرجا . وكل إنسان فى هذه الحياة منتج ومستهلك ، ومعط وآخذ وخادم ومخدوم . وهذا الأصل الذى يسمى أحيانا توزيع الأعمال » (Division of Labour) هو الأصل الأساسى للعمران ، والسبب الرئيسى فى تقدم المجتمع ونظامه . والغاية التى يجب أن تسعى نحوها الحكومة هى انتشار العدل بين الرعية ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وإثابة المحسن ، ومعاقبة المسىء ، والأخذ من الظالم للمظلوم ، ومن القوى للضعيف ، حتى يؤدى كل

واجباته ، ويتمتع بحقوقه . فالعدل هو أساس التشريع ، ووضع القوانين ، وإقامتها بين الناس هو أكبر داع لوجود الحكومات .

والفكرة المركزية التى يدور حولها الدين هى الخضوع لارادة الله تعالى التى هى فوق كل إرادة فى جميع الظروف والأحوال ، تلك الارادة العليا التى تحدد علاقة المرء بغيره من أبناء جنسه وبخالقه الأكبر جل وعلا ، إرادة فوق القانون البشرى تأمر الناس أن يعامل بعضهم بعضا بالرأفة والمحبة والعطف ، أو بالعدل على الأقل ، وتدعوهم إلى العمل للدنيا والآخرة سراً وعلانية ، وتحثهم على خوف الله قبل خوف القانون البشرى ، وعلى النظر إلى الحياة المادية البحت نظرة احتقار وازدراء ، حتى لا يتهافتوا عليها ولا يتغاضوا عن الفضيلة فى سبيل الاستمتاع بها .

حامد عبد القادر

— ١٣ —

قال رجل : يا رسول الله ، إن لى جارا يؤذينى ؛ فقال : انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق . فانطلق فأخرج متاعه ، فاجتمع الناس عليه فقالوا : ما شأنك ؟ قال : لى جار يؤذينى ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق . فجعلوا يقولون : اللهم العنه ! اللهم أخزه ! فبلغه فأتاه فقال : ارجع إلى منزلك فوالله لا أوذيك .

عجائب الوراثة

« الوراثة المتحدة الأزمنة » و « الوراثة بالتأثير » و « وراثة الصفات العارضة وقت العلوق » (١)

بقلم الأستاذ على عبد الواحد وافى
أستاذ التربية وعلم النفس بدار العلوم العليا وأقسام التخصص بالأزهر

من الوراثة أنواع تبدو شاذة غريبة لأول وهلة . ولكن غرابتها لاتلبث أن تزول إذا ما بُحثت بحثا عميقا على ضوء النظريات الحديثة للوراثة . ومن أشهر هذه الأنواع : «الوراثة المتحدة الأزمنة» و « الوراثة بالتأثير » و « وراثة الصفات العارضة وقت العلوق » . وسنتناول فيما يلى كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة على حدة فنصفه ، ونوضح مافيه من غرابة فى الظاهر ، ثم نبين كيف يمكن رجعه إلى النواميس العامة التى يخضع لها انتقال الصفات من الأصول إلى الفروع .

٭٭٭

الوراثة المتحدة الأزمنة : قد تظهر لدى الفرع فى مرحلة من مراحل حياته صفة وراثية جسمية أو نفسية ،كانت قد ظهرت عند أصله فى سن مماثلة لسن ظهورها لديه . وقد أطلق العلماء على هذا النوع من الانتقال اسم : « الوراثة المتحدة الأزمنة » .

وأ كثر ماتحدث هذه الظاهرة فى الصفات المرَضِيَّة . وقد كتب فيه كثير من العلماء وبخاصة دارون وهيكيل ، وذكروا لها عدة شواهد نجتزىء منها بما يلى :

---

(١) قد تعرضت بايجاز للنوعين الأولين فى كتابى : « فى التربية » (الطبعة الثانيه ، صفحات ١٣٨ — ١٤٤) . وقد زدتهما هنا بسطا وتوضيحا وأضفت اليهما النوع الثالث .

قرر العلامة ريبو أن « داء الرقص (La Chorée) يصيب الفرد عادة فى الطفولة والسل فى المرحلة الوسطى من الحياة ، والنقرس (La Joutte) فى الشيخوخة ، وأن هذه الأدواء إذا أصيب بها الأصول كثيرا ما تصيب الفروع بطريق الوراثة ، وتصيبهم عند ما يبلغون نفس السن التى أصيب بها أصولهم عند ما بلغوها .

وقرر الأستاذ « لوكاس Lucas » أن بعض الأمراض المخية كداء النقطة (Apoplexie) والصرع (Epilepsie) تظهر لدى الفروع وراثيا فى نفس السن التى ظهرت فيها لدى الأصول .

وروى الأستاذ « سد جويك Sedgwick » أن خنصر رجل قد أخذ لسبب مجهول ، عند بلوغه سنا معينة ينحنى إلى باطن كفه ، وأن هذه الظاهرة نفسها قد بدت عند ولديه فى نفس السن التى بدت فيها عنده .

وروى « داروين » أن شخصا قد أصيب بالعمى لسبب غير معلوم وسنه سبع عشرة سنة ، فأصيب به سبعة وثلاثون فرداً من أولاده وأحفاده فى نفس السن التى أصيب فيها به ، وأن آخر قد أصيب بالعاهة نفسها وسنه إحدى وعشرون سنة فأصيب بها أربعة من أولاده وسنهم إحدى وعشرون .

وروى « داروين » كذلك أن أخوين قد أصيبا بالصمم وسنهما أربعون سنة ، وظهر أن أباهما وجدهما قد أصيبا بالعاهة نفسها وسن كل منهما أربعون .

وروى الأستاذ « سكيرول Squirol » عدة حالات ظهرت فيها بعض أمراض عصبية عند الفروع فى نفس السن التى ظهرت فيها عنــــد أصولهم . ومن هذه الحالات أن رجلا قد انتحر وهو فى أواخر العقد الخامس من عمره ، وظهر أن أباه وجده قد انتحرا فى أواخر العقد الخامس من عمريهما ؛ وأن أسرة قد أصيب جميع أفرادها بالجنون فى سن الأربعين .

واستنبط الأستاذ « ريبو » من أمثلة كثيرة تتعلق بانتحار الفروع فى نفس السن التى انتحرت فيها أصولهم أن « الوراثة المتحدة الأزمنة » تكاد تكون مطردة فى انتقال الميل إلى الانتحار من الأصول إلى الفروع .

وروى الأستاذ « مورو Moreaw » فى كتابه : « علم النفس المرَضى » أن رجلا

قد ذعر من الثورة الفرنسية (ثورة سنة ١٧٨٩) فأصيب بجنون قضى عليه أن يحبس نفسه فى حجرة من منزله ، وظل كذلك مدة عشر سنين ، وأن بنته عند ما بلغت السن التى أصيب فيها أبوها بهذا المرض أصيبت به كذلك وحبست نفسها فى حجرتها ، بدون أن يكون هناك أى سبب خارجى يحملها على ذلك .

ومن هذا النوع ظاهرة انتقال الصلع بطريق الوراثة فى الأسرات المصرية وغيرها . فقد لوحظ أن الفروع يصابون به فى نفس السن التى أصاب فيها الأصول .

وهذا النوع من الوراثة يبدو غريبا . فإن الصفات التى تنتقل بوساطته كثيرا ما تكون قد ظهرت عند الأصل فى وقت لاحق للوقت الذى ولد فيه الفرع . ومن الواضح أن سبب الوراثة ينحصر فى المادة المكوِّنة للجنين التى تتألف من البيضة واللقاح . فكيف يعقل إذن أن يرث الطفل صفة لم تكن موجودة فى أحد أصليه وقت أن تكوّن من ماءيهما ؟ ! . وما السبب الذى اقتضى أن تظهر هذه الصفة عنده فى نفس السن التى ظهرت فيها عند أحد أصليه ؟ ! .

ولكننا إذا تأملنا مليّا تبين لنا أن هذا النوع من الوراثة لا يختلف مطلقا عن الأنواع العادية . وذلك أنه إذا أصيب شخص فى سن ما بعاهة جسمية أو بمرض عقلى من غير أن يكون ثمة سبب خارجى يترتب على مثله إصابة كهذه ، فما ذاك إلا لأن تركيبه الداخلى الأصلى ، أى تكوينه الطبيعى ، كان يقتضى أن يصاب بتلك العاهة أو بذلك المرض بعد مرور زمن معين : قد كان لديه مثلا جراثيم مَرَضية كامنة ينجم عنها بعد مرور زمن معين العمى ، أو الصمم ، أو انحناء بعض الأصابع إلى باطن الكف ، أو الصلع ، وما إلى ذلك من العاهات الجسمية ؛ أو كان فيه استعداد عصبى كامن ينجم عنه مثلا أن يصاب بعد كذا من السنين بنوع خاص من الجنون يحمله على عدم مغادرة حجرته أو على الانتحار . . . وهلم جرا . — فاذا ولد لهذا الشخص ولد انتقل إليه ، فى المادة الحيوية المؤلفة أجزاؤه منها ، ذلك التكوين الطبيعى الخاص الذى كان كامنا فى أصله ، والذى يترتب على

انتقاله إليه بطريق الوراثة أن يصاب هو بالعاهة أو بالمرض بعد مرور نفس الزمن الذى أصيب أصله بواحد منهما بعد مروره .

وهذه الحالات تبين لنا مقدار أثر الوراثة ودقة قوانينها، وأن ويلاتها تحيق بكثير من الناس من حيث لايشعرون .

هذا . وليست « الوراثة المتحدة الأزمنة » مقصورة على الصفات المرضية، بل تظهر كذلك فى كثير من الصفات الصالحة . فظهور الأسنان اللبنية فى الشهر السابع من العمر، وسقوط هذه الأسنان فى نهاية السنة السادسة ، والإثغار (ظهور الأسنان الدائمة) فى السنة السابعة ،وظهور كل من القواطع والأنياب والأضراس الصغيرة والكبيرة والنواجذ فى مواعيدها المعهودة ، وظهور شعر اللحية والشارب والعانة فى دور المراهقة ، وميل الطفل إلى المشى وإلى تقليد الأصوات اللغوية ، وإلى تحطيم الأشياء وتركيبها عند بلوغ السنة الثانية ، وكلفه فى السنة الثالثة من عمره وفى السنين التى تليها باقتناء ما يعثر عليه من صغير الهنات ، وبسؤال الكبار عما يجهله من عالمه الحسى والمعنوى ، ورغبته فى الاختلاط الجنسى فى دور البلوغ ، وظهور كل غريزة من غرائزه فى إبانها المعروف . . . ، وميل أفراخ الطيور إلى الطيران عند ما تنمو أجنحتها ، وإلى بناء أعشاشها عند ما تبلغ سنا معينة . . . . . كل أولئك وما إليه من الأمور غير المكتسبة التى تظهر متقطعة فى مراحل الطفولة وبعدها يصح اعتباره من ظواهر « الوراثة المتحدة الأزمنة » لظهورها عند الفروع فى نفس السن التى سبق أن ظهرت فيها عند أصولهم .

ولا تتحقق « الوراثة المتحدة الأزمنة » فى الصفات التى يرثها الفرع عن أصليه المباشرين فحسب (الوراثة الخاصة المباشرة) ، بل تتحقق كذلك فيما يرثه عن أجداده وجداته من الدرجة الاولى أو من الدرجات التى تليها من الصفات التى لم تظهر فى أبويه المباشرين (الوراثة الخاصة غير المباشرة) ، وتتحقق كذلك فيما يرثه عن الفصيلة الحيوانية أو النباتية التى ينتمى إليها من الصفات المميزة لنوعه (الوراثة النوعية) . أما فيما يتعلق بالصفات التى تنتقل إليه عن أجداده

وجداته . فقد ثبت أن كثيرا منها يظهر عنده فى نفس السن التى ظهرت فيها عندهم ، والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر . وأما فيما يتعلق بالصفات التى يرثها عن فصيلته فلا أدل على خضوعها لقانون « الوراثة المتحدة الأزمنة » من نظرية هيكيل (١) أو « نظرية التلخيص العام » التى تقرر أن المراحل التى يجتازها الكائن الحى فى أى فرع من فروع حياته فى أثناء طفولته تمثل بشكل مختصر ومرتب نفس المراحل التى اجتازتها فصيلته فى أدوارها المختلفة . فحالته العامة فى أول مرحلة من مراحل حياته تمثل فى جملتها الحال التى كانت عليها فصيلته فى دورها الأول ؛ وصفاته فى المرحلة الثانية تشبه من وجوه كثيرة صفات فصيلته فى دورها الثانى . . . وهكذا دواليك ، فلا ينتهى من طفولته حتى يكون قد فرغ من « تلخيص » المراحل التى اجتازها نوعه . — ومن الواضح أن سير الكائن فى أثناء ارتقائه من الطفولة إلى ما بعدها على غرار ما سارت عليه فصيلته ، ليس إلا نتيجة لازمة لما ورثه عن نوعه من صفات . فاذا ثبت من « قانون هيكيل » السابق ذكره أن هذه الصفات النوعية تظهر فى الكائن مرتبة حسب ترتيب ظهورها فى فصيلته ، فلا ريب إذن فى أن « الوراثة المتحدة الأزمنة » التى نحن بصدد بحثها ليست مقصورة على ما ينقل إلى الكائن عن أصوله المباشرة وغير المباشرة ، بل تتحقق كذلك فيما ينقل إليه عن نوعه (٢) .

***

الوراثة بالتأثير : وهى أن ينتقل إلى الطفل بعض صفات من ذكر قد لقح أمه وولدت منه قبل أن تتصل بأبيه .

وقد لوحظت حالات كثيرة من هذا النوع من الوراثة عند بعض الحيوانات

---

(١) هيكيل (Hoeckel) من أشهر علماء « البيولوجيا » الألمانيين ومن أظهر المؤسسين لنظرية النشوء والارتقاء .

(٢) غير أن تسميتها فى حال تحققها فى الصفات النوعية « بالوراثة المتجانسة المراحل » أوضح من تسميتها « بالوراثة المتحدة الأزمنة » .

الراقية وعند الانسان . وقد كتب فيها كثير من قدامى المؤلفين على الأخص مثل فان هلمونت (Van Helmonte) وهالير (Haller) وبورداش (Burdach) وكلود برنار (Cl. Bernard) وهوزو(Houzeaw) وذكروا لها شواهد عديدة نجتزىء منها بما يلي :

قرر بورداش فى كتابه : « علم النفس » أنه إذا لقح حمار فرسا فنتجت بغلا ثم لقحها بعد ذلك حصان فانها تنتج مهرا به بعض صفات من فصيلة الحمار .

وروى معظم المؤلفين فى هذا النوع من الوراثة أن فرساً إنكليزية قد علقت سنة ١٨١٥ من حمار وحشى فجاءت منه ببغل لون جلده يشبه لون الحمار الوحشى ولم تر بعد ذلك هذا الحمار . وفى سنة ١٨١٧ لقحها جواد عربى فجاءت منه بمهر لون جلده يشبه تماما لون الحمار الوحشى الذى كان قد لقحها سنة ١٨١٥ : وتكررت هذه الظاهرة مع هذه الفرس سنة ١٨١٨ و سنة ١٨٢٣ .

ورووا كذلك أن خنزيراً مستأنسة قد علقت من خنزير وحشى فجاءت منه بصغار فيها لون أبيها ، وبعد موت هذا الخنزير الوحشى بزمن طويل لقحها خنزير مستأنس فجاء من بين صغارها واحد يشبه لونه كل الشبه لون الخنزير الوحشى . وتكررت هذه الظاهرة عند هذه الأنثى مرة أخرى .

ورووا أيضا أن كلبة قد لقحها كلب من غير فصيلتها فولدت منه ، ولم يلقحها بعد ذلك إلا كلاب من فصيلتها ، ولكنه كان يوجد من بين الأجراء التى تلدها كل مرة جرو واحد به صفات الكلب الأجنبى عن فصيلتها الذى كان قد لقحها أولا

وذكر « هوزو » عدة حالات من هذا النوع لاحظها عند طائفة كبيرة من الحيوانات المنزلية .

وذكر « بورداش » : أن الطفل الانسانى قد يشبه أحيانا زوج أمه الأول ، الذى قد يكون متوفى من منذ زمن طويل ، أكثر مما يشبه أباه » ، ولكنه لم يورد أى مثال من هذا القبيل .

وروى « ميشليه Michelet » فى الجزء الثالث عشر من كتابه : « تاريخ فرنسا » : « أن مدام دومنتسبان قد جاءت بولد من زوجها دومنتسبان ثم صارت

صفية للويس الرابع عشر وجاء منها بلويس - أوجيست (الملقب بالدوق دومين ، وقد ادعاه لويس الرابع عشر ، الذى كان يشبه فى كل صفاته النفسية زوج أمه الأول (مسيو دومنتسبان) » .

ولم نعثر فيما يتعلق بانتقال الصفات النفسية عن طريق « الوراثة بالتأثير » على غير هذا المثال الذى ذكره « ميشليه » ؛ ومثال واحد لا يكفى لإثبات قاعدة ؛ على أنه غير موثوق بصحته ومن الممكن تأويله تأويلا آخر يجعله عديم الدلالة فى هذه الناحية . وهذا ما دعا العلامة ريبو إلى عدم الاعتراف « بالوراثة بالتأثير » فى الصفات النفسية .

والوراثة بالتأثير من أشد أنواع الوراثة شذوذاً ، فان الصفات التى تنتقل بوساطتها إلى الطفل هى صفات كائن لم يتدخل مطلقا فى تكوينه وإنما اشترك فى تكوين أخ له من قبل ، ومن الواضح أن سبب الوراثة ينحصر فى المادة المكونة للجنين التى تتألف من البويضة واللقاح .

وأشهر النظريات التى قيلت فى تعليلها نظريتان :

الأولى نظرية « كلودبرنار » التى تتلخص فى أن كمية الحيوانات المنوية إذا لم تبلغ قدراً معينا لا تلقح البيضة إلا تلقيحا ناقصا غير كاف لتكوين جنين ولكنه كاف لترك آثار فى البيضة ، فاذا ما لقحت هذه البيضة بعد ذلك تلقيحا كاملا من ذكر آخر نشأ الجنين وبه بعض صفات من الملقح الأول ، لأنه قد اشترك فى تكوينه . فكل حالات « الوراثة بالتأثير » سببها فى نظر « كلود برنار » أن كمية كافية من لقاح الذكر الأول قد صادفت بيضة أو بيضات فلقحتها تلقيحا كاملا وكمية أخرى كافية قد صادفت بيضة أو بيضات أخرى فلقحتها تلقيحا ناقصا ، فالبيضات الملقحة تلقيحا كاملا تتكون فيهما الأجنة ، والملقحة تلقيحا ناقصا لا تتكون فيه الأجنة حتى يكمل تنقيحها ، فاذا ما كمل تلقيحها من ذكر غير الذكر الأول تبدو ظاهرة « الوراثة بالتأثير » فينشأ الطفل مشبها للذكر الأول الذى قد اشترك فى تكوينه . ولكن هذه الظرية غير واضحة ، لأننا

علم أن الذى يلقح البيضة إنما هو حيوان منوى واحد ، ولعل كلود برنار يعنى بما سماه « التلقيح الناقص » أن يكون الحيوان الملقح غير متوافرة فيه كل العناصر الحيوية اللازمة .

والنظرية الثانية نظرية « هوزو » التى ذكرها فى كتابه : « دراسة القوى العقلية فى الانسان والحيوان » ، والتى تتلخص فى أن التلقيح قد يترك أحيانا فى رحم الأنثى آثارا جرثومية دائمة تؤثر فى كل ما تعلق به بعد ذلك أو فى بعضه . وهذه النظرية أدنى إلى المعقول من النظرية السابقة .

* * *

وراثة الحالات العارضة وقت العلوق : لقد ثبت أن كثيرا من الحالات العارضة المؤقتة المتلبس بها الأب أو الأم فى أثناء تلقيح الحيوان المنوى للبيضة ، تنتقل إلى الجنين كما تنتقل إليه الصفات الثابتة المستقرة فى أبويه .

ومن أشهر هذه الحالات حالة السكر . فقد كاد المشتغلون ببحوث الوراثة يجمعون على أن الجنين الذى يتكون فى حالة سكر أبيه أو أمه ينشأ غالبا مصابا بالبله أو بالذهول الدائم أو بالصرع أو بضعف الحواس أو بالجنون . . . ، أى بصفة من الصفات العارضة التى كان أحد أصليه — تحت تأثير الخمر أو غيرها — متلبسا بها وقت تكونه . وقد فطن لهذه الظاهرة كثير من قدامى الباحثين وذكروا لها عدة شواهد ؛ وجاء المحدثون من بعدهم فأقروهم على رأيهم هذا وزاده تأييدا . ومن بينهم طائفة كبيرة من الثقات الذين عرفوا فى هذه الحلبة بدقة البحث وشدة التحرى والنظر بعين الريبة إلى كل مايعوزه الاستقراء الصحيح كالاساتذة سيجوين ولوكاس ومورل وديمو وديهو وفوجييه وريبو ودوكترفاج Seguin, Lucas, Morel, Demeaux, Dehaut, Vouagier, Ribot, de Cuatrefages. فقد أثبت الاساتذة ديهو وديمو وفوجيه فى تقريرهم الذى قدموه إلى « أكاديمية العلوم » بباريس « أن الجنين الذى يتكون فى حالة يكون فيها أحد أصليه متأثرا تأثرا كبيرا بخمر أو مخدر كثيرا ما ينشأ أبله أو ضعيف القوى العقلية أو مجنونا أو

مصابا بالصرع » . وأيدوا حكمهم هـذا باحصائيات دقيقة واضحة هدتهم إليها ملاحظاتهم وتجاريبهم . وذكر الأستاذ « دوكترفاج » فى كتابه « وحدة النوع الانسانى » ما نصه : « لوحظ أن الأطفال الذين يتكونون فى حالة سكر آبائهم يولدون غالبا مزودين ببعض صفات دائمة مشبهة الصفات العارضة المؤقتة الملازمة لحالة السكر ؛ فينشئون ضعاف الحس أو ضعاف التفكير . وقد أتيح لى ، فى أثناء المدة القصيرة التى زاولت فيها مهنة الطب بمدينة تولوز ، أن ألاحظ بنفسى ظاهرة من هذا القبيل فى أسرة مؤلفة من ستة أفراد : أبوين وأربعة أولاد لهما . أما الأبوان فقد كانا صحيحى الجسم سليمى العقل ؛ وقد تبين لى بالبحث عدم وجود أى مرض وراثى، جسمى أو عقلى، فى أصولهما ولا فى أفراد أسرتيهما . وأما الأولاد فقد كان ثلاثة منهم (الأول والثانى والأخير) لا يختلفون فى شىء عن أبويهم ، ولكن الرابع (الثالث بحسب ترتيب السن) كان مصابا بشىء من البله والصمم . وقد ظهر لى من التفاصيل التى حصلت عليها من والدتهم أن هذا الطفل الشاذ قد علقت به فى وقت كان أبوه فى أثنائه فى أشد حالات السكر . حقا إن هـذه الظاهرة وحدها لا تنهض دليلا قاطعا على ما نحن بصدده ؛ ولكن تأييدها لما ورد من هذا القبيل فى مؤلفات كثير من الباحثين من قبل كلوكاس ومورل وغيرهما يجعلها كبيرة الدلالة » .

وليس هذا النوع من التأثير مقصوراً على حالات السكر ، بل يتحقق فى كثير من الحالات الأخرى غير العادية ، التى يكون أحد الأبوين متلبسا بها وقت العلوق . ولا أدل على ذلك من حادثة غريبة رواها العلامة « لوكاس » وتتلخص فى أن امرأة كان بينها وبين طبيب أسرتها علاقات غير شريفة . وقد حدث مرة فى أثناء اتصالها بعشيقها أن خشيت مباغتة زوجها وهما على هذه الحال ، فعراها رعب شديد ظل جسمها ينتفض من جرّائه طوال مدة المقاربة . وقد كان من ثمار هذا

السفاح أن جاءت بنت ، وأن نشأت هذه البنت مصابة من منذ ولادتها بانتفاض دائم شامل لجميع أجزاء جسمها .

وهذا النوع من الانتقال يبدو غريبا ؛ لأن من المقرر أن الأمور القابلة للانتقال بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع لا تتجاوز طائفتين : طائفة متفق على قابليتها للانتقال عن هذا الطريق، وهى الصفات الفطرية ؛ وطائفة مختلف فى قابليتها للانتقال عن هذا الطريق ، وهى الصفات المكتسبة الشبيهة بالفطرية ، أى التى تستقر فى جسم الكائن ، وفى مجموعه العصبى، وتشكلهما تشكلا ماديا ثابتا تحت تأثير تقادم العهد ، أو تحت تأثير أى سبب آخر . أما الصفات المكتسبة غير المستقرة فلم يقل قائل بقابليتها للانتقال عن طريق الوراثة . فعلى أى أساس إذن تنتقل الصفات العارضة المؤقتة التى يكون أحد الأبوين — أو كلاهما — متلبساً بها وقت العلوق ؟ ! .

ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تزول إذا لاحظنا أن الصفات التى يولد الطفل مزودا بها تصل إليه عن طريقين : أحدهما طريق الوراثة ، وهذا لا يكون إلا فى الصفات الفطرية وما فى حكمها ؛ والآخر طريق العدوى أو طريق التأثر ، وهذا يتحقق فى الأمور التى يتعرض لها الجنين فى أثناء تكونه الأول (كالأمور التى ضربنا أمثلة لها) أو فى أدوار نموه فى بطن أمه . فكما أن الحالات الجسمية أو النفسية التى تعتور الأم فى أثناء حملها (كسوء تغذيتها ، أو إصابتها بمرض عارض ، أوسقوطها على بطنها ، أو حزنها ، أو اضطراب حالتها النفسية . . . وما إلى ذلك) يسرى أثرها إلى جنينها فيولد مزوّدا بصفات ثابتة لا نظير لها فى الصفات المستقرة لدى أبويه وأصوله ؛ كذلك الحالات التى يتلبس بها الأب أو الأم وقت العلوق، تؤثر فى المادة الأولية التى يتكون منها الجنين، وتكسبها صفة لم تكن موجودة فى عناصرها الطبيعية .

ومن هذا يظهر لك أن الصفات التى تطرأ على المادة الأولية وقت تكون الجنين ، أو تطرأ على الجنين فى أثناء نموه على أثر أمر عارض قام بأحد الأبوين، ليست من الصفات الوراثية فى شىء ، وإنما هى صفات يكتسبها الجنين اكتسابا قبل ولادته . وكل ما هنالك أن وجودها فى الطفل وقت ولادته يجعلها تلتبس بالصفات الوراثية الفطرية .

وإذا علمت هذا تبين لك أن تسمية الظاهرة التى نتكلم عنها باسم : « وراثة الحالات العارضة وقت العلوق » مبنى على التوسيع فى استعمال كلمة : « وراثة » ، وأن الأفضل تسميتها « التأثر بالحالات العارضة وقت العلوق » .

على عبد الواحد وافى
ليسانسيه ودكتور من كلية الآداب بجامعة باريس

— ١٤ —

عن زكريا بن أبى زائدة قال : كنت مع الشعبى فى مسجد الكوفة إذ أقبل حمال على كتفه كودن ، فوضعه ودخل إليه فقال : يا شعبى ، إبليس كانت له زوجة ؟ قال : ذاك عرس ما شهدناه ؛ قال : هذا عالم العراق يسأل عن مسألة فلا يجيب ! فقال : ردوه ؛ نعم ، له زوجة ، قال الله عز وجل « أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى » ولا تكون الذرية إلا من زوجة ؛ قال ، فما كان اسمها ؟ قال : ذاك إملاك ما شهدته .

الوراثة والعادة عند أفلاطون وأرسطو
ووساطة الفارابى بينهما

بقلم ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

إن مشكلة الوراثة والعادة من المشاكل التى تشغل أذهان علماء الأخلاق والنفس والتربية إلى حد كبير . فهم يتساءلون : آلأخلاق كلها موروثة يأخذها الخلف عن السلف ، أم مكتسبة تنشأ وتنمو بالدربة والاعتياد . وإذا صح أن الطفل يرث صفات آبائه وأجداده ، فعلى أى نظام يتم هذا التوارث ؟ وهل له قوانين ثابتة يعتد بها ؟ ثم إذا كنا نؤمن بالوراثة الخلقية ، فما قيمة وسائل التربية والتعليم ؟ وما مقدار نفوذها فى الإصلاح والتقويم ؟

لا نحاول اليوم أن ندرس هذا الموضوع من جهة علم النفس التجريبى ، ولا من ناحية البحوث الحديثة الخاصة بالطبائع فى أصولها وتكونها وطريق علاجها ، وإنما نريد أن ندلى ببعض ملاحظات تاريخية قد تعيننا على فهم نقطة من أدق نقط علم النفس والتربية .

اختلف الناس ولا يزالون مختلفين فى أمر الوراثة والعادة وتعارضهما ، ومقدار تغلب إحداهما على الأخرى . وقديماً قرروا أن الولد سر أبيه ؛ كما قالوا : لكل امرىء من دهره ما تعودا . فمن مناد بالوراثة يعلى شأنها مدعياً أن الفضيلة فطرية لا مكتسبة ، وأن الوعاظ والمصلحين لا يقوون على انتزاع خلق سيئ وتكوين آخر صالح ؛ ومن معتد بالعادة يظن أنها المنبع الوحيد لمختلف الطبائع والخصال ، والعلاج الناجع لتقويمها . ومشكلة كهذه ما كانت لتخفى على فلاسفة الإغريق ، وخاصة أفلاطون وأرسطو اللذين يعتنقان ، فيما يظهر ، رأيين متباينين فى هذا الصدد . فبينا يرى الأول أن للوراثة قوة لا تسمو إليها العادة ،

وأن الغرائز غير قابلة للتغيير ، إذا بالثانى يعان أن الأخلاق كلها مكتسبة ، وأن العادة أهم عامل فى تكوين السجايا والخلال . لاحظ الفارابى هذا الخلاف الذى لم يتنبه اليه كثير من الباحثين السابقين ، وعرضه فى دقة وأمانة تامة . ولما كان يعتقد أن الفلسفة واحدة ، وأنه يجب أن يتفق الفلاسفة فيما بينهم ، اجتهد فى أن يوفق بين الفيلسوفين الاغريقيين فى رسالته المسماة : كتاب الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون الإلهى وأرسطوطاليس (١) . وهانحن أولاء تاركوه يشرح هذه المسألة التاريخية ، ومبينون إلى أى حد نجح فى مهمة التوفيق التى حاولها .

يقول فى رسالته الآنفة الذكر : إن « أفلاطون يصرح فى كتاب السياسة (la République) وفى كتاب بوليطيا (le Politique) خاصة بأن الطبع يغلب العادة ، وأن الكهول حيثما طبعوا على خلق ما يعسر زوالهم عنه ، وأنهم متى قصدوا زوال ذلك الخلق عنهم ازدادوا فيه تماديا . ويأتى على ذلك بمثال من الطريق إذا نبت فيه الدغل والحشيش والشجر معوجة متى قصد خلاء الطريق منها أو ميل الشجر إلى جانب آخر ، فانها إذا خليت وسبيلها أخذت من الطريق أكثر مما كانت أخذت من قبل (٢) »

على العكس من ذلك « يصرح أرسطو فى كتاب نيقوماخيا (l' Ethique à Nicomaque) أن الأخلاق كلها عادات تتغير ، وأنه ليس شىء منها بالطبع ، وأن الانسان يمكنه أن ينتقل من كل واحد منها إلى غيره بالاعتياد والدربة (٣) » .

لا يتردد القارىء لهذه النصوص فى أن يؤكد أنها تترجم عن نظريتين

(١) هذه الرساله هى الجزء الأول من المجموعة التى طبعها ديتريتصى تحت العنوان الآتى : الثمرة المرضية فى بعض الرسالات الفارابية ، ليدن ، ١٨٩٠ ، وتوجد أيضا فى مجموعة فلسفة أبى نصر الفارابى .

(٢) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ١٦ — ١٧ . غنى عن البيان أن فى أسلوب الفارابى شيئا من الالتواء تأبى علينا أمانة النقل تعديله .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦ . ـ راجع أيضا فى — Aristote, l' Ethique à Nic. II, 111, 4, V, 2

متضادتين ؛ غير أن الفارابى يعتقد أن هذا التضاد فى الحقيقة صورى . وأن أفلاطون ، وإن نادى بالوراثة ،لاينكر ماللعادة من يد فى اكتساب خلق ما ، كما أن ارسطو الذى يعتز بالعادة لاينفى الأخلاق الموروثة . ولئن بدا فى لهجة أفلاطون تمسكه بالغرائز الفطرية ، ما ذاك إلا لأنه يدرس النظم السياسية التى تعتمد اعتمادا أساسيا على هذه الغرائز . إذ من الواضح أنه يصعب كثيراً استبدال نظام سياسى بآخر ، فللعادة فى هذا المضمار أثر محدود . ومن الصعب كذلك أن نحاول إحلال خلق جديد محل خلق قديم موروث . ولكن هذه الصعوبة لا تلغى عمل العادة وأثرها فى اكتساب الأخلاق المختلفة ؛ فبين العسير والممتنع مرحلة لايستهان بها وعلى هذا يعترف أفلاطون ، فى رأى الفارابى ، بأن للعادة والتربية مجالا فى الحياة السياسية والخلقية ، وإن كان يُعوّل التعويل كله على الاستعداد الطبيعى . وكل ما يحاول إثباته إنما هو صعوبة الانتقال من خلق موروث إلى خلق مكتسب(١)

وأرسطو نفسه لا ينكر هذه الصعوبة وإن عد العادة أكبر سلاح فى تكوين الأخلاق المختلفة . فكل خلق فى ذاته قابل للتحويل ولأن يستبدل به غيره ؛ ومع هذا قد نلاقى أحيانا عناء كبيرا فى إحلال خلق محل آخر . ولم يفت أرسطو أن يلاحظ ، فى دقة ، أن اكتساب العادات يختلف باختلاف الأشخاص ؛ فبينما يكتسب شخص عادة ما بسهولة تامة إذا بالآخر يعز عليه اعتيادها .(٢)

فأفلاطون وأرسطو يناديان إذاً بالوراثة والعادة ، ويعتقدان أن التربية ناجعة فى التخلق بالفضيلة والخلوص من الرذيلة . وليست الغرائز الفطرية التى ينادى بها أفلاطون بمجهولة لدى تلميذه ؛ كما أن العادة التى يستمسك بها التلميذ ليست مهملة لدى أستاذه . بهذا الحل استطاع الفارابى أن يقف موقفا وسطا بين الفيلسوفين الاغريقيين ، وأن يقرب المسافة بينهما إزاء هذه المشكلة الدقيقة .

إذا بحثنا عن قيمة هذا التوفيق ومقدار نجاحه ، وجدنا أن أفلاطون الاجتماعى والأخلاقى يعلق كبير الأهمية على الاستعدادات الفطرية ؛ فهو يحاول أن يدعم السياسة والأخلاق على أسس صيكلوجية . فمن الوجهة السياسية يرى أن تقسيم

(١) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ١٧ - ١٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨ .

العمل والطبقات الاجتماعيه يجب أن تتلاءم، لامع الحاجات المادية وحدها ، بل مع صفات الأفراد المختلفة . فكل عمل من أعمال الجمعية يستلزم استعددات خاصة . فحب المال لدى الصانع ، والجرأة النبيلة لدى الجندى ، وبعد النظر والتفكير العميق لدى حامى المدينة ، كل هذه تعتمد على صفات فطرية لا يستطيع أى نظام اجتماعى خلقها (١). ولابد أن يتوافر فى الرؤساء السياسيين بوجه خاص صفات غريزية ، عنى أفلاطون بسردها سردا مفصلا فى كتاب السياسة أو (الجمهورية) (٢). ومن الناحية الخلقية يعتقد أفلاطون كذلك أن الفضيلة محتاجة إلى طبائع أولية غير مكتسبة بالدرس والنظر . (٣) ويحدثنا فى إحدى محاوراته المسماة مينون — (Ménon) - سماها العرب مانن - عن معونة إلهية (concours divin) لابد منها لاكتساب الفضائل (٤) . ولسنا ندرى بالضبط ماذا يعنى بهذه المعونة الالهية ؛ العبارة فى ذاتها مبهمة و إن استعملها مؤسس الأكاديمى غير مرة ؛ ويخيل الينا أنه يريدبها الاستعداد الفطرى (٥) . وأن فيلسوفا يبنى نظرية المعرفة (la théorie de la connaissance) على أسس غريزية ، ويعتقد أن التعلم ليس الا تذكرا لمعلومات عرفت من قبل (Réminiscence) فى عالم سابق لعالمنا هذا ، لا يبدو غريبا منه أن يؤسس الفضيلة على دعائم موروثة . على أن أفلاطون يبالغ فى الاعتداد بالفطرة فى علم الأخلاق أكثر منه فى علم النفس ؛ فهو يسمح للقضاة بأن يحكموا بالموت على كل شخص رأوه غير قابل للاصلاح ، ويعلن ان الفضيلة التى تعتمد على العادة وحدها ليست إلا انقيادا آليا هو أشبه ما يكون بخضوع الأرقاء . (٦)

يبدو من هذا لأول وهلة أن أفلاطون يحارب العادة ويحمل عليها حملة شعواء ،

---

(١) Platon, République, 455 b.

(٢) Ibid, 490.

(٣) Brochard, Etuder, r. 177

(٤) Platon, Ménon, 100 a.

(٥) Ed, Zeller, Die Philosophie der Griechen . . . , 11, I, 594

(٦) Platon, République, 410 d = Phédon, 82 a.

غير أنه لا يهاجم إلا العادة العمياء التى لا تستضىء بضوء الفلسفة والتفكير المنتظم. أما العادة الصحيحة النيرة فهى، فى نظره، أساس تبنى عليه التربية والتثقيف. لذلك أخذ على نفسه أن يكون نظريات بيداجوجية عمادها العادات المتزنة. ونظرة إلى الجزء الثانى والثالث والسابع من كتاب الجمهورية، وإلى تحريرها فى النواميس، وبخاصة الجزء السابع تحملنا على أن نعد أفلاطون بين كبار مربى التاريخ القديم. ومرب لايعتقد نجاح العادة فى مهمتها يناقض نفسه ويهدم أكبر عامل من عوامل دراسته. فلم يكن بدعا أن يجهد مربى الجمهورية نفسه فى تنمية الغرائز التى ورثها الأطفال عن آبائهم، والتى تساعد على تنشئتهم تنشئة صالحة. وتلميذ سقراط لايستطيع أن ينكر أن الفضيلة ممكنة الاكتساب تنال بالدربة والمرانة. نعم إنه يخالف أستاذه فى بروتاجورا — Brota goras (أو فروطاغورس كما سماه العرب) حيث ينقض هذه النظرية؛ ولكن هذه المخالفه مؤقتة، وما هى إلا لحظه حتى يعود أفلاطون الى اثبات أن الفضيلة قابلة للتعلم مادامت موضوع علم مستقل بذاته. (١)

بيد أن أرسطو ـ والحق يقال ـ هو أول فيلسوف أبان فى جلاء أثر العادة فى اكتساب الفضيلة، ودرس ذلك دراسة تطبيقية وتحليلية استنتج منها قوانين عامة فهو يقرر أن «العادة هى التى تنمى الفضائل وتمكنها من نفوسنا؛ فالمرء يصبح عادلا بتمسكه بالعدالة، وحكيما بتعلقه بالحكمة، وشجاعا بوقوفه مواقف الشجاعة(٢)» لا شك فى أن أفلاطون أرشد تلميذه إلى قيمة العادة فى التربية، إلا أنه يرجع إلى التلميذ الفضل فى دراسة العادة، لأول مرة، دراسة نفسية وخلقية موسعة. فدراسته النفسية تدل على دقة وتعمق بالغين. وتحليله لبعض العادات الخلقية كان حليف الصواب فى أغلب الأحايين. ورغبة أرسطو فى رد الفضائل كلها إلى العادة تتفق مع مذهبه العام، فان من يعتمد أولا وبالذات على الوقائع والحوادث المحسوسة لا يؤمن كثيراً بالغريزة وقوتها. فمذهب أرسطو الواقعى يسود فى كل مكان: ففى

(١) Id., Protagoras, 316 d.

(٢) Aristote, Ethique à Nicomaque, 11, I, 3, 4.

الدائرة الصيكلوجية يجزم بأن المحسوسات أصل المعلومات العامة ومصدر تكوينها؛ والأخلاق فى رأيه، لا تقل عن « الطبيعة » فى اعتمادها على الأفعال الملموسة والأشياء المشاهدة. لذلك كانت فنا (art) ينمو ويضعف بنفس الوسائل والأسباب التى تؤثر فى الفنون الأخرى (١). وعلى هذا هو أكبر فارق بين الأخلاق عند أرسطو وأفلاطون؛ فبينما يعتد الثانى بالغرائز اعتدادا كبيرا، اذا بالأول لا يعول عليها كثيرا. فالفطرة (l' innéisme) محدودة النفوذ فى المذهب الأرسطى، سواء أكان ذلك فى الأخلاق أم فى علم النفس. وفى رأى أرسطو أن المرء يولد وفيه استعداد للخير كما أن فيه استعداداً للشر؛ ولكننا لا نستطيع أن نسمى واحداً من هذه الاستعدادات فضيلة أو رذيلة (٢).

وهنا يحق لنا أن نتساءل إذا كان أرسطو يؤمن بوجود استعدادات فطرية فكيف يلغى عملها؟. للاجابة عن هذا الاعتراض يلجأ الفارابى الى فكرة القوة والفعل (l' acte et la puissance) التى هى من أعقد النقط فى فلسفة أرسطو، والتى تدخل فى نواحيها المختلفة دون أن تشرحها شرحا وافيا. يقول الفيلسوف العربى: « إن الطفل الذى نفسه تعد بالقوة ليس فيه شىء من الأخلاق بالفعل ولا من الصفات النفسانية. وبالجملة فان كل ما فيه إنما هو بالقوة؛ ففيه تهيؤ لقبول الشىء وضده؛ ومهما اكتسب أحد الضدين يمكن زواله عن ذلك الضد المكتسب الى ضده »(٣). فعقلية الطفل عند الفارابى ليست لوحا أملس خاليا من كل نقش أو صحيفة بيضاء لا أثر فيها؛ كلا بل على ذلك اللوح نقوش وفى هذه الصحيفة رسوم. بيد أن هذه النقوش غير واضحة، وهذه الرسوم شاحبة بحيث يمكن تغييرها وتبديلها بحسب الإرادة (٤). هى نقوش ورسوم فى عالم القوة، فوجودها فرضى وحقائقها اعتبارية؛ ولا يمكنها أن نجاوز أفقها هذا إلى عالم الفعل الا بمؤثرات

(١) Ibid., II I 9,

(٢) Ibid., 11, VI, 2 ; 3 VI, XI.

(٣) الثمرة المرضية، ص. ١٧.

(٤) المصدر نفسه.

اخرى خارجية . هذا هو الحل الذى يتقدم به الفارابى ليحددقوة الغرائز ومدلولها من الناحية النفسية بوجه عام وفى رأى أرسطو بوجه خاص . وهو حل خاطىء فى جملته ؛ ذلك لأنه يعتبر الطفل صفحة غُفْلا قابلة لكل ما يراد بها . ويكاد يقضى على الاستعدادات الفطرية ؛ فان الاستعداد الكامن فى عالم القوة أقرب الى العدم منه الى الوجود . نعم ان علم النفس التجريبى لم يصل بعد إلى أن يعين بالدقة الخصال الأولى لدى طفل ما ، غير ان هذه الخصال موجودة وتتعارض أحيانا مع وسائل التربية والتعليم . هناك صفات فطرية قطعا و ثابتة بالفعل لا بالقوة ؛ وفى مقدورنا ان نتبين الكثير منها لدى مختلف الأطفال .

فالفارابى وإن اخذ بالاستعدادات الطبيعية التى نادى بها أفلاطون هو إلى مذهب أرسطو اميل ، وما صيكلوجية الخصال ، فى عرفه ، الا أشبه بصيكلوجية المعرفة فكلنا يولد وهو مستعد لرؤية وفهم الأشياء الجزئية ، ولكن ذهننا فى أول لحظة نصل فيها إلى هذا العالم خال من كل فكرة عامة . كذلك يولد الطفل وفيه استعداد للتخلق بأى خلق أو تعود أية عادة ، دون أن يكون ذا خلق محدود أو عادة معينة ؛ وفى وسعنا أن نوجه استعداده حيث نريد . بل ، وأكثر من هذا ، الأخلاق المكتسبة ـ مثل المعلومات المكتسبة ـ تعادل فى رأى الفارابى الأخلاق الموروثة وقد يسميها أحيانا أخلاقا موروثة ، إذا ما وصلت إلى درجة خاصة من الثبات والاستقرار [1] . فالعادة والتكرار تعمل فى علم الأخلاق ما تعمله الحواس فى علم النفس : الأولى تخلق فينا من عدم صفات جديدة ، والأخيرة هى سبيل تكوين أفكارنا العامة . وهكذا يقود المذهب التجريبى (l'empirisme) دائما فى الأخلاق إلى مثل النتيجة التى يقود إليها فى علم النفس ، ومن العبث أن نحكم على آراء الفيلسوف الخلقية قبل أن نعرف نظرياته النفسية .

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨ — ١٩ .

التعليم فى الهواء الطلق

— ٢ —

بقلم الأستاذ محمد عطيه الابراشى

المفتش بوزارة المعارف

بينا فى الكلمة السابقة الغرض من التعليم فى الهواء الطلق ، والحاجة إلى الحياة فيه ، وذكرنا الطريقة التى بها يمكن تنظيم ذلك التعليم ، وشرحنا المبادىء المتبعة فى مدارس الهواء الطلق بألمانيا . واليوم نقول :

ان نظام التعليم فى الهواء الطلق بألمانيا يتضمن :

أولا : تخفيض زمن التعليم النظرى إلى نصف الوقت المعتاد ، وقضاء الوقت الباقى فى الهواء الطلق فى دروس عملية لها علاقة كبيرة بالحياة الخارجية ؛ لأن ضعاف الأجسام من التلاميذ لا يستطيعون أن يمكثوا وقتا طويلا فى الدراسة النظرية .

ثانيا : ألا يزيد الفصل على عشرين طفلا لكل معلم ؛ حتى يتمكن المدرس من العناية التامة بكل طفل .

ثالثا : يستثنى هؤلاء الأطفال من النظام القاسى ومن العقاب .

وقد كانت النتائج الصحية محسة ؛ فقد شفى كثير من المرضى ، واكتسبوا بعض الخشونة والتقشف ، وقوة المناعة ، وتحمل هجمات المرض . وقد استفادوا من الوجهتين : العلمية والخلقية بقدر ما استفادوا من الوجهة الصحية ؛ فقد زاد نشاطهم وانتباههم ، وأصبحوا بعد نجاح العلاج قادرين على السير مع غيرهم فى المدارس العادية ، وأظهروا نجاحا كبيرا فى دروسهم ، وحسن سلوكهم ، وكسبوا الكثير من العادات الحسنة كالنظام ، والنظافة ، والمواظبة ، والاعتماد على النفس ،

وضبط الشعور ، والحكمة والحزم . وجمعوا بين التربية الجسمية والطبيعية والخلقية والعلمية والعملية والاجتماعية .

والأطفال فى تلك المدارس يعتبرون أنفسهم أسرة كبيرة ، ويدربون على الأمور الضرورية فى الحياة الاجتماعية المنظمة . وأساس ذلك كله التنويع ، من عمل شائق إلى لعب ، ومن لعب إلى عمل ، ومن قراءة إلى غناء ، ومن رياضة إلى نوم . وهكذا تكون حياتهم المدرسية فى الهواء .

انتشار هذا المشروع فى غير ألمانيا :

ولما انتشرت التقريرات فى جميع أنحاء ألمانيا عن فوائد التعليم فى الهواء الطلق أخذت السلطات المدرسية تستكثر من هذا النوع من المدارس فى المدن الألمانية ، ثم انتقل المشروع بعد ذلك إلى انجلترة سنة ١٩٠٧ ، وإلى أمريكة سنة ١٩٠٨ . وفى فرنسا كانوا ينشئون فى الأرياف مدارس يذهب إليها أطفال المدن أيام العطلة . ثم انتقلت الفكرة إلى اسكوتلندة ، وأوستريا ، وإيطاليا ، وكندا ، والمكسيك ، واليابان . ولذلك يمكننا أن نقول إن مشروع التعليم فى الهواء الطلق قد انتهى من مرحلة التجربة ، وأصبح فى ألمانيا وأمريكة مثلا يعد أمرا جوهريا فى النظام المدرسى فى التعليم الأولى .

وفى أمريكة كانت تغير الحجرة العادية إلى حجرة ذات ثلاثة جوانب ، أما الجانب الرابع فكان يترك مفتوحا للهواء . ابتدأ التعليم فى تلك الحجر فى البرد القارس ، وكان الفصل المدرسى مقصورا على المصابين بالدرن وفقر الدم . وكانت العناية بالتدفئة ، وبالملابس الواقية من البرد كبيرة . وكان غذاء التلاميذ جيدا ، وكانت الدروس قليلة فظهر التحسن على الأطفال من كل ناحية . والأمريكيون ينشئون بعض هذه المدارس فى المتنزهات العامة ، والأمكنة الهادئة ، والجزائر التى يسهل الذهاب إليها بالقوارب ، وفى معسكرات فى الخلاء ، وفى حدائق المدارس ، وأفنيتها . وهم يشجعون تلك المدارس تشجيعا عظيما قل أن يوجد فى البلاد الأخرى ؛ لما وجدوه من النجاح الكبير فى علاج المصابين بالدرن فى الدور

الأول من المرض ، ويقصرون هـذه المدارس على معالجة هؤلاء المرضى والعناية بهم .

أما فى أوربة فالغرض من هذه المدارس أعم ، فيقبل التلاميذ المصابون بأنواع مختلفة من المرض غير المعدى . ومن الإحصاء الآتى يظهر مقدار السرعة فى انتشار حركة التعليم فى الهواء الطلق بالولايات المتحدة فى أمريكة . وسنبين عدد المدن التى لديها مدارس من هذا النوع من سنة ١٩٠٨ إلى يناير سنة ١٩١٢ :

السنة المدرسية	عدد المدن التى لديها مدارس فى الهواء الطلق
١٩٠٧ — ١٩٠٨	٣
١٩٠٨ — ١٩٠٩	٧
١٩٠٩ — ١٩١٠	١٥
١٩١٠ — ١٩١١	٣٢
١٠١١ — ١٩١٢	٤٤

النظام اليومى لمدرسة (خارلوتنبرج) الألمانية :

كما تعنى المدرسة بالملابس والوقاية من البرد كذلك تعنى بالطعام بحيث يكون صحيا ، وفيـه العناصر الغذائية الكافية . ولنبين هنا النظام اليومى للمدرسة الألمـانية فى (خَارْلو تِنْبِرْج) فنقول :

(١) يصلُ التلاميذ إلى المدرسة فى الساعة (٤٥ و ٧) صباحا ، ثم يشربون فنجانة من الحساء ، ويأكلون قطعة من الخبز والزبد .

(٢) تبتدىء الدروس فى الساعة الثامنة ، وكل حصة نصف ساعة ، تليها فترة مقدارها خمس دقائق للراحة .

(٣) فى الساعة العاشرة يأخذ الأطفال فنجانة أو اثنتين من اللبن ، وقطعة من الخبز والزبد .

(٤) يتناولون الغداء فى منتصف الساعة الواحدة بعـد الظهر ، وهو يحتوى على ثلاث أوقيات من اللحم لكل تلميذ ، وعلى خضر وحساء .

(٥) بعد الغداء يستريح الأطفال وينامون ساعتين .

(٦) وفى الساعة الرابعة يتناولون لبنا ثم خبزا مع زبد ومربى .

(٧) تحتوى الأكلة الأخيرة على حساء ، وخبز ، وزبدة ، ويكون ذلك فى الساعة (٤٥و٦) وبعد ذلك يعود الأطفال إلى منازلهم .

وكان مقدار ماينفق قبل الحرب على طعام الطفل الواحد فى اليوم ١٦ سنتيما على الأكثر . ويعطى الفقراء الغذاء بالمجان ، ويدفع غيرهم كل النفقات أو جزءا منها بحسب يسرهم وعسرهم .

وفى المنزل يأكل الأطفال عادة قبل ذهابهم صباحا إلى المدرسة لبنا وخبزا وبيضا وعند عودتهم مساء يتناولون طعاما خفيفا .

ويختلف نظام المدارس الأمريكية اختلافا قليلا عن نظام المدارس الألمانية ؛ فاليوم المدرسى بأمريكة أقصر ؛ وعدد الأكلات أقل .

وفى المدارس الانجليزية يتناول التلاميذ ثلاث أكلات : الإفطار ، والغداء ، والشاى ؛ ثم يذهبون إلى منازلهم قبل الغروب ، ويعطون لبنا فى الساعة الحادية عشرة صباحا إذا أمر الطبيب بذلك . وبعد الغداء يستريحون ساعتين . وأنواع الطعام متنوعة ، موزعة توزيعا حسنا ، وثمنها معتدل . وكان مقدار ما ينفق على الطفل الانجليزى قبل الحرب شلنين وثلاثة بنسات فى الأسبوع .

النظام اليومى فى نيويورك :

يختلف النظام اليومى فى الترتيب باختلاف البلاد والمدن . ولنثبت هنا الجدول اليومى لمدرسة الهواء الطلق فى نيويورك ، وهو من أحسن الجداول لذلك النوع من المدارس :

من	إلى	
٤٥ - ٨	٩	يصل التلاميذ إلى المدرسة ، ثم يدفئون أنفسهم .
٩	٣٠ - ٩	يتناولون بيضا ثم كوبا كبيراً من اللبن ، ويستريحون فى الهواء مع التحفظ من البرد .
٣٠ - ٩	٣٠ - ١٠	أعمال مدرسية .

من	إلى	
١٠-٣٠	١٠ - ٤٥	فترة قصيرة لتناول لبن وخبز .
١٠ - ٤٥	١١ - ٣٠	أعمال مدرسية .
١١ - ٣٠	١٢	فترة للنظافة وغسل الأيدى ، والاستعداد لتناول الغداء .
١٢	١٢ - ٣٠	الغداء .
١٢ - ٣٠	٢	يستريح التلاميذ فى أسرتهم الخاصة ويشجعون على النوم .
٢	٣	أعمال مدرسية .
٣	٣ - ١٥	فترة قصيرة لتناول لبن وخبز .
٣ - ١٥	٤	أعمال مدرسية .
٤	٥	ألعاب .
٥		العودة إلى المنزل .

المنهج فى مدارس الهواء الطلق :

يعنى فى المنهج بالأمور الآتية :

(١) الرياضة البدنية وبخاصة تمارين التنفس التى تعمل مرتين كل يوم . ومدة التمارين خمس دقائق .

(٢) الأعمال اليدوية التى تشغل ست ساعات فى الأسبوع ، وتشمل : فلاحة البساتين والعمل فيها ، والنجارة ، وصنع السلال ، ورفء الملابس . . . الخ .

(٣) دروس مشاهدات الطبيعة .

الملابس :

لقد برهنت التجارب فى البلاد الباردة على أن الأطفال لا يستفيدون من العلاج بالهواء الطلق إلا اذا شعروا دائما بالدفء ، وذلك بإعطائهم ملابس كافية ملائمة للوقاية من البرد كالملابس الصوفية ، وعمل كل وسيلة للتدفئة . وتقوم المدارس وجمعيات التعاون بما يحتاج إليه الأطفال من الملابس إذا كان آباؤهم فقراء . ويعطى كل طفل مِدرعا ولحافين وممطرة وكمة وقفازين . ويزود الأطفال فى كثير من المدن بحلل من حلل الاسكيمو المصنوعة من ملاحف ثقيلة تلبس على الملابس العادية . وفى المدارس أحذية وجوارب تعطى لمن يحتاج إليها من الأطفال الذين يأتون إلى المدرسة وأقدامهم مبتلة من المطر .

محمد عطية الابراشى

تربية الشخصية فى مرحلة البلوغ

بقلم الأستاذ محمد خلف الله

عضو بعثة دار العلوم بانجلترا

يجدر بنا ونحن فى دور نهضة وانتقال أن نأخذ حذرنا ، وألا نهمل تربية الشخصية فى فتياننا وفتياتنا ، فى سبيل الحرص على تنمية مواهبهم الذهنية ، خصوصا بعد أن لمسنا بأنفسنا نقص الشبيبة المصرية فى الناحية الأولى ، وبعد أن شكت المصالح المختلفة ووزارة المعارف « من عجز خريجى المدارس الثانوية عن حسن القيام بالأعمال التى تعهد إليهم ، والتى ينبغى ألا يعجز عنها طوقهم فمعظمهم فاقد الشخصية متردد ، يهاب تكوين رأى له مستقل ، فضلا عن إعلانه ، وهم لا يكادون يبينون عن أفكارهم كلاما أو كتابة بعبارة موجزة بليغة صحيحة ، عربية كانت أو أجنبية » . (١)

هذه الشكوى صادقة ، وبحثها أول واجب على المربين والمصلحين ، والطريق إلى علاجها أصبح ميسورا ، ولا سيما بعد أن ارتقت مباحث علم النفس الحديث ، ووجهت نظرها إلى دراسة الشخصية بمختلف الطرق والأساليب العلمية ، وبينت مُثُل النمو الطبيعى فى الأفراد ، ومظاهر الضعف والشذوذ عند بعضهم ، ومصادر ذلك النقص والوسائل إلى تلافيه .

* * *

من المعروف أن الطفل يواجه فى مرحلة التعليم الثانوى — والعالى - دورا من أدوار نموه له خطره وأهميته ، أصطلح علماء النفس على تسميته بمرحلة البلوغ

(١) من تقرير معالى وزير المعارف المصرية عن التعليم الثانوى - أهرام ١٠ من مايو سنة ١٩٣٥

وحددوا زمنه بالتقريب فيما بين الثانية عشرة والعشرين من العمر ، وأجروا عليه التجارب ، وكتبوا فيه المؤلفات ، وتناولوه من وجهاته المختلفة . وإذ كان همنا فيما نحن بصدده أن نحلل هذه المرحلة من وجهتها النفسانية (١) ونقتصر من هذه على ماله ارتباط بالشخصية فلندع النواحى الأخرى لأوقاتها ولنقل إذاً ، إن الطفل يواجه فى هذا الدور مشكلات ثلاثا نفصل الكلام عليها فيما يلى :

المشكلة الأولى هى الخروج من وسط الأسرة إلى محيط المجتمع ، أو بعبارة أخرى هى معضلة النظام النفسانى ، إذ يتجه المراهق فى هذا الدور إلى تغيير عاداته والخروج عن مألوف طفولته ، والتحرر من رق الاعتماد على أبويه وأهله ، والرغبة فى الاستقلال فى حياته الوجدانية والعاطفية .

هذا الاتجاه طبعى ، وإذا سار سيرته الطبيعية وتغلب على ما يصادفه من عقبات لم يصل الشخص إلى سن العشرين إلا وقد استقل عن المنزل بشعوره ، وشب عن طوق استسلام الطفولة والتظلل بظل الأبوين ، وأعدّ نفسه لمواجهة الدنيا بما فيها من شؤون وصعاب .

غير أن التخلى عن صفات الطفولة ليس بالأمر السهل ، وكثير من الأشخاص يعجزون عنه فيبقون مرضى بحب المنزل طول حياتهم . وقد يشل هذا المرض إرادتهم فينشئون ناقصى الشخصية ، فاقدى الهمة والأمل . والذنب فى هذا ليس ذنبهم وحدهم بل هو ذنب البيئة والآباء الذين لا يُعَوِّدون الطفل من صغره الاعتماد على نفسه ، والذين ينظرون إليه على أنه ينتمى إليهم لا إلى نفسه ولا إلى الجيل الذى ينشأ فيه . وقد يغلون فى حبهم له فيكثرون من اهتمامهم الشديد به ووضعه فى فراشه ، ومناداته بأسماء الطفولة ومساعدته فى أكله ولبسه . وقد يسرف بعض الأمهات فى تعلقهن الشديد بأولادهن ، فيسببن لهم كثيراً من المتاعب التى تحول بين الكثيرين منهم وبين النجاح إذا فارقوا منازلهم إلى جهات بعيدة . وبحوث علم

(١) قد يكون من المناسب فى الكتابات الصيكولوجية أن نستعمل كلمة (نفسانى) لما هو خاص بعلم النفس ـ وكلمة (نفسى) لما هو منسوب الى النفس .

النفس حافلة بالكثير من الأمثلة فى هذا الموضوع ، وفى حياتنا المصرية شواهد كثيرة عليه ، فروح التعلق بالمنزل عندنا قوية ، وروح الاستقلال والاقدام وركوب الخطر ضعيفة ، ولقد يذرف بعض شباننا الدمع مدرارا إذا فارقوا منازلهم إلى جهة أخرى من جهات القطر بضعة أشهر .

على أن المدرسة عندنا ليست بريئة من الاهمال فى هذا الباب ، فالعلاقة بين التلميذ من جهة ، وبين المدرسة وإدارتها من جهة أخرى ، لا تنمى فى الفرد روح الشخصية والاستقلال ، ولا تكوّن عنده الشعور الحر بالمسئولية ، ولا تهيئ الجو الصالح الذى يجد فيه الفرد منفذا لمظاهر حُرِّيَّته وذاتيته .

ويزيد فى اضطراب أعصاب الطفل وشعوره بضعفه فى هذه المرحلة اعتماده الاقتصادى على أبويه ، فهو لما يقوَ بعدُ على كسب عيشه والاستقلال فى موارد رزقه — لهذا يفطِن كثير من الأسر فى الأمم الراقية إلى سد هذه الثلمة بأن يهيئوا لأولادهم السبل للالتحاق بعمل من الأعمال فى عطلة الصيف يكسبون منه عيشهم فيدركون لذة الكسب ، ويعرفون قيمة القصد فى العيش ، ويضعون لَبِنة فى بناء تحررهم الاقتصادى .

كذلك تعمل المدرسة والآباء فى هذه الأمم على مساعدة الطفل على النجاح فى انتقاله من عصر الطفولة إلى عصر الرجولة ، فيكون الأب أو المدرس الأخَ الأكبر للابن أو التلميذ يلحظه عن كَثَب ، ويرشده دون قسر ، ويرافقه مرافقة الصاحب لا المسيطر ، ويعينه على أن يُكيِّف أسلوب حياته بنفسه ، وأن يجد مكانه فى دائرته الاجتماعية . ويُعْنَى كثير من الأسر باعطاء أبنائهم وبناتهم فى المنزل كل الفرص الممكنة للوحدة والاستقلال ، فلكل من الأولاد حجرته الخاصة ، أو على الأقل جزؤه الخاص من الحجرة يكون فيه مكتبه ومستودع أسراره ، يخلو إليه فى ساعاته الخاصة ، ليكتب مذكراته ، أو يسبح فى خيالاته وذكرياته .

إذاً فلا عجب أن نرى تحت تأثير هذه العوامل المختلفة بونا شاسعا بين الأشخاص واستعدادهم للعمل فى الحياة . فبينا نجد فى مرحلة البلوغ أفراداً مستقلى

الفكر، ناضجى التدبير، يعملون بعزيمة وجد، سائرين على الدرب الموصل إلى النجاح، إذا نحن نجد آخرين قد وقفت بهم المطى، وقصروا دون الغاية، فلم يهتدوا إلى ما يناسبهم من عمل. وظلوا يتراوحون بين تجارة وتجارة أو بين مدرسة وأخرى.

* * *

وأما النقطة الجوهرية الثانية فى مرحلة البلوغ فهى معضلة اتخاذ فلسفة فى الحياة، وتتناول إبصار الشخص فى نفسه، وتفكيره فيما خلق له، وفى الدور الذى سيلعبه على مسرح الحياة، وفى علاقته بالجماعة الملاصقة له، والمجموع الذى يعيش فيه، وبوطنه وحكومته، ونظره فى ملكوت السموات والأرض، وفى معنى الوجود والخلود وسر الحياة والموت وماذا وراء الطبيعة من خفايا وأسرار.

هنالك فى بالغى كل أمة حوالى خمسة أو ستة فى المئة لا يرتفعون فى تفكيرهم إلى مستوى الطفل ذى الثانية عشرة. مثل هؤلاء لا يتعبون أنفسهم فى التفكير الفلسفى أو الدينى، ولا ينظرون وراء الأسبوع أو الفصل الذى يعيشون فيه، وإنما يأخذون الدنيا على علاتها يوماً بيوم، وينعمون بجهلهم فى الحياة.

وهنالك من الجهة الأخرى نحو عشرة فى المئة من السكان يبدءون فى سن الطفولة يتساءلون عن الوجود وأسراره سؤال الجاد الظامىء، وهؤلاء هم أذكى جيلهم وهم عرضة أكثر من غيرهم للتعب والنزاع العقلى، ومن هؤلاء فيما بعد تنبعث المذاهب الفلسفية والأخلاقية. إلا أن المرحلة الطبيعية لتفكير غالبية كل أمة فى هذه المعضلات هى مرحلة البلوغ، ففيها تثور الشكوك الدينية، ويحتدم النزاع الداخلى ويكثر ولوع اليافع بالمناظرات السياسية والفلسفية، وتشغل البنت أو الولد جزءاً كبيراً من الوقت فى التفكير فى النفس، والاستعداد للمستقبل. أما نفس كل شخص فهى محور تجاربه، وهى تظهر فى نواحٍ متعددة: فى منظر جثمانه، فى أخلاقه وعمله، فى تصرفه الاجتماعى... وهلم جرا، ثم هى تستمد قواها من بيئته التى نشأ فيها: من معهده ولغته، من دينه ووطنه. فنفس كل شخص إذاً هى مجموعة هذه الأنفس فيه، وهى تنمو من جذيرات صغيرة تنبثق فى عهد الطفولة

ثم تأخذ شكلها الكامل فى مرحلة البلوغ ، وتتكيف بالصورة التى سيكون عليها الشخص طول حياته، وفى مرحلة البلوغ يقوى شعور الشخص بنفسه فيطيل النظر إلى المرآة ، ويعتنى بهندامه ، ويتنبه لشعور الناس نحوه وطرق خطابهم له ، ويحلم فى يقظته ومنامه بما تكنه له زوايا المستقبل .

وشأن البنات فى ذلك شأن الأولاد ، إلا أنهن يفقنهم بالطبع فى العناية بمظهرهن وملبسهن وتجميل أنفسهن .

وإذ كانت مدارك الشاب العقلية تصل فى هذه المرحلة إلى أقصى غايتها من النمو ، فمن الطبعى أن يشغل إذاً بالتفكير فى المعنويات بعد أن شغله عالم الحس والذات أيام الطفولة الأولى ، ومن الطبعى ، وقد كملت رجولته ، أن يطلب لنفسه مكانها فى هذا الوجود الشامل ، فهو يبحث عن الكمال لنفسه بين العظماء الذين يعيشون فى عصره ، وبين النابغين الذين يحدثه عنهم التاريخ . وبين الأبطال الذين تصورهم له تراجم الحياة ومسارح التمثيل وصفحات الروايات .

من هذا يدرك القارىء مس الحاجة فى هذه المرحلة إلى مساعدة الطفل على الحيْطة فى اختيار الكتب التى يقرؤها : والروايات والأفلام التى يشهدها ، ومن هذا يدرك زعماء الأمة وكبراؤها مسئوليتهم أمام الله والتاريخ . إذ يضربون بأعمالهم مثلا سوف يقلده الجيل الناشىء ، فإن كان الكبراء بعيدى الهمة قوبى الشخصية . ثابتى الإيمان ، مخلصين للوطن ، ترسّم الناشئون خطاهم ، وبَنوا كما كانت أوائلهم تبنى ، وإلاّ فقل على المستقبل ورجاله السلام . ومما يجب تنبه الآباء والمربين له أن يحتاطوا من أن يلجأ الولد إلى تقليد شخص واحد واتخاذه مثله الأعلى . بل عليهم أن يوجهوه إلى الاختيار وانتقاء الصفات والمزايا الفاضلة، فيقلد الشجاعة فى واحد ، والأمانة فى ثان ، والجلد والصبر فى آخر ، وهلم جرا . ثم ليحذر المشرفون على الطفل أن يدعوه يقلد غير الجوهرى من الصفات والعادات كالطفل الذى اعتاد أن يستعين بالمنبه على القيام من نومه فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فيخرج للرياضة مقلدا فى ذلك ماقرأه من أن جوته الشاعر الألمانى كان يفعل هذا أحيانا .

على أن التقليد وحده ليس كافيا فى بناء الخلق ، فأهم منه الاعتماد على النفس والاعتداد بها ، واقتحام الصعاب ومعرفة الحد الذى تصل إليه طاقة الفرد فى مغالبة هذه الصعاب .

وليكن القائمون على أمر الطفل رفقاء به ، حراصا على نجاحه فى نضاله حتى لا يسد عليه الإخفاق أبواب تفكيره السليم ، فيدفعه فى طريق الاجرام أو الجنون إذ أثبت علم النفس الحديث أن الاجرام والجنون والانتحار إنما تنشأ فى الغالب من الخيبة فى معرفة النفس ، وفى العثور عليها وفى التوفيق بين مطالب الحياة المختلفة . ولهذه الأمراض مقدمات تظهر عادة فى التحفظ الشديد ، والصمت الزائد ، والعزلة والجفاء . وانكسار البال . كذلك كثيرا ما يلجأ الأحداث فى مرحلة البلوغ إلى عوائد السكر ، وتعاطى المخدرات إذ يجدون فيها مخرجا من معضلات الحياة ومصاعبها الوجدانية .

أما تحديد علاقة الشخص ببيئته فذلك يقوم على أساسين لا يقوم أحدهما إلا بالآخر ، أولهما شخصية الفرد ، وثانيهما عضويته فى المجموع .

والمدرسة هنا تستطيع أن تكون عاملا كبيرا فى تحديد تلك العلاقة وتكييفها ، والتوفيق بين حرية الفرد وسلطة المجموع ، وذلك بما تقوم عليه المدرسة من وحدات اجتماعية صغيرة تسميها فصولا ، وبما تنظمه من حفلات وألعاب ورحلات ينمو فيها الشعور بروح الجماعة ، ويتعلم فيها الفرد الولاء لرفاقه ، والدفاع عنهم ، والخضوع لقوانينهم . ثم يشعر فيها فوق ذلك أنه ينتمى إلى وطن صغير له دستوره وتقاليده ، وهذا ينمى فيه شعوره بانتمائه إلى وطنه الأكبر ، مهبط أبيه وجده ومصدر فخره ومجده .

من هذا نرى ضرورة احتفاظ كل معهد على بكيانه واستقلاله ، وغرس حب ذلك المعهد فى قلوب طلابه بمختلف الوسائل والأساليب ، من اتخاذ شارة خاصة له ، وإحياء أعياد سنوية ، به وعقد حفلات يحضرها كبار خريجيه وصغارهم ، وإقامة ألواح الشرف يخلد عليها أسماء النابهين منهم ، وتنظيم المباريات العلمية والرياضية بين ذلك المعهد وأمثاله من المعاهد الأخرى .

وأما بحث الطفل فى مرحلة البلوغ عن تحديد علاقته بوطنه الأكبر فذلك ما يجب على أولى الأمر الآن فى مصر أن يولوه اهتمامهم ، وأن يعينوا الطفل فى جهاده فى هذه المرحلة بما ينظمون من محاضرات عامة ، ومن إذاعات على اللاسلكى وبما يزودونه به من دروس التربية الوطنية ليعرف الطفل حقوقه وواجباته ، وليعلم نظام الحكم فى بلاده ، وليقيس ذلك بما يعرفه عن نُظُم الحكم فى البلاد الأخرى .

ثم ليرحبْ من بيدهم الأمر بما يجدون عند الطفل من رغبة فى الجدل وحب فى المناظرة فيشجعوه على بحث الموضوعات التى تصبو إليها نفسه فى هذه السنّ ، كموضوعات : الحق والقوة ، الانسان الكامل ، الحكومة الفاضلة .. وهلم جرا .

أما الشعور الدينى فلا نسبة بين أهميته فى حياة الطفل وبين القدر الضئيل من العناية الموجهة إليه فى مصر . ويخيل إلى أننا فى مصر لا ندرك قيمة الدين عاملا من أكبر العوامل فى بناء الشخصية وتزويدها بالمثل الأعلى فى الحياة ، ولا دعامة من دعائم الاستقرار فى الأمة ، وتماسك أنظمتها ، وترابط صفوفها .

قلنا فيما سبق إن الطفل يشغل باله فى مرحلة البلوغ بمشكلات الخلق والوجود وأسرار المبدأ والمعاد ، ومعضلات الحياة والموت ، وأنه كثيرا ما يساوره الشك فيما حوله من أحكام ومعتقدات ، وأنه لهذا يلتمس الهداية من أب يسأله ، أو أستاذ يستوضحه ، أو كتاب يقرؤه ، ولقد أعرف بين رفقائى فى مصر من كانوا فى هذه المرحلة يصرفون وقتا فى التفكير والنظر ، وأعرف منهم من قرأ معظم كتب الغزالى وابن الحاج وابن رشد ، وأعرف من بينهم من كان يدون فى مذكراته اليومية كل ما يعرض له من شكوك وخواطر وما تقدمه يداه من سيئات وحسنات .

إذاً فمرحلة البلوغ فرصة يجب اغتنامها لمن يغارون على دينهم وأمتهم ، ويحبون أن يروا أبناء الأمة وبناتها ولهم وجهة نظر فى الحياة . وإيمان صادر عن علم ويقين . وهنا نجد السبيل مفتوحا للمتفقهين فى الدين يستخرجون ما فى كتاب الله وسنة رسوله وسير الصالحين وآراء الفلاسفة من أسرار وحكم ، ويصورون من كل هذا ومن تاريخ الأمة مثلا عاليا تتجه إليه نفوس الشبيبة ، وتقيس عليه أعمالها ، ثم يعرضون

على الناشئة تلك المثل فى كتاب أو رواية أو محاضرة ، أو حديث على البرق ، أو شريط أو خطبة فى يوم جمعة أو عيد ، أو افتتاح عام دراسى أو اختتامه . كذلك يجب علينا — وهو فى استطاعتنا — أن نهتم بإحياء التقاليد الدينية فى مدارسنا ومعاهدنا ، وأن ننتفع بالأعياد الدينية فيما قصدت له من تربية الشعب وجمع كلمته وإحياء شعوره ، وأن نحث بنينا وبناتنا ورجالنا ونساءنا أن يعمروا مساجد الله ، فإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله .

وإذا ذكرنا الدين فلنذكر بجانبه لغة الدين ، لغة الحضارة الاسلامية ، لغة الوطن المحبوب ، لغتنا العربية . بلادنا من هذه الوجهة فى مركز غريب ، وستظل حياتنا الاستقلالية ناقصة ، وشخصيات أبنائنا مفككة حتى يعم التعليم فتتوحد اللغة وتتوحد الأفكار وتتوحد القلوب والجهود . وإننا — وإن كنا قد خطونا خطوات واسعة فى هذه السبيل فى الخمسين سنة الأخيرة — يجب أن نحث الخطا وأن نضاعف العمل ، وأن نستعين على تعميم الفصحى وتوطيد دعائمها بكل الطرق والوسائل . ومما يخطر لى فى هذا الباب إنشاء عصبة من المشتغلين باللغة يتواصون باستعمال الفصحى فى منازلهم مع أسرتهم وأولادهم ، وفى ناديهم ومدارسهم وكلياتهم . وأينما ضربوا فى الأرض أو مشوا فى الأسواق ، وليكن من عملهم أن ينشروا الدعوة فى رفق وكياسة ، وأن يغالبوا مايصادفهم من عقبات ، وأن يحملوا قادة الرأى فى البلد على ان يجعلوا تعميم الفصحى نقطة بارزة فى برامجهم [1] . وهذه فى نظرى خدمة وطنية وخطوة فى سبيل الاستقلال الفكرى لا تقل أهمية عن إنشاء مصرف مصر فى بناء استقلالنا الاقتصادى .

للبحث بقية

محمد خلف الله

(١) ومن أولى بذلك من نادى دار العلوم !

ضيعة دار تينجتون

ومدرسة التربية التجريبية بها

بقلم الأستاذ عبد العزيز أمين

عضو بعثة دار العلوم بانجلترا

قال لى أستاذى : وإذاً فأى المدارس تريد أن تزور الآن ، وفى ظنى أنك قد زرت معظم مدارس المدينة و الضاحيات المجاورة ؟ قلت : يحسن بى أن أعود إذا إلى المدرسة المركزية (Central School) فى بليموث لأنى أرى فى نظامها ومنهجها وطرق الدراسة بهـا ما أحسبه جديرا بالملاحظة والدرس . فالتفت إلى وقال: وهل زرت مدرسة دار تينجتون ؟ قلت : بالرغم مما سمعته وأسمعه كل يوم عن مدرسة دار تينجتون ، وتجارب التربية التى يقوم بها مديروها ، والحرية المطلقة التى يتمتع بها تلامذتها ، ومحاسن نظامها ومثالبه ، وما سمعته من ناظرها فى الراديو منذ مدة ، إننى لم أزرها حتى الآن ، وبودى لو أتيحت لى الفرصة؛ قال : أ يكفيك أسبوعان هناك ؟ قلت : بها ونعمت . ثم قابلته بعد ذلك فأخبرنى أن المدرسة على علم بأمر زيارتى التى ستبدأ من يوم الاثنين ١٨ من فبراير .

غادر القطار مدينة إكستر الساعة الثانية والنصف بعد ظهر يوم الأحد ١٧ من فبراير حيث وصل إلى محطة توتنس « Totnes » الساعة الرابعة ، وكان علىّ أن أظل هناك حتى الساعة الرابعة والنصف حين تقوم سيارة عامة من المحطة قاصدة قصر ضيعة دار تينجتون (Dartington) ، ولكن حسن الحظ يسّر لى سيارة خاصة يجريها صاحبها بين الضيعة والمحطة من حين لآخر ، حين يجد العدد الكافى من الركاب . همست فى أذن صاحب السيارة وسائقها قائلا : أقصد « فندق الفجر » فأومأ برأسه إيماء الواثق . واندفعت السيارة فى طريقها إلى الضيعة تقف بين الفترة والفترة لانزال بعض الركاب . ولم يمض نصف ساعة حتى وجدتنى الراكب الوحيد بعد أن وصلت السيارة إلى غايتها . فسألت السائق : أين إذاً فندق الفجر ؟ فقال : أوه ! فندق الفجر ؟ لقد مررنا به منذ مدة ، و بيننا وبينه الآن

مسافة طويلة ، ومعك حقيبة يخيل إلى أنها ثقيلة ، ألا تنتظر حتى أعود بك فى السيارة ؟ قلت : ومتى ؟ قال : الساعة السابعة ؟ قلت : هوّن على نفسك ؟ وصف لى الطريق !

حملت حقيبتى ورجعت من حيث أتيت ، وكنت أحسبنى الوحيد فى ذلك الطريق الذى أجهده ثقل حقيبته ، ولكننى وجدت زميلا يعانى ما أعانى . كان ذلك الزميل تلميذا فى الثامنة من عمره ، عائداً إلى مدرسته — التى لمحتها عن بعد — أعنى مدرسة دار تينجتون ، بعد أن أمضى إجازة الأسبوع مع أسرته ، ولم تكن حقيبته أخف من حقيبتى ، وعلى رغم ذلك لم تبد عليه علامة إعياء أو ملل .

وانتهى بى المطاف إلى الفندق ، وهناك استقبلنى سلوقيان استقبال الصديق لصديق لم يره منذ مدة ، وقادانى إلى مدخل الفندق حيث جاء صاحبه محييا :

لقد استطعت أن تعرف الطريق ؟

نعم ، لقد اهتديت اليه بعد أن ضللته ، وكانت تلك الحقيبة حملا متعباً .

ثم أخذنى إلى حجرة الاستقبال ، وبعد تناول الشاى سألنى :

أظنك قدمت لزيارة المدرسة ؟ قلت : هو كذلك ، وما الذى حملك على هذا الظن ؟ قال : إننا نستقبل غالبا زائرين أجانب ووطنيين ممن يهتمون بشئون التربية والتعليم . وغايتهم زيارة تلك المدرسة التى اشتهرت بنظامها الغريب ، وتجاربها فى التربية .

قلت : وهل لك أن تعطينى فكرة عامة عن إدارة تلك المدرسة ونظامها ؟ وهنا بدأ صاحب الفندق يقول : نعم ، لى ثلاث أبناء يذهبون إلى تلك المدرسة . . . .

ولكن مهلا أيها القارىء . فلن أقص عليك ذلك القصص حتى أحدثك أولا عن ضيعة دارتينجتون ، والمدرسة وكيف تأسست .

لعلك فهمت الآن أن مدينة (توتنس) الصغيرة تقع فى اقليم ديفون وأن قرية دارتينجتنون تبعد ثلاثة كيلومترات عن تلك المدينة . أما مساحة الضيعة فتنيف على ألف الفدان . ويرجع تاريخها إلى القرن التاسع حين كانت أشبه بغابة موحشه منها بمزرعة نضرة . وقد ملكها أحد اللوردات الانجليز ، وأقام فى وسطها وعلى تل مرتفع منزله الفخم الذى لا يزال حتى الآن يحدث بمجد مضاع ، وعز

داثر؛ ويطلق عليه اسم: منزل اللورد «The Manor House» أو «Dartington Hall».

ظلت هذه الضيعة (Estate) خلال عشرة قرون تستغل فى الصيد والقنص، وركوب الخيل والسباق، يسكنها اللورد وحاشيته، وتتناولها يد مالك بعد آخر، وتنتقل من أسرة إلى غيرها حتى وصلت خلال الحرب العظمى الى حال من الاهمال دعت صاحبها أن يعرضها للبيع.

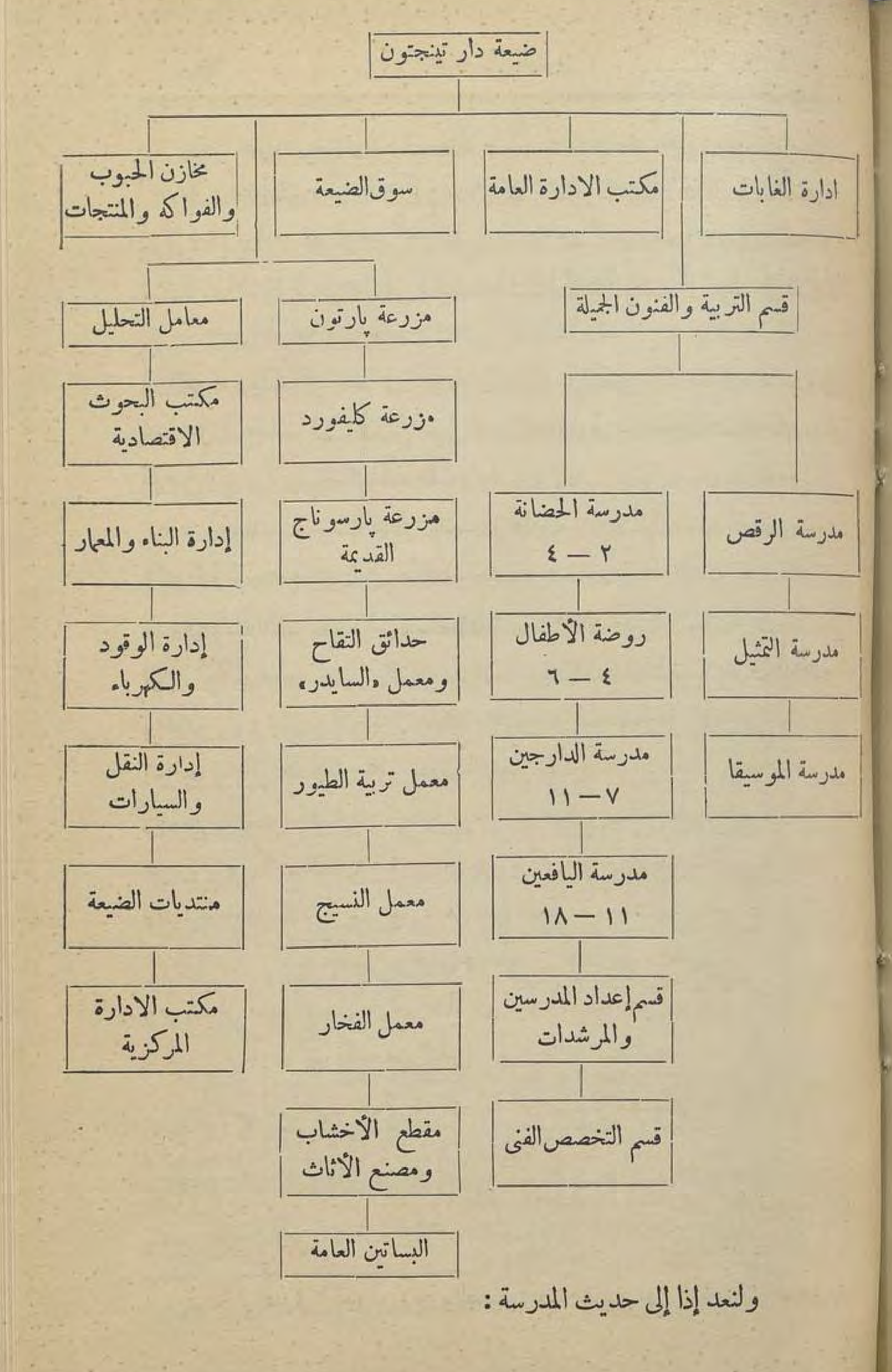
كان مستر ويلارد ستريت قنصلا لأمريكا فى الصين وقد حدت به منيته إلى ان يشترك فى الحرب العظمى حيث قتل كما قتل ملايين غيره، سنة ١٩١٨ فى باريس. خلف وراءه ثروة هائلة لزوجه وأولاده الثلاثة، وكان قد أوصى أن يخصص نصيب كبير منها لشئون التعليم وتجارب التربية. كما أوصى أن يبنى منتدى كبير لطلبة جامعة كورنيل بامريكة.

وحدث ان التقى مستر المهيرست (Elmhirst) الانجليزى بمسز ستريت الأرمل فى أمريكة، ووجدا من توافق مشاربهما، واهتمامهما المشترك بحركات التربية ومدارسها، وشئون التعليم فى الممالك المختلفة ما شجعهما على ان يتزوجا، وأن يتعاونا معا على بحوثهما وتجاربهما فى التربية. عاد مستر المهيرست تصحبه زوجه (مسز ستريت سابقا) الى انجلترا ليبحثا عن مكان يصلح لمشروعهما فى التربية التجريبية. وكان أن وفق الزوجان الى ابتياع ضيعة دارتينجتون سنة ١٩٢٥. وكانت الضيعة كما ذكرت عبارة عن غابة مهجورة، وأدغال واحراج موحشة، مملوءة بالبرك والمستنقعات، ويجرى وسطها نهر «دارت» الشهير.

لم يكن من الميسور حينئذ إنشاء أى معهد للتربية قبل أن تحول الغابة ضيعة ذات زرع تأوى اليها أفئدة من الناس.

وأخشى أن يطول بنا الحديث إذا تعرضت لوصف الضيعة كما هى الآن، ولكن يكفى أن أذكر انها لم تعد بعد غابة موحشة وانما هى معامل ومزارع، حدائق ومشاتل، مصانع للنسيج وقطع الأخشاب، ومدارس لتجارب التربية وتهذيب طرق التعليم.

ولعلك تجد فى الجدول الآتى والصور أيضا ما يغنى عن الافاضة فى الوصف.



ولنعد إذا إلى حديث المدرسة :

تقع المدرسة — أو المدارس لأنها فى الحقيقة ستة عشر بناء — فى هذه الضيعة « Estate » أو ما يطلق عليه ، فى العرف اسم (دائرة) . وقد بدأت أولا بطفل واحد هو البنت الصغيرة لمستر ومسز المهيرست تحت عناية والديها ومرشدة خاصة (Nurse) . وقد رأى والدا الطفلة أن يهيئا لها بيئة اجتماعية بجانب بيئتها الطبيعية ، فاستدعيا بعض أولاد العمال فى الضيعة والقرى المجاورة ، ليرافقوها ويشتركوا معها فى ألعابها وتربيتها . ولكن ما ذاع الخبر حتى توافر عدد من الأطفال كاف لانشاء فصل تحت إشراف مرشدة مدربة . وقد كان ذلك الفصل النواة الأولى لتلك المدرسة الحالية .

تسير المدرسة — كما هى الآن — على نظام التربية المشتركة « Co-education » فالبنون والبنات يعيشون فى مكان واحد ، ويشتغلون جنبا لجنب تحت إشراف مشترك . وهم أشبه بافراد أسرة واحدة منهم بتلامذة مدرسة . وليس للجنسية أو الدين أو المهنة أى اعتبار فالكل سواء . وهناك أطفال أمريكيون ، وهنود ، وانجليز ، وفرنسيون ، وألمانيون : كما أن فيهم اليهودى والمسلم والمسيحى . وبينهم أبناء السفراء والوزراء وكبار ، الفلاسفة والمربين ، كمستر بيرتراند رسل — له طفلان هناك — والسيكولوجى الشهير فرود « Freud » ، والكاتب الذائع الصيت الدوس هكسلى ، كما أن بينهم أولاد العمال والزراع . ويلتحق الطفل بالمدرسة فى سن الثانية ، ويظل بها حتى الثامنة عشرة . وكل التلاميذ — ما عدا بضعة منهم — « داخليون » ، يعيشون كاخوة وأخوات تحت ارشاد واشراف إخوتهم وأخواتهم الكبار ، أعنى المربين والمرشدات .

ويسمى قسم الأطفال بين الثانية والرابعة « Nursery School » أو مدرسة الحضانة ، كما يسمى قسم الأطفال بين الرابعة والسادسة أو السابعة روضة الأطفال «Kindergarten» ويطلق على كلا القسمين اسم المدرسة الابتدائية . أما القسم الأولى « Junior School » (١) فيه أطفال تتراوح سنهم بين السابعة والحادية عشرة .

(١) نرى أن تسمى ال Junior School بمدرسة الدارجين

والقسم الأولى الراقى « Senior Sehool » (١) به أولئك الذين تتراوح سنهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . وقد وُجد من المناسب حينئذ إنشاء قسم ملحق بهذه المدرسة لاعداد مدرسين ومدرسات يتمرنون مدة ثلاث سنوات وفقا لطرق التربية والتدريس المتبعة فى هذه المدرسة ، وتحت اشراف استاذة (٢) استقدمت خصيصا من معهد فروبيل بكمبردج — وقد ذكرت لى انها كانت استاذة لبعض الطالبات المصريات بذلك المعهد .

وبالمدرسة الآن ١٥٠ تلميذا وتلميذة تحت عناية واشراف ٣٠ مربيا ومرشدة كلهم اخصائيون ومدربون . وناظر المدرسة « Mr. W. Curry » خريج جامعتى لندن وكمبردج ، وقد كان ناظرا « Cak Lane Public school » فى فيلادلفيا بأمريكة .

وقد ذكرتُ أن ما بالضيعة من معامل ومصانع ومزارع إنما يعمل بالتعاون مع المدرسة ، وقد أنشىء ليعطى تلامذتها الفرصة الكافية والبيئة الملائمة لتربية مواهبهم وتنشئة استعدادهم . والواقع أن الضيعة بإداراتها وفروعها المختلفة تعمل بالاشتراك والتعاون مع المدرسة نحو غاية واحدة .

ولا تعتبر النفقات المدرسية باهظة إذا وازناها بالنفقات المدرسية فى « Public Schools » مثلا ، فالتلميذ « الداخلى » يدفع ١٢٠ جنيها كل سنة فى المدرسة الابتدائية ، و ١٤٠ جنيه فى القسم الأولى و ١٦٠ جنيه فى القسم الأولى الراقى . هذا عدا مصاريف الكتب والنفقات الخاصة . على أن المدرسة تعفى أبناء الفقراء من المصروفات ، أو تتقاضى مقدارا ضئيلا .

وقبل أن أتعرض لنظام المدرسة وسير الدراسة فيها أشير مرة ثانية الى أن المدرسة « تجريبية » بمعنى أن النظام المتبع فيها لا يمكن أن يؤخذ جملة كأساس

---

(١) نرى أن تسمى مدرسة ال Senior School بمدرسة اليافعين

(٢) أبدت الاستاذة مارجريت إشروود (Isherwood) رغبتها فى بعث بعض الطالبات المصريات للدراسة والتمرن عندها (فى ذلك القسم الخاص) ، وقد كتبت إلى مكتب البعثات بلندن مشيرا إلى تلك الرغبة ، وقد حدد يوم ٢٥ من مارس لزيارة الاستاذ محمد جمال الدين لذلك القسم .

صالح للتربية ، ولا أن تعتبر طرق التدريس فيها قضية مسلمة ثبتت صحتها .

ولنعد إذاً الى نظام المدرسة وإدارتها وما يسمى بالانجليزية « Dixipline »

تتبع المدرسة فى نظامها وإدارتها القوانين الآتية :

(١) كل ما فى المدرسة من كتب وأدوات ومقاعد وأثاث ملك مشترك بين أفراد المدرسة — أو أفراد الأسرة كما يسمون أنفسهم — فليس لتلميذ مقعد خاص أو كتاب خاص أو درج خاص .

(٢) أى مكان فى الضيعة أو خارجها يصلح لأن يكون حجرة للدراسة : فالحقل أو مقطع الأخشاب ، أو الغابة ، أو معمل تربية الدجاج ، أومعمل الفخار أو ملعب التنس أوحجرة الألعاب الرياضية يصح أن يكون مكانا للارشاد والتثقيف .

(٣) ليس التلميذ ملزما بارتداء زى خاص ، فله أن يحضر الى مكان الدراسة — الحجرة مثلا — حافى القدمين ، أومن غير « جاكته » بثياب الحقل أو ثياب النوم .

(٤) ليس التلميذ مقيداً بجدول دراسة أو منهج تدريس ، أو مواد خاصة وإنما له الحرية المطلقة فى اختيار المادة أو المواد التى توافق ميوله ورغباته والتى يرى نفسه مستعدا بطبيعته لها . وله أن يحضر الى مكان الدراسة ، وأن يدعه فى أى وقت شاء .

(٥) يترك المدرس الموضوع الذى يتناول شرحه إلى أى موضوع آخر يقترحه التلاميذ ، فقد ينتقل من شرح حادثة تاريخية الى حجرة الألعاب الرياضية أو معمل نسيج السجاد اذا اقترح التلامذة ذلك .

(٦) للتلميذ أو التلميذة حرية التدخين ، أو استعمال الحاكى « الفونوجراف » أو الخروج من المدرسة لأجل الفسحة متى شاء أو شاءت .

(٧) يعد التلاميذ أسرة نومهم ، وينظفون حجراتهم ، ويمسحون أحذيتهم بانفسهم ويخدمون أنفسهم وقت الأكل .

(٨) لا تستعمل الألقاب فى مخاطبة المدرسين أو المدرسات . وإنما ينادى كل منهم باسمه الشخصى (لا باسم الأسرة كما هى العادة فى انجلترا) : وليم ، جورج . كاترين . . . . الخ

(٩) التعاون أساس العمل فى المدرسة . ولا يسمح بالمنافسة بين التلاميذ فى أى عمل مدرسى .

(١٠) للتلاميذ الحق فى إلغاء أى قانون مدرسى أو استبدال غيره به متى اتفقت الأغلبية على ذلك.

(١١) لا يتدخل تلميذ فى شؤون أى تلميذ آخر ، ولا يتعرض له بنقد أو لوم .

(١٢) لا عقاب ولا زجر ولا توبيخ ، إنما يجوز الانذار .

ولأعد إذاً إلى شرح تلك القوانين المدرسية — إن صح أن نسميها قوانين — وكيف تطبق فى المدرسة ، وأثرها ، وما لاحظته فى أثناء زيارتى :

(١) يرى مديرو المدرسة أن غريزة « حب التملك » تدعو غالباً إلى الطمع ، والجشع ، وقد تغرى الطفل بالسرقة . وقد يكون أثرها بين أطفال من طبقات مختلفة أشد وأدعى للحسد . ولكن شعور الطفل بأنه يملك كل ما فى المدرسة ، وأن له الحرية فى استعمال أى أداة من أدواتها يرضى هذه الغريزة من غير أن يثير فيه الرذائل السابقة ، وكذلك ينمى فى الطفل فكرة المحافظة على الشىء ، لا لأنه ملك له ، بلا لأنه مفيد للمجتمع الذى يعيش فيه ولذا يجب أن يحرص عليه .

(٢) الحقيقة أن فكرة المدرسة كبناء خاص لتلقى العلوم والمعارف ، فكرة « اتفاقية ، تواضعية » تواضع عليها العرف وأقرتها التقاليد ، وإلا فأى مكان يمكن الحصول فيه على المعرفة يصح أن يكون مدرسة . ولو فكر كل منا فى مجموع معارفه وتجاربه لوجد أن كثيراً منها مكتسب فى خارج جدران المدرسة لا فى داخلها . ولما كانت التربية الحديثة وطرق التعليم تحث على اكتساب المعرفة بطريق الخبرة والتجربة الشخصية ، والبحث والوقوف على أسباب ونتائج الظواهر الطبيعية المختلفة كان ضرورياً إذا أن نلجأ لدراسة كل شىء فى مكانه الخاص به متى أمكن ذلك .

وقد أدهشنى ما يعرفه الأطفال عن التجارب العلمية والعملية فى الفروع والمعامل المختلفة التى زرتها . قادنى طفل فى سن العاشرة إلى معمل تربية الدجاج

وهناك بدأ يشرح لى العمليات والخطوات المختلفة التي يقومون بها من ساعة وضع البيضة إلى أن تصبح دجاجة تبيض . شرح خبير مجرب و باحث مغرم ببحوثه مما جعلنى أخجل أمام وفرة خبرته على صغر سنه و كبر سنى .

يرى مديرو المدرسة أن الطفل الذى ينبغ فى مادة واحدة او فرع واحد — وإن لم يقدر مقدرة كافية فى الفروع الأخرى — أفيد وأنفع من ذلك الذى يعرف القليل فى كل موضوع ولا يجيد شيئاً . وتلك هى سياستهم فى التربية الحديثة ، وتجربتهم التى يرمون من ورائها إلى تهيئة الطفل لما خلق له .

(٣) الفكرة السائدة فى المدرسة هى « ترك الرسميات » والتصنع الذى لا يتفق مع طبيعة الأطفال . واتخاذ زى رسمى للمدرسة أو شارة رسمية — كما هو المتبع فى مدارس أبناء الأثرياء « Public Seks » — لا يتفق مع العمل الذى يقوم به التلاميذ ، ولا مع نوع دراستهم ، فهم غالبا فى الحقل او الغابة ، اوالبحيرة ، او المعمل التحليلى وكل هذه أماكن لا تحتاج إلى حسن هندام ، وأناقة ملبس . ذهبت مرة إلى أحد الفصول حيث وجدت أربعة تلاميذ مع أستاذ التاريخ يتناقشون حول نظام الجمهوريات الاغريقية . ويوازنونه بنظام الجمهوريات فى العصر الحاضر . كان التلاميذ بنتين وولدين فى سن السادسة عشرة تقريباً . جلس أحد التلميذين حافى القدمين على مقعد فى ركن الحجرة يلعب بقلم الرصاص ، ولكنه مع ذلك مشترك فى موضوع المناقشة وكانت إحدى التلميذتين مرتدية سراويل « بنطالونا » قصيراً ومن غير جورب . وبالرغم من هذا لم يكن هناك اى شعور بحالة غير معتادة . ثم قابلت التلميذ عينه مرة أخرى فى فناء المدرسة حافى القدمين .

(٤) يشير التقرير العام الذى أصدرته المدرسة أخيراً إلى أنه « ليس للمدرسة منهج دراسى معين ، إذ أن مديرى المدرسة لا يعتقدون بصلاحية أى منهج دراسى معين للأطفال . ومع ذلك فالتلاميذ يدرسون اللغة الانجليزية . والحساب ، والتاريخ . والجغرافية . والعلوم (طبيعة وكيمياء وميكانيكا) بحكم البيئة التى يعيشون فيها . والمدرسة مستعدة لتعليم أية لغة أجنبية لمن يشاء من التلاميذ . وجميع هذه المواد تدرس على أساس الارتباط المتبادل « Correlation » بين بعضها

والبعض الآخر متى أمكن ذلك ، والنشاط الذاتى والبيئة الصالحة هما العاملان الجوهريان لقيادة الطفل واستغلال مواهبه » وفى مكان آخر يشير التقرير إلى أنه « ليس هناك حد معين للمقدار الذى يصح أنه يتعلمه التلميذ من أى مادة ، وللتلميذ أن يختار أية مادة وأن يدرس أى جزء منها ثم يدعها إلى مادة أو مواد غيرها يرى نفسه أشد شغفا بها ، وأكثر استعداداً لها . وليس معنى هذا أن تعيين مواد الدراسة شىء انتخابى (elective) ، ولكن الواقع أن النظام الدراسى مرن إلى حد أن منهج الدراسة يترك تعيينه إلى استعداد الطفل الشخصى . وقد يدعى بعض المعارضون أن من الضرورى أحياناً أن يتعلم الطفل بعض المواد التى لا يميل اليها . ولكن أمثال هؤلاء المعارضين يخلطون بين طرق الدراسة وبين رغبة الطفل أو عدم رغبته فى بعض المواد . إذا كانت طرق التدريس عقيمة والمادة غير مشوقة (Unintersting) كان طبيعيا أن يملها التلميذ ويعزف عنها .

وليس الغرض من التعليم أن يحصل التلميذ على مجموعة حقائق يستطيع أن يسردها متى طلب منه ، وإنما الغرض أن يصادف التلميذ مجموعة عقبات وصعوبات فى حياته التعلمية يمكنه أن يتخطاها . وللحصول على تلك الغاية يجب أن تكون العلاقة قوية بين ما يتعلمه التلميذ وما يحتاج إليه فى حياته العملية ونشاطه الذاتى . والنتيجة المباشرة لذلك أيضا هى رغبة التلميذ الاختيارية فى المحافظة على النظام ، والتعاون التطوعى فى أداء عمله وهما نقطتان أساسيتان للنجاح فى الحياة » .

للبحث بقية

عبد العزيز أمين

— ١٥ —

مر رجل من الفطناء برجل قائم فى طريق فقال : ما وقوفك ؟ قال : أنتظر إنسانا ، قال : يطول وقوفك إذاً .

اللغة العربية فى المدارس الثانوية [١]

بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجليل

المدرس بمدرسة طنطا الثانوية للبنين

لغطت الصحف اليومية فى موضوع ضعف التلاميذ فى اللغة العربية لغطا لم يستطع التحرز منه قراء هذه الصحف على اختلاف ألوانها، وتباين منازعها. ومما لحظته فى هذه الضجة حول هذا الموضوع أن كثيرا ممن أثاروها وكتبوا فيها ليسوا من رجال التعليم.

ولذا جاءت آراؤهم بعيدة عن الصواب أحيانا أو جامحة أحيانا أخرى إذ ليس لهم من التجربة الشخصية والاتصال بالحياة المدرسية ما يعصمهم مما تورطوا فيه من آراء وأفكار لم تكن إلا وليدة مخيلاتهم ونتيجة تصوراتهم.

والحق الذى لا مرية فيه أن فى التلاميذ ضعفا فى اللغة العربية العربية ولكنه ليس ضعفا فى اللغة نفسها ألفاظها وتراكيبها وأساليبها كما زعموا. فهم يفهمون ما يلقى عليهم من الدروس — خصوصا دروس اللغة والأدب — فى لغة عربية صحيحة فصيحة كما يفهمون ما يقرءون من الكتب التى بأيديهم وبعضها من الأدب فى منزلة لا يسمو إلى تذوقه فيها جهول ولا يعييهم التعبير عما يخالج نفوسهم من آراء أو يقع عليه حسهم من مشاهدات. وكل ذلك فى كفاية تقترب بهم كثيرا نحو مثلهم الأعلى، وقد تصل بقليل منهم إلى قنة هذا المثل وذروته. وفى المدارس موضوعات الإنشاء التى كتبها فى امتحان السنة الحالية تلاميذ السنوات الثلاث الأخيرة، فهى خير شاهد عدل على صحة ما أقول فى البيئة التى أعمل فيها على الأقل. ولقد يرى الباحث بين هذه الموضوعات مالا ينقصه تمحيص الفكرة وغزارتها ولا يعوزه فى التعبير الدقة والطلاوة ولا فى

---

(١) ورد هذا المقال لينشر فى الجزء الرابع من السنة الأولى إلا أننا لأسباب قاهرة اضطررنا إلى إرجائه إلى هذا الجزء.

الأسلوب الروعة والحلاوة . ففيم إذا ضعف التلاميذ ؟ . إن ضعفهم — فيما أسمع وأرى — إنما هو من ناحية انتفاعهم بما يدرسون من القواعد فيما يقرءون وفيما يكتبون وفيما يتحدثون أى أنهم لا يحسنون إعطاء أواخر الكلمات حقوقها وتطبيق هذه القواعد قراءة وكتابة وحديثا فهم على حد الآية الكريمة « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . عسى الله أن يتوب عليهم » وهذه الناحية من الضعف هى بلا ريب ذات بال ولها خطرها إذ لا يمكننا أن نعتبر اللحانة تام الثقافة فى اللغة العربية بل هو ناقص الأداة بادى العورات فيها .

وليس ثمة مجال للشك عندى أن هذا الضعف إنما كان وليد خطة الدراسة أو المنهج وجو المدارس أو بيئتها بالنسبة للغة العربية . وإنى لبسبيل من أن أسجل ملحوظاتى على العموم عن كل من المنهج والجو المدرسى بالنسبة للغة العربية مستلهما تجربتى ومشاهداتى موجزا ما اسطعت إلى الايجاز سبيلا .

١ — المنهج

قواعد النحو والصرف : هى فى الوقت الحاضر أبواب وفصول من هنا وهنالك ، روعى فى اختيارها وترتيبها أنها تكملة لما درسه التلاميذ فى المدارس الابتدائية ، على أن ثمة موضوعات كثيرة هامة اكتفى بدراستها فى المدارس الابتدائية ، والاطمئنان إلى ما درسه التلاميذ فى المدرسة الابتدائية اطمئنانا يصل إلى هذا الحد إغفال لطبائع التلاميذ عندنا ، فان التلاميذ الآن يحصلون على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية وأسنانهم صغيرة ، أى أن السنتين الأولى والثانية ، على وجه خاص ، يكثر فيهما هؤلاء الصغار . وتلاميذنا لا ينضجون ولا يهضمون المعلومات وهم فى أسنان صغيرة . ثم هم يعتمدون فيما يدرسون فى المدارس الابتدائية على الذاكرة ، لأن سوط الامتحان ، ويده القاسية ، يدفعانهم دفعا إلى هذا الحشو الذى ليس من التعليم المثمر ولا الثقافة النافعه فى شىء ، فاذا أريد تكوين التلاميذ فى المدارس الثانوية تكوينا صالحا يبرءون به من ضعفهم السابق الذكر ، فلا بد أن يدرسوا من قواعد اللغة كل ما من شأنه محاربة اللحن وإقدارهم على إعطاء آخر كل كلمة ما يستحق من حركة أو سكون (أحوال الفعل من حيث إعرابه وبناؤه

وتوكيده وإسناده — واحوال الاسم — فى بنائه وإعرابه — مع عوامله المختلفه) أما مباحث الصرف فيجب أن يقتصر فيها على الضرورى ، على أن يوزع بمناسبات دروس القواعد . وتختص السنة الأخيرة بأكبر نصيب منها .

المطالعة : يطالع التلاميذ الآن كتبا مضبوطة فى الغالب « خصوصا فى السنوات الثلاث الأولى » ، ولعل الذين رأوا هذا الرأى أرادوا أن يحولوا بين المدرس وبين إضاعة الوقت فى النقاش الذى يدور بينه وبين تلاميذه ، لرعاية القواعد وضبط أواخر الكلمات على وجه صحيح ، وأن يفهموه أن الغرض الأساسى من درس المطالعة إنما هو تزويدهم بما يستطاع من المفردات والتراكيب والأساليب والمعانى والأفكار الصالحة . ومع تقديرنا لهذا الرأى لما فيه من فائدة التلاميذ لا نوافق على هذه المبالغة التى أضاعت على التلاميذ خيرا كثيرا ، فإن مطالعتهم فى هذه الكتب المضبوطة غرست فيهم التهاون من هذه الناحية ، وأضعفت من قوة ملاحظتهم ، وجعلتهم يعتمدون على غيرهم فى أن يقودهم إلى الصواب كما يقاد الأعمى إلى مقصوده . إن المطالعة فى كتب مضبوطة يجب أن تمنع ابتداء من السنة الرابعة الابتدائية ليعرف التلاميذ أن مجرد العلم باللغة العربية : مفرداتها وتراكيبها — من غير أن يحذقوا تطبيق القواعد التى درسوها على هذه المفردات والتراكيب — نقص قبيح وعيب من العيوب التى لا تغتفر .

متن اللغة وتاريخ الأدب : أما متن اللغة فدراسته تكاد تكون غير مجدية ، خصوصا إذا روعى أن بعض الفرق جاء منهجها كليل امرىء القيس وقد تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل ، حتى إن المطلوب من تلاميذ القسم الأول دراسته فى باب الصحة والاعتلال — وهو واحد من أبواب عدة — من الطول بحيث يمله من نصبوا أنفسهم لدراسة متن اللغة وحده . وإذا تذكرنا أن الدرجة التى تخص متن اللغة فى الامتحان درجة تافهة ، أدركنا كيف يقابل التلاميذ هذه المادة . إن حفظ المعاجم وكتب اللغة ليس طريقا من طرق إتقان اللغات . وإنما يحاط باللغة إحاطة نافعة مجدية بدرس النصوص الأدبية ، التى تشتمل على ألفاظ اللغة وتراكيبها مستعملة فى عصورها المختلفة . وفى الأدب العربى — والحمد لله —

متسع لهذا وغناء وكفاية . ولم لا يكلف التلاميذ دراسة شيء من دواوين الشعر ودواوين الرسائل وما يشبههما ، بحيث يختار لكل فرقة ما يناسبها فى أى عصر من عصور، مع التوسع فى الشرح اللغوى على حسب ما تسمح الحال ؟ لعل ذلك أدعى لشوق التلاميذ وخير لهم وأبقى .

وأما تاريخ الأدب فيدرس الآن بطريقة عملية مشوقة ، إذ تستنبط قضاياه وأحكامه بالنسبة للعصور المختلفة ، ورجال الأدب فيها من عرض النصوص والآثار الأدبية ودراستها والموازنة بينها . غير أن منهج الأدب لطلبة القسم الأول مفاجأة خطيرة لهذه العقول الصغيرة . إذ هو يطلب أن يعرفهم بأحوال اللغة من أقدم عصورها المعروفة إلى وقتنا الحاضر فى درس واحد فى الأسبوع . ومهما يكن من شيء فإجابة هذا الطلب أشبه شيء بالمستحيل ، لو كان المقصود أن التلاميذ يعرفون شيئا جديا ذا قيمة فى تاريخ الأدب . إن فى ظننا أن خيرا من هذا كله درس فترة من تاريخ الأدب العربى دراسة عميقة يتشبع فيها الطالب بروحها ، ويدرك أثر نابغيها فى الأدب العربى ، وأثر بيئاتهم فيهم حتى أجدوا على الأدب ما أجدوا بفعل الزمان والمكان ، وما فيهما من ملابسات ومؤثرات .

٢ — جو المدارس وبيئتها بالنسبة للغة العربية

جداول دروس اللغة العربية : نقترح فى شأن هذه الجداول أن يتسلم الأستاذ تلاميذه من السنة الأولى ، ويظل معهم إلى أن يخرجهم ليكون المسئول واحدا . وهذه الطريقة تكاد تكون مهجورة فى مدارسنا ، ولسنا ندعى سلامتها من العيوب ، ولكن لماذا لا نجربها ؟ أن كثيرا من الأساتذة يقررون أن التلاميذ الذين رافقوهم سنين متوالية بطريق المصادفة البحتة قد ظهر أثر مجهودهم فيهم ظهورا جعلهم يطيبون نفسا بهم من ناحية العلم والنظام . واذا كان نخشى من هذه الطريقة فى بعض النواحى ، فإننا نستطيع أن نحول دون وقوع ما نخشاه باختيار أساتذة تتوافر فيهم صفات مشتركة تسوى بينهم على قدر الامكان .

لغة التدريس : — إن تدريس فروع اللغة العربية غير معقول، وليس صحيحاً فى الأفهام أن يكون بغير هذه اللغة نقية خالصة مبرأة من شائبة اللحن وهجنة العامية ومهانة الدخيل . و على أساتذة اللغة ألا يسمحوا لأنفسهم بالتهاون فى هذا لحظة ، فإن دروسهم وأحاديثهم أول البيئات وأشدها أثراً فى تقويم ألسنة الطلاب ، والتمكين لهم فى لغتهم القومية . على أن هذا الواجب لايخص أساتذة اللغة وحدهم ، وإنما هو ايضاً فى أعناق أساتذة العلوم الأخرى التى تدرس باللغة العربية . ولو تحقق هذا فلا بدأن تنهض اللغة العربية وتسلم من شر أدوائها على ألسنة طلابها ، فالتلاميذ الآن يرون كثيراً من أساتذتهم لايصطنعون العربية الصحيحة فيما يدرسون ، ولهم مالهم فى النفوس من كرامة ، وفى القلوب من منزلة ، فلا غرابة أن يرسخ فى أذهانهم أن اللحن ، والتكلم بالعامية ، واستعمال الألفاظ الدخيلة ، بل التعبير أحياناً عن بعض المعانى بعبارات من لغات أجنبية ، والحديث دائر بالعربية ، أشياء لاعاب فيها ولا ملامة ؛ ولهم فى أساتذتهم ورؤسائهم والقائمين على شؤونهم أسوة أى أسوة والصغار أبداً مولعون بمحاكاة كبارهم .

اعداد الدروس واشراك التلاميذ فيه : — تلك طريقة وإن اتسمت بالقدم ، خصوصا عندنا فى مصر حيث حمل الأزهر لواءها أجيالا طوالا ، فقد دلت التجاريب الحديثة فى طرائق التربية والتعليم فى أرقى الممالك شعوبا وأعلاها كعوبا على أنها خير طريقة تسير بالمتعلمين قدما فى سبيل تربية الملكات ، وإنمائها ، وتوسيع المدارك ، وتفتيح الأذهان ، وغرس كثير من أمهات الفضائل وجليل الشمائل . فان البحث الشخصى قبل حضور الدرس يهيء للطالب الفرصة لاختبار عقله ، ويقفه أولا فأولا على الأشواط التى قطعها فى طريقه إلى النضج والفهم الصحيح ؛ ثم هو يشعر فى ذلك أن له فى الدرس موقفا غير موقفه فى درس لم يسبق له أن رآه أو بذل فيه مجهوداً قليلا أو كثيراً . فهنا يعمل الطالب لنفسه وبنفسه ، ولا تلقى عليه المعلومات كأنها أوامر يجب أن يخضع لها . وهنا عزة الطالب والاعتراف به وبحريته فى الرأى . إننا من غير شك نلجأ إلى هذه الطريقة النافعة فى كثير من

الدروس ، ولكننا حين نريد أن نلجأ اليها فى أهم دروس اللغة ، وهى دروس النصوص والمطالعة ، نرى التلاميذ وقد خلت مقاطرهم ومنازلهم من كتب اللغة ومعاجمها التى لابد منها لشرح ماغمض من الألفاظ ، وتحديد معانيها ، ومعرفة شىء عن أصولها وفصائلها . فتلاميذ القسم الأول لايعطون كتبا فى اللغة على الاطلاق ، وطلبة القسم الثانى يعطون كتيبا لايشفى غلة ، ولا يعين فى إعداد معظم الدروس ، على أنهم يزودون بالمعاجم الضرورية لهم فى الانجليزية والفرنسية ابتداء من السنة الأولى . وهذه ظاهرة تملأ نفوسنا ـ معشر أساتذة العربية ـ أسفا وحسرة ، لابد أن يكون فى متناول التلاميذ معاجم كافية فى اللغة العربية فاما أن توزع على كل تلميذ ، وإما أن تعد حجرات لاعداد الدروس بالمدارس يغشاها الطلبة فى غير أوقات الدروس ، وتكون مجهزة بأكثر من معجم واحد .

مكتبات المدارس — ليس فى المدرسة مكان لايغشاه الطلبة ، ولا صلة لهم به ، كذلك المكان المعروف فى كل مدرسة باسم المكتبة ، ثم يطالب أستاذ اللغة بعد ذلك أن يغرس فى الطلبة حب القراءة وتعودها . وكيف يستطيع ذلك إذا لم يعط الطلبة فرصة التعرف بالكتب الأدبية المختلفة ؟ اللهم لاسبيل إلى هذا التعرف إلا بفتح أبواب هذه المكتبات أمام الطلبة . ولماذا يعطى المدرس الذى يوكل اليه أمر المكتبة نصف جدول أو يزيد قليلا ؟ أذلك لأن يأتى إليه المدرسون فى اول العام الدراسى ليأخذ كل منهم مايريد من المراجع التى تلزمه ، فاذا ما انقضى أسبوع اوأسبوعان لم ير أحدا منهم أبدا؟ إن كل شىء فى المدرسة يجب أن يكون للتلميذ فيه نصيب . وليس من المنطق فى قليل أو كثير أن تعطل دور الكتب عن خدمة الثقافة فى دور الثقافة .

جماعات اللغة العربية ونواديها — يجب أن تنشأ جماعات ونواد يفرض على أعضائها ألا يتحدثوا ولا يدور بينهم نقاش إلا باللغة العربية الصحيحة . ونصف ساعة فى كل يوم كفيل أن يخدم اللغة العربية بين التلاميذ خدمة جليلة ، إذا زارهم كل يوم أستاذ يتحدث معهم فى أمر من الأمور التى يشوقهم التحدث فيها من حوادث اليوم ومسائل الحياة .

اتصال دروس المطالعة بالحياة — يجب أن يرد إلى المدارس أعداد كافية من المجلات العلمية والأدبية المحترمة، كالمقتطف والهلال والرسالة وأشباهها، ليستطيع الأستاذ أن يوزع من إحداها العدد الكافى لفرقة ما، ويدرس معهم موضوعا يختاره ليكون التلاميذ على اتصال بالحركة العلمية والأدبية فى وقتهم الحاضر، ولتتاح لهم الفرصة أن يعرفوا شيئاً عن أعلام العلم والأدب المعاصرين. أما التزام كتاب واحد طول السنة فلا يخلو من ملل وسآمة.

طول المناهج والتشدد فى إتمامها قبل نهاية العام الدراسى بنحو شهرين — لاجدال فى أن بعض المناهج طال واسبطر، فما يتناسب مع الزمن المقرر له، كما لاجدال أيضا فى أن المدرسين يطلب إليهم فى المدارس أن يتموا المقررات والمناهج قبل نهاية العام الدراسى (على قصره فى المدارس الثانوية) بستة أسابيع على الأقل. ويعلق القوم على الاعادة أكبر الآمال وأوسعها. وهكذا يركب الأساتذة قطراً سريعة لقطع المناهج، ويحملون حملا على تمتين الطبقات العليا من البناء، دون أن يكون هذا مطلوبا منهم بالنسبة للأساس فى البناء نفسه. على هذا يجرى العمل فى المدارس بالنسبة لجميع المواد المقررة، ولسنا ندرى متى ينتهى أمد هذا التعليم الآلى الذى وأد العقول وأدا، ورد الملكات على أعقابها ردا.

الجشع فى الأعمال التحريرية — لقد أصبحنا — والحمد لله الذى لايحمد على مكروه سواه — لا نرى مظهرا من مظاهر كفاية المدرس وقدرته الفنية، أروع ولا أدعى إلى التقدير من إعطاء موضوعات تحريرية كثيرة، تغطى الزمن المقرر كله فى نصف السنة الدراسية. والواقع الذى لاريب فيه، أن هؤلاء المدرسين الذين ورطهم حب الثناء فى هذا إنما فعلوا ما فعلوا بعد أن تناسوا الدروس الشفوية، ولم يراعوا لها أثراً، أو يقدروا لها خطراً. وما لهم يقدرونها حق قدرها وأصوات الاستزادة لايسكن لها صخب، ولا يهدأ لها ضجيج ينبعث من داخل المدرسة وخارجها؟ وما لنا نعجب إذا رأينا التلاميذ يخبطون خبط عشواء

الليل يرتكبون أفحش الغلطات الإعرابية وأقبحها ، إذا كانوا كاتبين أو قارئين أو متحدثين .

وبعد فتلك حال اللغة العربية فى المدارس الثانوية ، وهذه هى الأسباب والعلل التى تحول بين التلاميذ وبين الوصول إلى مثلهم الأعلى فى لغتهم القومية الوطنية ، وإنى لأتقدم بما كتبت - شهادة خالصة لوجه الله والوطن واللغة - إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

عبد الله عبد الجليل

- ١٦ -

تظلم أهل الكوفة من عاملها إلى المامون ؛ فقال : ما علمت فى عمالى أعدل منه ؛ فقال رجل من القوم : يا أمير المؤمنين فقد لزمك أن تجعل لسائر البلدان نصيبا من عدله ، حتى تكون قد ساويت بين رعاياك فى حسن النظر ، فأما نحن فلا تخصنا به أكثر من ثلاث سنين .

صفحات مطوية من الأدب الروماني ، بقلم الفيلسوف سنكا « Seneca »

من نعم الله علينا العفة والاعتدال (١)

ترجمة محمد مهدي علام

المفتش بوزارة المعارف ، وعضو المكتب الفني

تمهيد :

عاش سنكا من سنة ٣ قبل الميلاد إلى سنة ٦٥ ميلادية ، فهو من هذه الناحية مخضرم في الزمن ؛ وهو أسباني المولد ، روماني المربى ، فهو من هذه الناحية مخضرم في الجنسية (إذا صح هذا التعبير) . وقد أظهر ذكاء خارقا منذ صغره وتربى على أيدي طائفة من أمهر الأساتذة ورحل إلى بلاد اليونان ومصر ، واشتغل بالقانون ثم عهد إليه بتربية العاهل العاتية نيرون . ولقد أظهر سنكا من الضعف في تربية هذا الطاغية الناشىء ما كان له أسوأ الأثر في حياة كل من التلميذ والأستاذ ، بل في حياة الدولة الرومانية نفسها . ولقد اتخذه نيرون وزيرا مستشارا له ، بعد جلوسه على عرش رومة ، فكان له أطوع من بنانه ، في تحرير الفتاوى التي يزكي بها أعماله الشاذة من قتل وسفك وغدر . حتى إنه حينما اغتال نيرون أمه كتب له سنكا خطابا إلى مجلس الشيوخ ينكر فيه الجريمة ويزكيها في آن واحد . على أن طاغية الرومان قلب لمستشاره ظهر المجن ، فنحاه عن منصبه أولا ، ثم بعث إليه بمن قتله أبشع قتلة .

من نعم الله علينا العفة والاعتدال

ليس ثمة أي شيء مما هو ضروري لنا إلا ونحن نستطيع الحصول عليه بثمن رخيص أو بلا ثمن مطلقاً ؛ وهذا تدبير لنا من الله تعالى ، الذي لم يضق إحسانه عن مطالبنا . ولا شك في أن المعى تشتهي ، وتدعونا لإشباعها ؛ ولكن قليل

(١) عن الانجليزية ص ٨١ — ١٠٠ من كتاب :

The Morals of Seneca : A Selection of His Prose. Edited by Waletr Clode.

الطعام يرضيها . فبلغة من الخبز وجرعة من الماء فيهما الكفاء ، وما زاد على ذلك فهو زائد على الحاجة (١) . وإن من يعيش بحسب العقل لا يمكن أن يصير مسكيناً ، كما أن من يجعل للهوى السيطرة على حياته لا يمكن أن يصير غنياً ؛ لأن الطبيعة محدودة ، بخلاف الخيال فانه لا حد له . أما الطعام والثياب والمأوى فقليل يطعم الجسم وقليل يكسوه : بحيث إذا تابع الانسان الطبيعة البشرية ، من غير تطلع إلى الكماليات ألفى أنه فى غنى عن الطاهى ، غناه عن الجندى ، فانا نستطيع الحصول على الضروريات بثمن قليل ، على حين نحمل أنفسنا أشق المتاعب فى سبيل الحصول على الكماليات . وان العناية الربانية لأرحم بنا من أن تتركنا نعيش بذكائنا ، وأن نكون فى حاجه إلى الفنون والاختراعات . وليس يوقعنا فى المشكلات إلا الفخر وحب الفضول . فاذا لم يقنع المرء بغير الحلل الثمينة ، والرياش الفاخر ، والتماثيل والتحف الفضية والذهبية ، والجمع الحاشد من الخدم والحشم ، ونادر التحف من جميع الأقطار — فليس الخطأ خطأ المقادير ، بل خطؤه هو ، فى أنه لن ينال رغباته لأن شهواته مسحوتة (٢) ؛ وما ذلك تعطش ولكنه مرض . ولو أنه كان سيد العالم بأسره ما زاد على أن يكون شحاذا . وإن هو إلا العقل الذى يمنحنا الغنى والسعادة ، بقطع النظر عن الحالة التى نكون فيها ، وليس للأموال فى نظره من القيمة أكثر مما لها فى نظر الآلهة . وإذا كان الدين خالصاً لله لم تكن ثمة حاجة إلى بدائع الزينة . وليس يصور لنا الفقر بغيضاً بشعاً إلا الترف والشره ، فان أعمالنا لا تحتاج إلا إلى اليسير ، وإذا نحن أعددنا ماندفع به عن أنفسنا البرد والجوع والعطش ، فان كل ماعدا ذلك ليس إلا زهواً وإسرافا وما بنا من حاجة إلى الانفاق على شهى الألوان الأجنبية أو مبتكر الصحاف الأنيقة . أهو أسوأ حالا فى فقره ذلك الذى يحتقر هذه الأشياء ؟ أم هو أسعد حالا لأنه لا يستطيع ثمنها ؟ فانه يبقى سليما معافى أراد أم لم يرد ، وإن ما يعجز الانسان عن عمله يبدو فى كثير من الأحيان كما لو كان غير راغب فى عمله .

(١) تدبر الحديث : « ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت » .

(٢) مسحوتة : نهمة لا تشبع ، وهى كلمة دقيقة فى ترجمة كلمة « Insatiable »

اعتزال العصور السابقة

إنى إذ أتصور العصور السابقة ، يعقد الخجل لسانى كما لو كان الفقر فى حاجة إلى مواساة ، فاننا قد بلغنا الآن من إسرافنا فى شهواتنا درجة أصبح فيها التراث العظيم أقل من أن يفى بوجبة ، فلم يكن لدى هوميروس إلا خادم واحد ، وكان لأفلاطون ثلاثة خدام ، ولم يكن لزينون (زعيم المذهب الرواقى العظيم) خادم مطلقا ، ولقد كانت بنات سيبيو يتقاضين أنصباءهن من الخزانة العامة ، لأن أباهن لم يخلف لهن ما يساوى درهما (١) . وما كان أسعد أزواجهن ، فقد كان حموهن أهل رومة . وهل فى استطاعة إنسان أن يحتقر الفقر بعد هذه الأمثلة السامية ؟ وهى أمثلة تكفى لا للرضا بالفقر فحسب ، بل لامتداحه وإطرائه ، ولما هرب من ديوجين خادمه الوحيد ، سئل عن مكانه وحاول أصحابه أن يغروه بالبحث عنه وإعادته إلى خدمته : فقال لهم : « واعجباه أيستطيع مانس أن يعيش من غير ديوجين ، ولا يستطيع ديوجين أن يعيش من غير مانس ؟ » وبذلك لم يسترجعه . إن تقوى سيبيو وعفته قد جعلت ذكراه أكبر جلالا مما جعلتها سيوفه ودروعه ، بل لقد كانت منزلته بعد أن رحل عن بلاده أعظم مما كانت يوم كان يذود عن حياضها ؛ فانه حدث أنه لم يكن مفر من أن تكون رومة جانية على سيبيو أو أن يكون سيبيو جانيا على رومة .

إن الرجل العفيف ليجد فى الخبز القفار والماء القراح ما يغنيه عن وليمة . وإن حشائش الحقول لتمنح الانسان من الغذاء ماتمنح الوحوش . إن أسلافنا لم يعلنوا مجدهم بشهى الأطعمة وعبق العطور ؛ ولكن بالأعمال الفاضلة ، وبالعرق المتصبب من المجهودات العظيمة الحربية ، المملوءة رجولة .

حالة البراءة أو الطهارة

إذا كانت الطبيعة ملكا شائعا لجميع الناس ، وخيراتها فى متناول أيديهم للاستمتاع بها استمتاع هرجلة وهربجة ، فأية حالة أهنأ من أن يعيش الجنس

(١) شبيه بهذا مسألة أولاد عمر بن عبد العزيز .

البشرى من غير حقد ولا حسد ؟ وأى غنى أحسن من ألا يكون فى الدنيا رجل فقير ؟ وما إن تحكم الطمع فى منح المقادير المتساوية ، وشرع الأفراد يغتصبون لأنفسهم ما كان مقدرا أن يكون للجميع ، حتى دلفت الفاقة إلى الدنيا عندما طمع بعض الناس فى أن يكون لهم أكثر مما يستحقون ، فحرموا سائر الناس من أنصبائهم — وهى خسارة لايمكن أن تعوض ، إذ مهما أمكن أن ننال أكثر مما فى أيدينا ، فقد كان لنا كل شىء . لقد كانت ثمار الأرض فى تلك الأيام موزعة على سكانها من غير عوز ولا إسراف . وما دام كل إنسان كان قانعا بنصيبه ، لم تكن تعرف الدنيا اعتداء ، ولا طغيانا . ولا إخفاء لهذه الخيرات العامة لأغراض شخصية ؛ بل كان كل فرد معنيا بجاره عنايته بنفسه ، ولم يكن هناك سلاح ، ولا سفك دماء ؛ ولا حروب إلا مع الحيوان : فثمة فى ظلال الغاب ، أوحماية الكهوف ، أمضى الناس نهارهم من غيرهم ، وليلهم من غير أنين . فطهارة نفوسهم كانت درعا لهم وأمانا . هنالك لم تكن السرر المرفوعة ، ولا اللآلىء الخاطفة للأبصار ، ولا التطريز والوشى ، ولا ما يتبع كل ذلك من آلام وتأنيب نفسى ؛ فقد كانت السماء عرشهم وظلتهم ، وكان لهم فى بهائها وجمالها متعة لأنظارهم ، ففى حركة الأفلاك ، ومدارات النجوم ، وفى نظام المقادير البديع كان تأملهم وتفكرهم . ولم يكن لديهم آنئذ مدن ، بل فضاء فسيح ذو هواء طلق ، ونافورات بلورية ، وظل ظليل ، ومروج كساها جمالها الفطرى ، وبيوت منحتهم إياها الطبيعة ، فعاشوا فيها عيشة راضية ، لايفزعهم شبح الحرمان ، ولايقلقهم توقع الأذى . لقد عاش أولئك الناس من غير بلبال ولا خداع ؛ ولم يكونوا قد مزقوا باطن الأرض بعد للبحث عن الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وماكان أبعدهم عن قتل النفس الذى نقترفه نحن لنتلهى بمنظره ، بُعداً لم يوقعهم فيه باعث الخوف أو الغضب . ولقد أحسنت إلينا الفطرة بأن جعلت فى متناول أيدينا كل الأشياء التى قد تعود علينا بالخير ، ولم تُخف عنا إلا تلك الأشياء قد يكون فيها أذانا — كما لو كانت تخشى أن تخلى بيننا وبين الذهب والفضة ، أو الحديد الذى هو أداة الحروب والصراع للحصول على مافى أيدى غيرنا . فنحن أنفسنا الذين قد استخرجنا لأنفسنا من باطن الأرض

كلا من أسباب الخطر وأدواته. ثم قد بلغ بنا الغرور أن جعلنا أعلى قيمة لتلك الأشياء التى خصتها الطبيعة بأحط مكان. وماذا يمكن أن يكون أبشع وأخشن من هذه المعادن النفيسة فى مناجمها ؟ وأية ذلة وقذارة أعظم مما يتمثل فى أولئك الرجال الذين يستخرجون تلك المعادن من المناجم ؟ على أن هذه المعادن تدنس عقولنا أكثر مما تدنس أجسامنا. فهى تجعل مالكها شرا من مُعَدِّنها.

وقصارى القول أن الأثرياء أكثر رقا من الأرقاء، كلاهما لا يقنع بالقليل(١).

الحياة العفيفة هى الحياة السعيدة:

ما أسعد الرجل الذى لا يأكل إلا ليشبع الجوع، ولا يشرب إلا ليطفىء الظمأ، ويعيش وراء عقله لا وراء تقليده، ويتزود لما هو نافع وضرورى، لا للتباهى والتفاخر. لنضع الشكائم على شهواتنا ولنشجع الفضائل.. ليكن فراشى ساذجا ونظيفا، ولتكن كذلك ملابسى، وليكن طعامى من غير نفقات كثيرة أو خدم كثير، ولا يكونن عبئا على جيبى أو بدنى. وإن مايستقله الترف لأكثر مما يكفى الطبيعة، وإن غاية الطعام والشراب هى ما يشبع الجوع ويروى العطش. وماذا يحدث لو أن شخصا أكل وشرب أكثر من آخر. ما دامت النتيجة أن كلا منهما ليس غرثان ولا ظمآن ؟ (٢) وإن أبيقور الذى يحد اللذة بحدود الطبيعة، كما يحد الرواقيون الفضيلة، لعلى حق مبين، وإن أولئك الذين يستشهدون بأقواله ليؤيدوا بها شهواتهم ليسيئون فهمه كل الإساءة؛ وهم بذلك يبحثون عن حجة طيبة لغرض شرير، فليس ثمة من صلة بين لذاتهم فى الكسل، والنهم، والفجور، وبين مبادئه وتعاليمه.

والحق أن فلسفته تبدو للنظرة الأولى فلسفة مخنثة، ولكن من ينظر إليه نظرة تمحيص يلفيه رجلا شجاعا. وإن ارتدى حلة نسوية.

---

(١) تأمل الحديث «اثنان لايشبعان طالب علم وطالب مال»

(٢) تدبر قول عمر رضى الله عنه: «كفى سرفا ألا يشتهى الرجل شيئا إلا أكله».

ليمشي الفلاسفة على مقتضى تعاليمهم

وإني أعلم أن هناك نقدا شائعا بأن هؤلاء الفلاسفة لا يحيون الحياة التي يدعون إليها في تعاليمهم، فإنهم يستطيعون أن يتملقوا سادتهم (١) ويجمعوا الضياع، ويبلغ بهم الحزن على فقد ثرواتهم وأصدقائهم ما يبلغ بسائر الناس. إنهم يألمون كما يألم الناس من الزجر والتقريع، إنهم كسائر الناس في ترفهم في طعامهم، وشرابهم، وأثاثهم، ومنازلهم؛ إنهم لا يختلفون عن الناس في عنايتهم بالتحف الجميلة من الذهب والفضة، وبالخدم والحشم. إن حدائقهم لا تختلف عن حدائق الناس فيما تحتوى من جمال وتنوع. ثم ماذا يترتب على كل هذا؟ بل ماذا يترتب على أن يكون ذلك أضعافا مضاعفة؟ إن من درجات الفضيلة أن يحتقر المرء نفسه، وإذا لم يستطع أن يسمو إلى أعلى درجاتها، فليكن أسمى من أحط درجات الرذيلة، وإذا لم يستطع أن يخضع شهواته إخضاعا تاما فليعارضها وليقلل من شرورها.

وإذا لم أعش على السنن الذي أدعو إليه، فلتلاحظ أنني في إرشادي لا أصف نفسي وإنما أصف الفضيلة؛ وإنني لا تحزنني رذائل الناس كما تحزنني رذائلي (٢) ولقد وجه هذا الاعتراض إلى أفلاطون، وأبيقور، وزينون. على أنه ليس ثمة فضيلة بلغ من تقديسها أنها نجت من الاستهتار. ولقد كان ديمتريوس الكلبي مثالا

(١) هنا وصف لحياة سنكا وكذلك ما بعده.

(٢) تدبر البيت المشهور

خذ بقولي ولا تنظر إلى عملي ينفعك قولي ولا تضرك أعمالي

على أننا نجد ابن المقفع يخالف سنكا في هذا الرأي ـ ولعلها المخالفة الوحيدة: «ومن نصب نفسه للناس إماما في الدين فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والاخدان. فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه؛ فانه كما أن كلام الحكمة يونق الأسماع كذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم.» الأدب الصغير (٢٣ - ٢٤)

قويا للصرامة والتقشف ، وقد فرض على نفسه ألا يملك شيئا ؛ ولكنه مع ذلك لم يسلم من تلك الثلمة(١) : وهى أنه احترف الفاقة بدلا من أن يحترف الفضيلة . ولقد عيب على أفلاطون أنه كان يطلب المال ، وعلى أرستطاليس أنه كان يتقبله ، وعلى ديمقريطس أنه كان يهمله ، وعلى أبيقور أنه كان ينفقه . وما كان أسعدنا لو أننا اقتصرنا على محاكاة رذائل هؤلاء الرجال ! فاننا لو بصرنا بحالنا لألفينا فى أنفسنا ما يغنينا عن غيرنا . ولكننا أشبه بقوم قد أخذهم الطرب فى مسرح أو حان ، على حين أن بيوتهم تندلع فيها ألسنة النيران ، ولكنهم لا يعلمون من أمرها شيئا ، وها هو ذا « كاتو » نفسه ، اتهم بأنه كان سكيرا ، غير أننا لا نرى فى سكر كاتو تلك الجريمة التى كان يمكن أن تكون فى خيانته . إن أولئك الذين يهدمون المعابد . ويحطمون المحاريب ، يدلون على نيتهم الشريرة ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوا من الآلهة نيلا ؛ وكذلك الشأن فى أولئك الذين يستبيحون سمعة الفلاسفة العظماء . وإذا كان معلمو الفضيلة — كما تسميهم الدنيا — نهمين ، فساقا ، متكالبين ، فماذا يكون إذن أولئك الذين يشمئزون من اسم الفضيلة ؟

غير أن الطبائع الشريرة لا تحتاج إلى كبير ذكاء لانتقاص من هم أسمى منها أخلاقا . ومن عادة الجماهير أن تنبح عظماء الرجال كما تنبح الكلاب الصغيرة الضيف الغريب ، ذلك أنهم يرون فضائل غيرهم وسائل التقريع لهم على رذائلهم . ألا أن من الخير أن نمتدح الفضلاء ؛ فان لم نستطع فلندعهم وشأنهم ؛ ولندخر أنفاسنا (٢) ، فان ثورتنا ، إلى أنها كفر بالفضيلة ، لا تثمر إلا الإخفاق (٣) ولأعد إلى الموضوع الأصلى .

---

(١) تدبر المثل العربى : « وقد لا تعدم الحسناء ذاما . »

(٢) يقصد لنوقهم كلماتنا فى ذمهم .

(٣) ما أجمل قول نابغة بنى شيبان :

وما طلابك شيئاً لست نائله ، وسبك الناس ظلما ، غير تعذيب

من الخير أن تتعود الاعتدال في أيام رخائك [1]

إن من أيسر الأمور علينا أن نحدد الحدود لغيرنا ، ولكننا نستنكف أن نقيد أنفسنا أو نضبطها ، على الرغم من أننا نستطيع بشرور خفيفة أن نتحاشى شرورا أفظع منها أضعافا مضاعفة ؛ و إن العقل الذى لا يقنعه منطق الفكر بالأخذ بأسباب الفضيلة ، يقنعه فى كثير من الأحوال ، العوز بالاستمساك بها . فلنحاول أحيانا أن يكون غذاؤنا متقشفا (٢) ، وأن نخدم أنفسنا بأنفسنا ، وأن نعيش فى حدود مواردنا ، وأن نقص دثارنا على مقتضى مالدينا من النسيج و إن محاولتنا الاعتدال فى الحين بعد الحين تزودنا بأقوى برهان على حزمنا وفضلنا .

إن الشهوة الملجمة لجزء عظيم من الحرية ؛ ومن الرحمة بأنفسنا — مادام مستحيلا أن ينال امرؤ كل ما يتمناه — أن نحجم جميعا عن الرغبة فيما ليس فى أيدينا (٣) إن وظيفة العفة أن تسيطر على ملذاتنا : فهى تنبذ بعضها وتعدل بعضا آخر بجعله فى الحدود المعقولة ، فما أجمل الراحة بعد الإجهاد ، والطعام بعد المسغبة ! لقد تعلمت من رحلة واحدة أن كثيرا مما لدينا ليس إلا ترفا يستغنى عنه بأيسر مؤونة ، فاننا حين تحرمنا الظروف إياه لا نشعر حتى بحاجتنا إليه . (٤) هذا هو اليوم الثانى لرحلتى مع صديق ، ومركب واحد يقلنا نحن وخدمنا جميعا ، وحشيتى مفروشة على الأرض ، وعليها أنام ، وطعامنا يلائم فى تقشفه مأوانا ، ولم نحرم بيننا ولا كتب المائدة ، وسائق البغال من غير نعال ، وليس فى البغال ما يثبت أنها حية إلا أنها تمشى ، وأنا أشعر بأنى لست راضيا عن هذا العناء ،

---

(١) تدبر الحديث الشريف « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وفراغك قبل شغلك ، وصحتك قبل سؤمك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك »

(٢) راجع الحديث : « اخشوشنوا فأن النعمة لاتدوم »

(٣) تدبر المثل الانجليزى : إذا كنت لا تستطيع أن تنال ما تحب ، وجب عليك أن تحب ماتنال :

If you Cannot have what you like, yow must like what yow have.

(٤) تدبر قول الشاعر :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ولكننى إذ أذكر أننا طالما كنا فى حالة أحسن من هذه ، يعلونى الخجل ؛ مما يدل على أننى لم أمعن بعد فى اعتياد تلك الأشياء التى أطريها وأمتدحها : ألا أننى لم أعتنق بعد الاعتدال ، فان من يخجل ان يُرى فى حالة متواضعة ، يطربه زهوا أن يرى فى حالة فاخرة . فأنا أنزل نفسى المنزلة التى ينزلنى رفقاء سفرى ، وأنا بذلك أبرأ ضمنا من آرائى وتعاليمى ، على حين أنه كان يجب على أن أرفع الصوت جهرا لبنى الانسان قائلا : انكم جميعا لفى جنون ، فقد ملك عليكم أفئدتكم الترف فغدوتم لا تقدرون رجلا لفضائله . وقد عدت إلى مأواى ذات ليلة ، وقد برح بى الاعياء ، فألقيت بنفسى على الفراش ، وفى صدرى هذه الفكرة : أنه لا شىء من الشرور يتقبل بقبول حسن ، فخبازى يخبرنى بأنه ليس عنده خبز ثم يقول : « على أننى أستطيع أن أحضر لك خبزا من مستأجريك ولكننى أخشى أنه لن يكون خبزاً شهيا » فأقول له : « لاضير ، فسأنتظر حتى يصبح شهيا » ومعنى ذلك أننى سأنتظر حتى ترحب معدتى بما هو أسوأ منه .(١)
إن من الحزم أن نحاول فى بعض الأحيان الاعتدال ، وأن نعود أنفسنا القليل ؛ فان كثيرا من الصعاب ، صعاب الزمان ، وصعاب المكان ، قد تحملنا على الرضا بذلك القليل . إننا فى الشئون المالية (الميراث أو الوقف) نختبر قيم الرجال اختباراً دقيقا قبل أن نعهد إلى واحد منهم بدرهم . إننا نقول : إن لهذا الرجل ضيعة عظيمة ، ولكن الخبث أوقعها فى الارتباك ، إن له منزلا جميلا ، ولكنه بنقود مقترضة قد بنى ؛ إن له أسرة كبيرة ، ولكنه ليس على اتصال بدائنيه ، ولو أن ديونه قضيت لأصبح لا يساوى فلسا فلماذا لا نسلك مثل هذا النهج ، لنتعرف قيمة كل إنسان ؟ ألا إنه ليس يكفى أن يكون لك فيلق من الأتباع ، أو أملاك واسعة ، أو كنوز من المال والجواهر تنوء مفاتحها بالعصبة أولى القوة ، فان الرجل مع كل ذلك قد يكون فقيراً ؛ وسيكون الفرق بينه وبين الفقير ، على أحسن تقدير ، أن أحدهما يقترض من المربى ، والآخر يقترض من كنوزه ، وعلام تدل الزينة والتذهيب فى المركب ؟ وهل يمكن أن يجعل ذلك صاحبه أفضل مما هو ؟

مهدى علام

(١) تدبر المثل الألمانى « الجوع أمهر طاه » Hunger ist der beste Koch.

فى ظلال الروض

زهرة حمراء :

انظروا إلى لونىَ البديعْ
إننى به بهجة الربيع

٭٭٭

يا لَحُمْرَتى إنها الشفقْ
يا لَصُورَتى جلّ من خلقْ

زهرة بيضاء :

طَلعتى هنا فى رياضها
أسفرتْ لكم عن بَياضها

٭٭٭

وجهُها غَدا يشبه القمر
فهو إن بدا زينة الزهَرْ

الزهرتان تتهكمان بزهرة صفراء :

ما لهذه خانها الأمَلْ؟
يا لوَجهها هل دنا الأجل
أم سَرتْ به صُفرة الوجلْ؟
علّها جنَتْ وصمةَ الزّللْ
فاغتدتْ هنا مَضرِب المثل
يا لَحُسنَها إنه رحلْ!
يا لنَجمِها إنه أفلْ

ثم تتهكمان بزهرة قاتمة :

مالِ لوَجهها يشبه الحلكْ
ليتَ عُودها كان قد هلكْ
قبل أن يرى طيفهَا الفلكْ
لحمةَ الدجى ما لنَا ولكْ

الروض يؤنب الزهرتين :

إيه زهرَنا ما الذى أراه؟
ما الذى به تهمسُ الشّفاه؟
يا لشَمْلِنا ما الذى دهاه؟
نحن كلُّنا زينة الحياه
فاطَّرح إذن هذِه الأذاه
لن تضيرَنا صورةُ الجِباه
حَسْبُ زهرنا بيننَا شذاه

* * *

أيها الزَّهَرْ أصْغ واعتبِرْ
كيف نعْتَلِى كيف نزدهِرْ
إنْ جموعُنا شملها انتثر
إنَّ طاقةً تنظم الزهَرْ
خيرُ مَظْهر للسَّنا الأغَرْ

* * *

إنَّ أمة تبصرُ الخَطرْ
ثم لا تَنِى تَعبُد الصُّوَرْ
إنَّ صرْحها سوف يَنْفَطِر

إنَّ مَجْدَها سوف يَنْدَحِرْ
ثم تغتدى مبعث العبرْ

* * *

فى ائتلافنا حسننا بهر
فاهجروا إذن ذلك الصَّغَرْ
وانشدوا الصفا تغنَموا الظفر
كلنا هنا نافِع وبرْ

الزهر:

إيه روضنا شُكرنا الوفير
قد حميتنا من أذى الغرورْ
قبل أن نرى سيء المصيرْ

* * *

ذى جموعنا سادها الوئام
لن ترى بها ثغرة انقسام
لن ترى غداً ذلك الخصام

* * *

نحن نفتدى مصر أن تضام
فى ظلالها جادنا الغمام
حيث نيلها يطغىُ الأوام
حيث نبتها يغمر الأكام
حيث أرضها منتدى الكرام

* * *

ذا ائتلافنا يشهدُ الأنام
أننا هنا آية السلامْ

محمد يوسف المحجوب

المدرس بمدرسة محمد على الملكية للبنات بالقاهرة

جيش مصر

كانت لنا جنود كأنهم أسـود
كم بددوا جيوشا وزلزلوا عروشا
فواصلوا الفتوحا وشيدوا الصروحا
قد حصنوا الحدودا ووثقوا العهودا
تاريخهم مجيـد وفعلهم حميـد
فكلهم ينادى خلقت للجهاد

الفتاة والعصفورة

عصفورتى عصفورتى أنت الأنيس بحجرتى
طيرى إلى ورفرفى ياسـلوتى فى خلوتى
طيرى وغنى إننى أجـد الغناء مسرتى
فالطير فى تغريدها تحكى حيـاة الأسرة
وإذا تهز جناحها تدعو لخير رياضـة
من رام صفو حياته فليذهبن لحديقـة

خالد الشامى

استدراك

نشر سهوا فى العدد الرابع من السنة الأولى صفحة ٢٢٣ فى مسابقة عيد الوطن الاقتصادى اسم ابراهيم عبد الفتاح افندى الطالب بدار العلوم على أنه الفائز الثالث فى المسابقة . وترتيبه الصحيح : الثانى .

الفلاح

فلاَّحَنا حُزْتَ الفخار ورفعت فى مصر المنار
وحبيتها منك النضار

ترد الحقول من الصباح وتقيم فيها للكفاح
حتى يفارقك النهار

وتظل تعمل باجتهاد من يوم تزرع للحصاد
ترجو من الله الثمار

إن جعت أو نزل النكد لم تشك الا للصمد
هيهات أن تبغى الفرار

وتقول حملى للفئوس أحلى وأعذب فى النفوس
من حمل أكليل وغار

أبناء مصرٍ دافعوا عن حقه وترافعوا
فبلاؤه رأس الدمار

الموسيقا

تملكت عنانى وصوتها شجانى
تصدح بالأنغام فتستبى آذانِي
كأن فيها سحراً يحل بالأبدانِ
مسرَّةُ الحزين وفرحة الولهان
علالة الشيوخ وسلوة الشبَّان
ترقق الشعورا كالشعر والبيانَ
تشجع الجبانَا فى حومة الطعانِ
وتملأ القلوبَا محبة الأوطان

محمد عبد المنعم سالم

فهرس الجزء الأول

من السنة الثانية

صفحة	الموضوع	الكاتب
	بحوث فى التربية	
١٤٨	على هامش التعليم الالزمى	زكى المهندس — مدرس التربية بدار العلوم
١٦٣	اصلاح التعليم الثانوى	عبد الحميد حسن — المفتش بوزارة المعارف
١٧٤	البيئة وأثرها فى التربية	حامد عبد القادر — أستاذ علم النفس بكلية أصول الدين
١٨٥	عجائب الوراثة	على عبد الواحد وافى — الأستاذ بدار العلوم وأقسام التخصص بالازهر
١٩٩	الوراثة والعادة عند أفلاطون وأرسطو	ابراهيم بيومى مدكور — خريجى دار العلوم ودكتور فى الآداب والفلسفة
٢٠٣	التعليم فى الهواء الطلق	محمد عطيه الأبراشى — المفتش بوزارة المعارف
٢٠٨	تربية الشخصية فى مرحلة البلوغ	محمد خلف الله — عضو بعثة دار العلوم بانجلترا
٢١٦	ضيعة دار تينجتون	عبد العزيز أمين — عضو بعثة دار العلوم بانجلترا
٢٢٦	اللغة العربية فى المدارس الثانوية	عبد الله عبد الجليل القرشى — مدرس بمدرسة طنطا الثانوية للبنين
	فى الأدب الأجنبى	
٢٣٤	صفحات مطوية من الأدب الأجنبى	محمد مهدى علام — المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفنى
	ديوان الأطفال	
٢٤٣	فى ظلال الروض	محمد يوسف المحجوب — مدرس بمدرسة محمد على الملكية للبنات بالقاهرة
٢٤٦	الفتاة والعصفور — جيش مصر	خالد الشامى
٢٤٧	الفلاح — الموسيقا	محمد عبد المنعم سالم